موسوعة
التربية الجهادية وأهدافها
عند الإمام علي

تقديم الكاتب الكبير
جورج جرداق
مؤلف موسوعة الإمام علي صوت العدالة الإنسانية

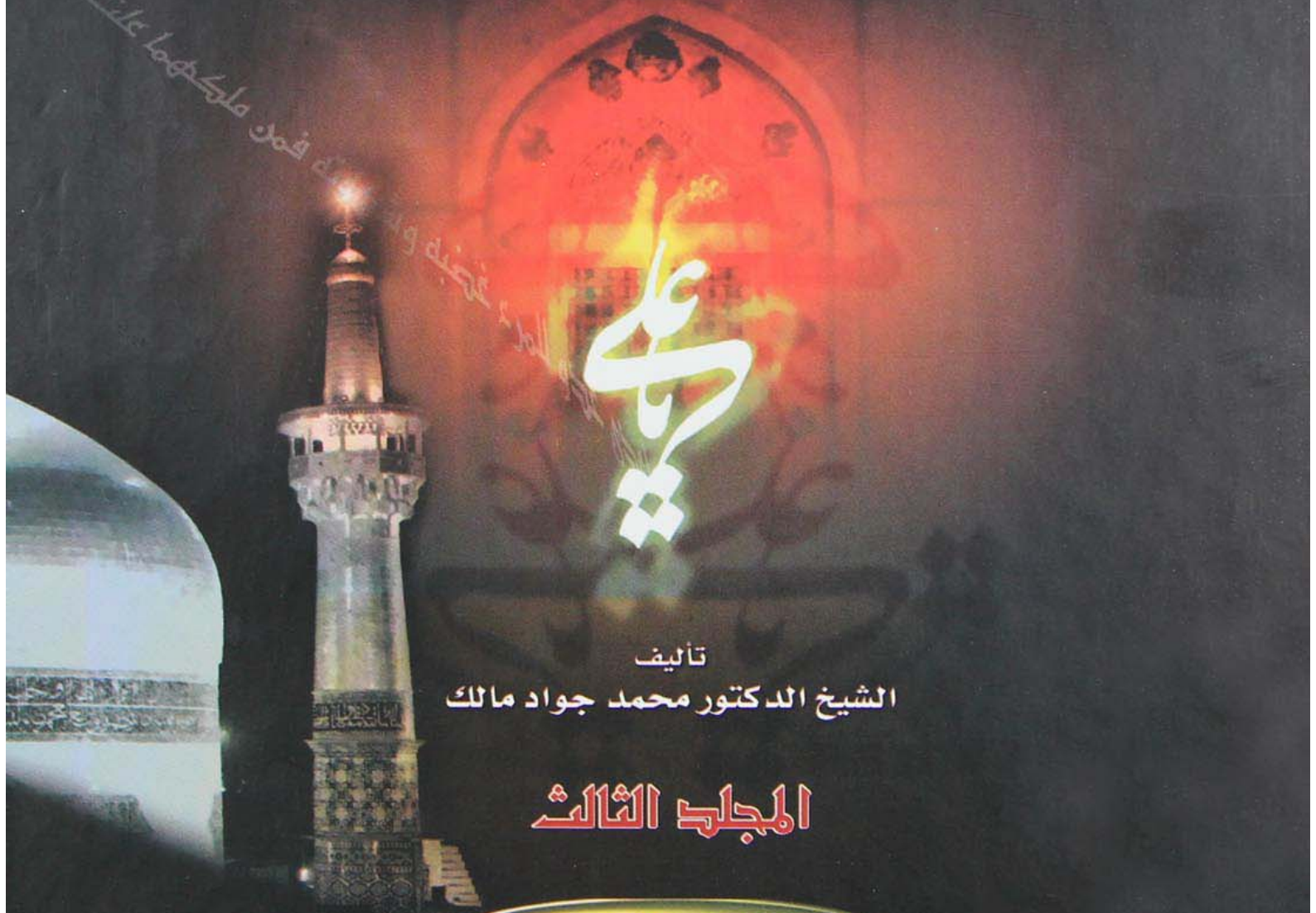

تأليف
الشيخ الدكتور محمد جواد مالك

المجلد الثالث

الدار العربية للموسوعات

www.haydarya.com

موسوعة
التربية الجهادية وأهدافها
عند الإمام علي

اسم الكتاب: موسوعة التربية الجهادية وأهدافها عند الإمام علي

المؤلف: الشيخ الدكتور محمد جواد مالك

الطبعة الأولى: ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ

© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-614-424-025-0 (أربع مجلدات)
ISBN 978-614-424-028-1 (المجلد الثالث)

الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - ستر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ * ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

موسوعة
التربية الجهادية وأهدافها
عند الإمام علي

تقديم الكاتب الكبير

جورج جرداق

مؤلف موسوعة الإمام علي صوت العدالة الإنسانية

تأليف

الشيخ الدكتور محمد جواد مالك

المجلد الثالث

الدار العربية للموسوعات

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

المبحث الثاني

معركة صفّين (١)

نتناول هذا المبحث ضمن المطالب التالية:

* المطلب الأول : مرتكزات السياسة الجهادية لدى الإمام في عهد خلافته *

* المطلب الثاني : استمرار المفاوضات السياسية قبل وقوع الحرب وأثنائها *

* المطلب الثالث: تعاليم وفنون قتالية *

---

(١) صفين: - بكسرتين وتشديد الفاء -، موضع يقع ما بين أعالي العراق وبلاد الشام. بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي. وقعت عليها المعركة المعروفة باسمها. ما بين جيش معاوية القادم من دمشق - الشام، وجيش الإمام علي القادم من الكوفة - العراق، ابتدأت الحرب في أول ذي الحجة سنة ٣٦ هـ، وحصلت الهدنة في شهر محرم الحرام سنة ٣٧ هـ، واستؤنف القتال في أول صفر، وانتهى في ١٣ صفر سنة ٣٧ هـ - ٦٥٧م. فبالمحصلة دامت المعركة مائة يوم وعشرة أيام، بلغت فيها الوقائع تسعين وقعة، واختلف في عدد الجيشين، فقيل: كان معاوية في مائة وعشرين ألفاً، وكان عليٌّ في تسعين ألفاً، وقيل: عكس ذلك، وقد قتل في هذه المعركة سبعون ألفاً، منهم أصحاب عليّ خمسة وعشرون ألفاً، ومن أصحاب =

= معاوية خمسة وأربعون ألفاً، وقتل مع عليّ خمسة وعشرون صحابياً بدرياً. وقد وصف الشعراء تلك الواقعة وذكروا الشهداء والقتلى فيها.

راجع: الحموي، ياقوت: معجم البلدان، مج٣، باب الصاد والفاء وما يليهما، ص٤١٤-٤١٥. والمنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مقدمة الطبعة الأولى وابن مزاحم هذا، هو: أبو الفضل نصر بن مزاحم بن سيّار المنقري المتوفى سنة ٢١٢هـ. وهو مؤرخ عربي، شيعي، كوفي النشأة ولكنه سكن بغداد، لذلك أورد له الخطيب البغدادي ترجمةً في تاريخه (تاريخ بغداد، ج١٣ ص٢٨٢-٢٨٣) ويعدّه ابن النديم في الفهرست ص ١٣٧ من طبقة المؤرخ المعروف أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي، وهو من اقدم المؤرخين لوقعة صفين بعد أبي مخنف. راجع المقدمة ذاتها - أيضا -. وكذلك راجع، الدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص١٥٥-٢٠٢. ولمعرفة تفاصيل الواقعة، مع مسائل التحكيم من بعدها، راجع المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب، ج٢، ص٣٨٤-٤١٤. والطبري، ابن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٥٨-٥٧١، ج٤، ص٢-٥٢. وابن الاثير، عزّالدين: الكامل في التاريخ، ٣/ ٢٧٦-٣٢٦.

المطلب الأول

مرتكزات السياسة الجهادية
لدى الإمام في عهد خلافته

حينما آلت الخلافة إلى علي عليه السلام سعى بكل جدّ واجتهاد في سياسته نحو توحيد الأمة في ظل دولة الخلافة الشرعية، وذلك عبر إخماد الاضطرابات والفتن، التي سادت في الساحة الإسلامية في نهايات الخلافة الثالثة، وإجراء العدالة والمساواة بين أبناء الأمة - عموماً- في التوزيع والعطاء، ونبذ العصبيات القبلية، والتوجّه نحو عمليات البناء الحقيقي للدولة، على أسس التقوى والعمل الصالح. واستيعاب غضب الثائرين ضد الولاة والمسؤولين غير المرضيين في موازين العدل الإسلامي، وذلك باستبدالهم، ووضع الأكفاء والأمناء في مواضعهم الإدارية.

وكان الإمام عليه السلام على إدراك تام بما يدور في خلد الساسة والإداريين الذين سيتضرّرون من سياسة حكومته، حيث إنها ستوفّر المناخ الملائم لتلاقي مصالح هؤلاء المتضرّرين مع مصالح أولئك الذين كانوا يمنّون أنفسهم بمواقع إدارية متقدمة في سياسة الخليفة الجديد. لذلك نلاحظ الخطاب السياسي للإمام كان يمتاز بتكريس قيم الرسالة الإسلامية في النفوس، والتوجه الوحدوي العام للأمة،

بينما يلاحظ على الخطاب السياسي لعموم أطراف المعارضة كان يمتاز باتجاه الانقسام المصلحي، وإثارة الفتن والمؤامرات ضد دولة الخلافة.

وبعد واقعة الجمل، انتهى دور الناكثين، وبذلك خسرت المعارضة أبرز رموزها المتقدمة، فازدادت قريش - القبيلة المغرورة، بؤرة المعارضة - غضباً وألماً، وهي تبحث عن رموز بديلة لمواصلة خططها الاستيلائية. هذا وقد ألمحنا - فيما سبق- أنّ معاوية بالشام كان يدرك تماماً بأنه من المعزولين - لا محالة- إدارياً وسياسياً، لأنه يعلم أنّ العدالة الشرعية التي تمثلها حكومة الإمام ستنال من أعماله وتصرفاته وسلوكه. يذكر الطبري -على رواية ابن عباس- أنّ المغيرة بن شعبة التقى عليّاً، مشيراً عليه أن يثبت ولاية بعض الولاة خصوصاً معاوية، لاعتبارات موضوعية، على الأقل في بداية عهده، فقال له الإمام: «والله لا أداهن في ديني، ولا أُعطي الدّنيّ في أمري. . والله لا استعمل معاوية يومين أبداً»[١].

ومع ذلك بقي معاوية متظاهراً بالمطالبة بدم عثمان[٢]، هذا الشعار الذي أصبح هو الشعار اليتيم للمعارضة، وانكفأ يخطط لنيل

---

(١) الطبري، ابن جرير: تاريخ الرسل والملوك، ٣/ ٤٦١.

(٢) ومن حقنا أن نتساءل من نصّب معاوية وليّاً لدم الخليفة عثمان. بوجود خليفة المسلمين الشرعي، وبوجود عمرو بن عثمان ولده ووريثه الشخصي. ومن ثمّ لماذا فرّغ هذا الشعار من محتواه؟ حيث لم نعثر على مطالبة معاوية بالدم بعد شهادة علي إطلاقاً. وكان ردّ معاوية الجميل للإسلام والمسلمين أن حوّل الخلافة إلى ملكية وراثية لولده الفاجر يزيد قاتل سبط الرسول الإمام الحسين. راجع كتاب الخلافة والملك لأبي الأعلى المودودي.

مآربه السياسية، ومن هنا نفهم - أيضاً- دفعه للناكثين نحو البصرة والكوفة، بعيداً عن مناطق نفوذه، وذلك ليتسنى له جني ثمار المعركة في كل الأحوال، فإن انتصر الناكثون- وهو مستبعد حسب المعطيات- فسوف تتوسع دائرة المعارضة، وتتحجّم دولة الخلافة داخل الحجاز، وإن انتصر جيش الإمام، فستفتح أمامه فرصة لملمة المعارضة تحت قيادته دون منافس، وذلك بعد أن يستنزف جيش الإمام قسطاً من طاقاته في معركة الجمل، وفي حينها سيباغته بمعركة ثانية بجيش حافظ على إمكانياته وقدراته القتالية، فهو لم يحارب بعدُ، وبذلك ستكون فرصة النجاح أمام جيشه أوسع.

المهم، حينما حسم الأمر في البصرة لصالح الإمام، عجّل معاوية بالتحرك نحو إعلان الحرب، مستغلاً فرصته للانقضاض على جيش ما زال منهمكاً في لملمة جراحاته، وتنظيم وحداته، رغم انتصاره الساحق، لأن الزمن ليس في صالح معاوية، على ضوء الحسابات العسكرية.

أمام هذه المستجدات الميدانية، كانت حكومة الإمام تواجه تحديات كبيرة، في طريق تحمّل أعباء تلك المهام والمسؤوليات، التي تمحورت في اتجاه دقة المرحلة المصيرية لدولة الخلافة، وبذلك كانت تستوجب تكثيف التربية الجهادية من قبل الإمام لجيشه ومواليه، لغرض إنجاح المواجهة العسكرية المرتقبة مع جيش معاوية.

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١- • العودة الواعية إلى القرآن الكريم، والاقتداء بالرسول الأكرم ﷺ.

٢• التعبئة القتالية بشدّ الهمم للجهاد، ونقد المتباطئين عنه.

٣• إصرار الإمام على منهجيّة الاستقامة الإسلامية.

• العودة الواعية إلى القرآن الكريم، والاقتداء بالرسول الأكرم ﷺ:

ففي أجواء التطلعات الشخصية نحو كسب المال والجاه وحبّ التسلط التي أفرزتها سياسات المعارضة لحكومة الإمام عليه السلام، ثمّ إفراغ شعار المطالبة بدم عثمان من محتواه الفعلي، وقد بات معروفاً لدى أغلبية المسلمين، وبالذات المتلقين لنداءات الإمام وتوجيهاته التربوية، بأن هذا الشعار، هو مجرد وسيلة لتوسيع رقعة المعارضة، وتأليب أكبر عدد ممكن من الناس ضد حكومة الإمام عليه السلام، وإنه الذريعة الوحيدة لخوض الحروب ضد جيش الخلافة. وبالفعل لم يتوقف معاوية على رفع قميص عثمان الدامي على منبره بالشام، وإنما بادر إلى إجراء الاتصالات المكثفة بوجوه الناس، وكبار الصحابة - من قريش بالذات- وبقية ولاة عثمان المشمولين بالعزل، لغرض استمالتهم إلى حركته المناوئة لدولة الخلافة، وتحريضهم على القتال وأخذ الثأر[1].

فكانت طريقة معاوية في جمع الأنصار والمؤيدين تختلف تماماً عن طريقة الإمام في كسب المؤيدين وتربية المجاهدين، وهذا التناقض التربوي يعكس -بوضوح- ذلك الواقع الإيماني المتين

---

(١) للتفاصيل راجع: المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٤٤-٥٢، ص٨٢، ص١٣٩.

للإمام عليه السلام، وبالمقابل يكشف عن الواقع المصلحي لمعاوية - وكل إناء بالذي فيه ينضح- فلقد كانت أساليب معاوية لا تتعدّى قضايا الإغراء المادي والسلطوي بعيدة كل البعد عن روح الإسلام والجهاد في سبيل الله، وقد وجد معاوية هوى كثير من الناس في هذا الاتجاه، لذلك واصل عملية احتضان المتضرّرين والفارين من عدالة علي عليه السلام، والباحثين عن الجاه والمال، والذين يختزنون في نفوسهم ثارات بدرٍ وأحدٍ وحُنين، من سيف ابن أبي طالب، حيث وجدوا ضالتهم بالاجتماع حول راية معاوية ليحققوا تلك المكتسبات التي ما أنزل الله بها من سلطان، فقد أمن الفارّون عند معاوية، واصطفّ معه من يطلب بالثأر الجاهلي، كما وسال -لديه- لعاب طلاب الدنيا والطامعين في السلطة، وأكتفي في بيان هذه الحقائق بمثالين فقط، من شواهد تاريخية كثيرة احتوتها الكتب المعنية. المثال الأول: عبيد الله بن عمر بن الخطاب، حينما التحق بمعاوية بالشام، «أرسل معاوية إلى عمرو بن العاص فقال: يا عمرو، . . وقد رأيتُ أن أُقيمه خطيباً فيشهد على عليّ بقتل عثمان، وينال منه. فقال: الرأي ما رأيت. فبعث إليه فأتى، فقال له معاوية: يا بن أخي، إنّ لك اسم أبيك، فانظر بملء عينيك، وتكلم بكلّ فيك، فأنت المأمون المصدّق! فاصعد المنبر واشتم عليًّا، واشهد عليه أنه قتل عثمان. فقال: . .أمّا شتمه فإنه علي بن أبي طالب، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم، فما عسى أن أقول في حسَبه، وأمّا بأسه فهو الشجاع المطْرِق. وأمّا أيامه فما قد عرفت، ولكني ملزمهُ دم عثمان. فقال عمرو بن العاص: إذاً والله قد نكَأتَ القَرْحة. فلما خرج عبيد الله، قال معاوية: أما والله لولا قتلُهُ الهرمزان، ومخافة عليّ على نفسه ما

أتانا أبداً»[١]. وهنا يشير معاوية إلى السبب الحقيقي لانضمام ابن عمر إليه، فقد ذكر المؤرخون انّ «عبيد الله، لما قُتل عمر أخذ سيفه وشدّ على الهرمزان فقتله.. فلما بويع عثمان همّ بقتله ثم عفا عنه. وكان قد أشار عليٌّ على عثمان بقتله، فلما بويع ذهب عبيد الله هارباً إلى الشام، وكان في مقدّم جيش معاوية يوم صفين، فقتل يومئذٍ، ويقال قتله عمّار ابن ياسر»[٢].

والمثال الآخر، هو عمرو بن العاص، المستشار المخطط - بدهاءٍ ماكرٍ - لمعاوية لم ينضم إليه إلّا بعد أن «أعطاه مصر طعمةً، وكتب له بها كتاباً»[٣]. ويذكر المسعودي - فيما بعد- نقاشاً بينهما، له دلالته الواضحة، فقد قال ابن العاص لمعاوية: «..لولا مصر لركبت المنجاة منها، فإني أعلم أن علي بن ابي طالب على الحق وأنت على ضدّه. فقال معاوية: مصر والله أعمتك، ولولا مصر لألفيتك بصيراً»[٤].

---

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص ٨٢-٨٣. كان عبيد الله مُطالَباً بدم الهرمزان الذي قتله ثأراً لمقتل أبيه عمر، على يد أبي لؤلؤة غلام الهرمزان. وللعلم ان عبيد الله لم يشهد على عليّ كما أراد معاوية. وإنما قال شعراً يبرء فيه علياً من دم عثمان، ولكنه يؤكد على مظلومية عثمان، فرضي منه معاوية بهذا القدر! المرجع ذاته، ص٨٣-٨٥. راجع المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص٢٦١.

(٢) الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، ٣/ ٣٤٥-٣٤٦. وكذلك ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم: الإمامة والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، ص١٠٣.

(٣) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين: ص ٤٤. وللتفاصيل مع ذكر أشعار ابن العاص ص٣٤-٤٤. راجع الطبري، محمد بن جرير، ٣/ ٥٥٨-٥٦٠.

(٤) المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، ٣/ ٢٩.

إذن، بهذه الصفقات الباطلة، تجمعت قوى المعارضة لعليّ عليه السلام حول معاوية، فاتبع معاوية شراء الدين من النفوس، ببيعه بعض دنياه الزائلة، لذلك قال الإمام عليه السلام في ذكر عمرو بن العاص: «. . إنه ليقولُ فيكذب، ويَعدُ فيُخلِف، ويُسأل فيَبْخلُ، . . إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه آتيّةً، ويرضخ له على ترك الدين رضيخةً»(١). «والآتية: العطية. والرضيخة: الرشوة، وهي مصر، وقد كان معاوية أعطاه مصر طعمة على أن يظاهره في حرب علي عليه السلام»(٢).

بهذه الأساليب الهدّامة لروح الإسلام وقيم الأخلاق، استطاع معاوية أن يلملم من وجوه قريش وبعض وجوه المسلمين إلى جانب جنده من أهل الشام ليظهر بهم في قوة عسكرية ومعنوية، محاربة لجيش الخليفة الشرعي. ومما يذكر إنه لم يكن مع معاوية من الانصار إلّا النعمان بن بشير، ومسلمة بن مخلد، بينما كان مع علي يوم صفين من أهل بدر سبعون رجلاً، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجرين والانصار أربعمائة رجل، يقاتلون عن قناعة وإيمان بأحقّية الخليفة الشرعي، سواءً انتصروا أم لم ينتصروا في المعركة، وقد عبّر عن ذلك الصحابي الكبير عمّار بن ياسر حينما صاح في الناس: «والله إنهم لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هَجَر لعلمنا أنّا على الحق، وأنهم على الباطل. ثم قال: ألا هل من رائح إلى الجنّة؟ فتبعه خلق، فضرب حول سرادق معاوية»(٣).

---

(١) باب الخطب، رقم ٨٤. رضخ له رضخاً: أي أعطاه عطاءً كثيراً، أو أعطاه قليلاً. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٨٦.

(٢) البحراني، ابن ميثم: اختيار السالكين، شرح نهج البلاغة الوسيط، ص٢٠٢.

(٣) ابن أبي يعقوب، أحمد: تاريخ اليعقوبي، مج٢، ص١٨٨.

وقد ظهرت هذه السلوكيات التآمرية على حقيقتها ضد الإسلام حينما وقف خطيباً بأهل الكوفة، بعد إبرام الصلح مع الإمام الحسن عام ٤١هـ - ٦٦١م حيث قال: «إني والله ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا ولا لتحجّوا ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، إنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم..»[١].

في سياسة علي عليه السلام: لا للمكر والغدر ولا للمهادنة والخديعة:

في هذه الظروف العسيرة، تشخصت مهمة الإمام في مواجهة تلك التيارات الجاهلية، التي باتت تهدّد صميم الإسلام ووعي المسلمين. وبالفعل تحمّل الإمام عليه السلام مسؤولية البناء الإيماني للمسلمين -وبالتحديد للمجاهدين- وحماية النخبة الإسلامية الممتحنة في إيمانها، وذلك على أسس الإسلام، بالقراءة الواعية للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، بعيداً كل البعد عن اغراءات الدنيا والشيطان والهوى، وأساليب المكر والخداع، وعموم القيم الجاهلية التي وجدت متنفساً لها على يد معاوية وأنصاره، في تلك الظروف العاصفة.

يقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود: «من معين النبوة نهل الإمام، وبخلق محمد تخلّق، وبالهدى الإلهي اهتدى في علاقته بالناس أجمعين، أولياء وأعداء، لم يكن يثيره أن يخسره أحدهم بعض حقه، أو يعدو عادٍ على خاصّة ماله، لأن الحق الشخصي في

(١) الاصفهاني، ابو الفرج: مقاتل الطالبيين، ص٧٧. راجع: آل ياسين، الشيخ راضي: صُلح الحسن عليه السلام، يذكر في الصفحة ٣١، تاريخ الصلح في الخامس عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٤١ هـ، على أصح الروايات.

اعتباره ليس سوى عرَضاً زائل، لا يرى ضيراً في الرخصة فيه، ولكنه كان إلى جوار هذه الأريحية السمحة يحنق الحنق كله ويثور أعنف الثورة، ثم يشتد في حساب من يجورُ على حقّ الأمة.. وها هو الآن وقد تظافرت عليه عوامل الظلام والضلالة، لا يجنح فتيلاً إلى مهادنتها، أو الصبر عليها، فلا يترخص في التصدي لها بكل ما في قلبه من إيمان، وفي جنانه من ثبات، وفي يمينه من سلاح، لأنها قد طغت على حق الأمة، واجترأت على شرعة الله»[١]. من هنا قال الإمام في تقويمه لسياسة معاوية: «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدرُ ويفجرُ..»[٢]. وقال له في إحدى رسائله: «فسبحان الله! ما أشدّ لزومَك للأهواء المبتدعة، والحيرة المتّبعة..»[٣].

تقويم الأعمال بين الحسنات والسيئات:

صحيح أنّ معاوية حارب دولة الخلافة بقيادة إمام زمانه، وسبّب إراقة دماء المسلمين، وصحيح إن معاوية قاد الفئة الباغية وقتل أصحاب رسول الله في صفين أمثال عمار بن ياسر، حيث قال ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[٤]. وصحيح -أيضاً- إنه حوّل الخلافة الإسلامية إلى ملكية وراثية، وغير ذلك من السيئات، ولكن مع

---

(١) عبد المقصود، عبد الفتاح: الإمام علي بن أبي طالب، مج٤، ج٧، ص١٠٢.

(٢) باب الخطب، رقم ٢٠٠.

(٣) باب الرسائل، رقم ٣٧.

(٤) النيسابوري، الإمام مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم ج٨ كتاب الفتن واشراط الساعة ص١٨٦ عن أم سلمة. والبخاري محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح ج١، باب الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد ٦٢ رقم ٤٤٧. عن أبي سعيد الخدري بلفظ «ويح عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النار».

ذلك يمكننا أن نتساءل: أما كانت له ولبني أُمية حسنات تذهب بتلك السيئات؟ وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[١]. وهل هنالك من تقويم للأعمال؟ يمكن احتسابه لصالح معاوية وبني أُمية.

في الحقيقة أنّ الآية المباركة في صدد الحديث عن الصلاة وأثرها في تطهير القلب من الغفلة وبواطن الإثم، وذلك لغرض تركيز الاخلاص في العبادة لله وحده، من دون رياء وطلب سمعة، أو لأغراض سياسية دنيوية. فالآية في مقام التعليل، لذلك ورد في تفسيرها: «إن الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيئات، فكأنها يذهبن بها»[٢]. وإن «الصلوات حسنات واردة على نفوس المؤمنين تذهب بآثارها المعاصي، وهي ما تعتريها من السيئات»[٣]. ومن هنا نؤمن بأن السيئات والمعاصي والآثام على درجات متفاوتة، فهنالك «من الطاعات ما يكفّر بعض السيئات كالصلوات المفروضة»[٤]. ولكن بشرائطها المعتبرة، مثل اجتناب الكبائر من الذنوب، فقد قال ﷻ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾[٥] بل على العكس من ذلك، إن من المعاصي ما يحبط الحسنات لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ

(١) سورة هود، ١١/ ١١٤.

(٢) الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان، مج٣، ج١٢، ص٢٣٢.

(٣) الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مج١١، ج١٢، ص٥٨.

(٤) المرجع ذاته، مج٢، ج٢، ص١٧٠.

(٥) سورة النساء، ٤/ ٣١.

مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾﴾[1]. يقول العلّامة الطباطبائي في ميزانه: «..إن للطاعات تأثيراً في القلب بالتنوير، وللمعاصي تأثيراً فيه بالقسوة والظلمة،..فالظالم يتبع ظلمه ظلمةً في قلبه، وقسوة توجب انمحاء أثر النور الذي كان في قلبه من الطاعات التي كان عملها، والمظلوم يتألم فتنكسر شهوته ويمحو عن قلبه أثر السيئات التي أورثت ظلمة في قلبه، فيتنور قلبه..»[2].

وعلى ضوء ما تقدّم يمكننا القول بأن الذين حاربوا دولة الخلافة الإسلامية بقيادة الإمام علي عليه السلام وسبّبوا إراقة دماء المسلمين من أجل مصالح سياسية، ومطامع شخصية، إنما تجرؤوا على القيم الإسلامية وحاولوا نسفها من الداخل وذلك بإعادة العصبية الجاهلية إلى الحياة السياسية وخير شاهد على ذلك تحويل الخلافة إلى ملكية وراثية من قبل معاوية -كما أشرنا آنفاً- ويبقى التساؤل حول ما قدموه -فيما بعد- من أعمال وإنجازات إيجابية في اتجاه البرّ والاحسان، هل ترتقي إلى مستوى محو تلك السيئات؟ إن الإجابة متروكة للواعين من الأمة، وبالنهاية يعود التقويم والحساب إلى الله سبحانه وتعالى.

إن الإمام علياً من موقعه الإسلامي وهو الخليفة القائد، تحمل أعباء المسؤولية الشرعية، في أداء المهمة التربوية للأمة، بطرفيْها: النظري - الفكري، والعملي- الميداني، فاستطاع أن يكشف زيف المتآمرين على الأمة، ويؤسس على المدى البعيد، بكل جدارة،

---

(١) سورة محمد، ٤٧/ ٣٣.

(٢) الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين: الميزان، مج٢، ج٢، ص١٧٩.

أساسيات التصدي النهضوي لحركات الوعي الجهادي، التي حملت راية التصحيح في تربيتها الجهادية للأمة، رغم العقبات الكبيرة التي كانت تعترض هذه المهمة الشاقة، فكانت تجربة فريدة بالمواقف البطولية للإمام وأصحابه الذين تلقوا من مدرسته الجهادية، طريقة العيش الإسلامي العزيز، والرافض للظلم والمهادنة وحب الدنيا، وقد ترجم ذلك بجدّية في ميادين الجهاد، وبذلك أوقف الإمام عمليات الغزو الجاهلي بقيادة بني أُمية بشكل عام، ومعاوية بشكل خاص، ضد الإسلام والمسلمين، وقد بيّن ذلك بوضوح الصحابي الشهيد عمّار بن ياسر، في أرجوزته أثناء القتال بصفين حيث قال لأعدائه: [الرجز]

نحن ضربناكم على تنزيله والیوم نضربكم على تأويله
ضرباً يسيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله[١]

وقول عمار يذكرني بحديث النبي الأعظم ﷺ حيث يقول: «أنا أقاتل على تنزيل القرآن، وعليّ يقاتل على تأويله»[٢].

---

(١) الشيرازي، السيد علي خان: الدرجات الرفيعة، ص٢٧٨. المقيل: موضع القيلولة، النوم أو الاستراحة في الظهيرة. وتقيّل الماء: أي تجمّع. والمعنى أنه ستسقط الرؤوس بهذا الضرب الشديد عن مواقعها وتجمعها المستراحة فيه. معلوف، لويس: المنجد في اللغة، حرف الميم، ص٦٦٦.

(٢) المتقي الهندي، علاء الدين: كنز العمال، ١١/ ٣٢٩٦٨. وابن الأثير، الشيخ عزّ الدين: أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ٤/ ٣٢. وفي مجمع الزوائد عن أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوساً ننتظر رسول الله ﷺ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه فانقطعت نعله، فتخلف عليها علي يخصفها ومضى رسول الله ﷺ =

ومما لا يخفى أن خطورة هدم أُسس الإيمان في النفوس، وتسطيح الحالة الجهادية باتجاه المصالح الشخصية، وتحويل المشروع الحضاري للإسلام إلى شعارات قشرية وملكية وراثية[١]. . كل ذلك كان أشد أثراً بقيم الإسلام ووعي المسلمين من المواجهة العسكرية الدامية، لذلك قال عليه السلام: «. .وقد قلّبتُ هذا الأمر بطنَه وظهرَه حتى منعني النوم، فما وجدتُني يسَعني إلّا قتالُهم أو الجحودُ بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله، فكانت معالجةُ القتال أهونَ عليّ من معالجة العقاب، وموتاتُ الدنيا أهونَ عليّ من موتات الآخرة»[٢]. قال ذلك في صفّين وهو يقلّب وجوه الآراء ويوازن بين أمر القتال أو الكفر «على أنّ في الأمرين خطراً، أمّا القتال ففيه بذل نفسه للقتل وهلاك جملة من المسلمين، وأما تركه ففيه مخالفة أمر الله ورسوله المستلزمة للعقاب الأليم. .»[٣].

= ومضينا معه، ثم قام ينتظره وقمنا معه فقال: «إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله»، فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر فقال: لا، == == ولكنه خاصف النّعل فجئنا نبشره. قال: فكأنه قد سمعه. رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير فطر بن خليفة وهو ثقة. الهيثمي، الحافظ نور الدين: مجمع الزوائد ١٣٦/٩.

(١) يذكر التاريخ في بداية العهد العباسي، توجه إلى أبي العباس السّفاح في بغداد وفد من اشياخ أهل الشام، حلفوا له «أنهم ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وآله قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أُمية حتى ولّيتم الخلافة!». المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، ٤٣/٣.

(٢) باب الخطب، رقم ٥٤.

(٣) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٤٤.

● **التعبئة القتالية بشدّ الهمم للجهاد، ونقد المتباطئين عنه:**

قال الإمام علي عليه السلام من خطبة له في أركان الدين: «إن أفضل ما توسّل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمانُ به وبرسوله، والجهادُ في سبيله، فإنّه ذروة الإسلام..»[١]. إن أساس الإسلام هو الاعتقاد بالله سبحانه وبنبوة المصطفى محمد صلى الله عليه وآله قولاً وعملاً، وتظهر الطاعة العملية بالعبادة والجهاد والسلوك الصالح، و«لولا الجهاد ما ارتفع للإسلام راية، ولا كان له عين وأثر، بل الإسلام في جوهره جهاد..»[٢]. فلما بلغ الإمام عليه السلام خبر غزو الأنبار من قبل جيش معاوية، ولم ينهض المسلمون لجهادهم، قال عليه السلام مستنهضاً إياهم لفريضة الجهاد: «أما بعدُ، فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنّة، فتحهُ الله لخاصّة أوليائه.. فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذُلّ، وشمله البلاء..»[٣]. وقال في الحث على القتال: «فاتقوا اللهَ عبادَ الله، وفِرّوا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجَهُ لكم، وقوموا بما عصَبهُ بكم، فعليٌّ ضامنٌ لِفَلْجِكُمْ آجلاً، إنْ لم تُمْنَحوهُ عاجِلاً»[٤]. بمعنى اهربوا إلى رحمة الله وأمانه من غضب الله وعذابه، وذلك بالسير على منهجه القويم الذي ناطه وربطه بكم، وجعله كالعصابة التي تشدّ بها الرأس، وعليّ ضامنٌ لنصركم وظفركم عند الله مؤكداً، ولعلكم تفوزون في الدنيا أيضاً.

---

(١) باب الخطب، رقم ١١٠.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص١٥٩.

(٣) باب الخطب، رقم ٢٧.

(٤) باب الخطب، رقم ٢٤.

مشروعية الجهاد ضد أهل القبلة:

قال الإمام عليه السلام في بيان مشروعية الجهاد ضد أهل القبلة في ظروف استثنائية: «..ألا وإني أُقاتلُ رجلين: رجلاً ادّعى ما ليس له، وآخَرَ مَنَعَ الذي عليه.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإنها خيرُ ما تَواصى العبادُ به، وخيرُ عواقب الأمور عند الله. وقد فُتحَ بابُ الحرب بينكم وبين أهل القبلة، ولا يحمل هذا العلَم إلّا أهلُ البَصَر والصبر والعلم بمواضع الحقّ، فامضوا لما تُؤمرون به، وقفوا عندما تُنهَوْنَ عنه..»[1]. يقول الشيخ مغنية في ظلاله: «الخلافة حق شرعي للإمام [بنص الوصية]، ومع هذا صرّح الإمام بأنه لا يتعرض بسوء لمن يرفض خلافته وينكر حقه فيها شريطة أن لا يرتكب جريمة السلب والنهب، أو جريمة التمرد والامتناع عن أداء الحق»[2]. وعليه فهو عليه السلام يقاتل رجلين - كما قال-: رجلاً ادّعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه، وذلك كمعاوية الذي أخذ يدّعي الخلافة وولاية الدم للخليفة عثمان، وكذلك كطلحة والزبير، اللذيْن منعا الطاعة بعد المبايعة .

هذا، «وقد تكلم الفقهاء عن حكم من شق عصا المسلمين، وأفردوا لهم في كتبهم باباً مستقلاً بعنوان (قتال أهل البغي)، واتفقوا على وجوب قتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله»[3].

---

(١) باب الخطب، رقم ١٧٣.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص٥١٢.

(٣) مغنية، المرجع ذاته، ج٢، ص٥١٣.

أول تجربة قتالية في صفين على ماء الفرات:

لما وصل جيش دولة الخلافة إلى صفين، كان جيش معاوية قد سيطر على شريعة الفرات واستقرّ فيها، فمنع أصحاب علي منه، فخطب فيهم الإمام قائلاً: «قد استطعموكم القتال، فأقرّوا على مَذَلّةٍ، وتأخير مَحَلّةٍ، أو رَوُّوا السيوف من الدماء تَرْوَوْا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين، ألا وإنّ معاوية قاد لُمّةً من الغُواة، وعمّسَ عليهمُ الخبرَ، حتى جعلوا نحورَهم أغراضَ المنيّة»(١).

ذكر نصر بن مزاحم إنه قد سبق جيش معاوية إلى الفرات وعسكر على الشريعة، فلما وصل جيش الإمام مُنع من الماء، وما نفعت المفاوضات بفك الحصار، بل اعتبر ذلك معاوية أول الظفر، وقد بقي أصحاب علي يوماً وليلة من دون ماء، ففي حينها أمر الإمام جيشه بكشف جيش الأعداء عن المشرعة، يذكر ابن مزاحم تفاصيل هذه التجربة القتالية بالرايات التي اشتركت في القتال، والأشعار الحماسية التي قيلت أثناء الهجوم، والمهم تم النجاح لجيش الإمام في الاستيلاء على الماء، كأول انتصار مباغتٍ له على العدو، وفي حينها لم يرضخ الإمام لضغوط بعض أصحابه بمنعهم عن الماء كما فعلوا، حيث قال: «خذوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلّوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم ببغيهم

---

(١) باب الخطب، رقم ٥١. استطعموكم القتال: طلبوا منكم أن تطعموهم القتال. اللُّمَة - بالتخفيف -: الجماعة القليلة. عمّس عليهم الخبر: أبهمه عليهم وجعله مظلماً. الصالح، د. صبحي: نهج البلاغة، فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة، ص٥٨١. رقم ٥٢٤-٥٢٦.

وظلمهم». فأخذ كل جيش منهما بما يليه من شريعة الفرات. وقال الإمام لأصحابه «أيها الناس، إن الخَطْبَ أعظمُ من منع الماء»[١].

وبالفعل كانت هذه التجربة الميدانية بمثابة المناورات الحيّة للتعبئة القتالية والعقديّة لجيش الإمام عليه السلام.

● **إصرار الإمام على منهجيّة الاستقامة الإسلامية:**

إن أجواء الإغراءات المالية والسلطوية التي أشاعها معاوية في أوساط الناس، لغرض كسب المزيد من الأنصار والمؤيدين في حربه ضد حكومة الإمام، وبالرغم من تساقط البعض في شراك هذه الأساليب، إلّا أن الإمام لم تزده هذه الحالة إلّا إصراراً وعزيمة على مواصلة نهج الاستقامة كما يريدها الإسلام، وبروح عالية الثقة بإيمانه وبالمصير الذي ستؤول إليه الأمور في نهاية المطاف. وفي ظروف وقعة صفين كان الاختبار شديداً على أصحاب الحق، في تكريس منهجية الاستقامة في الأمة، أمام تلك الضجة الإعلامية المضادة، والاستعدادات العسكرية لغرض شن الحرب. فالإمام ابتداءً من قضية الماء – التي تحدثنا عنها– عالج المسألة بحكمة وشجاعة مجسداً روح

(١) اختصرنا هذه التجربة القتالية من: المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين. وللوقوف على تفاصيلها بالرايات الجهادية التي قاتلت، والاشعار الحماسية والعتابية التي قيلت، وتفاصيل الحملات الهجومية، راجع المرجع المذكور ص ١٥٧-١٩٣. ومما يذكر ان معاوية قال لعمرو بن العاص: ما ظنك بالرجل أتراه يمنعنا الماء لمنعنا إيّاه. فأجابه عمرو: ان الرجل جاء لغير هذا، وانه لا يرضى حتى تدخل في طاعته، أو يقطع حبل عاتقك..». المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، ٢/ ٣٨٦.

الإسلام وإنسانيته فيها، وانتهاءً بقضية التحكيم، ومروراً بتفاصيل المعركة الطويلة. كان أسلوبه يتميز بالاستقامة، بعيداً تماماً عن الانتقام الشخصي وحب التسلط والإمارة، محذراً أصحابه من اتباع الهوى وطول الأمل في هذه الدنيا، لتبقى النوايا خالصة لله في الجهاد والقتال، حيث قال عليه السلام: «أيها الناس، إنّ أخوف ما أخافُ عليكم اثنان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأمّا اتّباعُ الهوى فيصدّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة.. فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا»(١). فالمعركة عند عليّ عليه السلام هدفها إحياء روح الإسلام، والخلافة التي زهد فيها ما هي إلّا وسيلة لتثبيت منهجية الاستقامة، «أما بالنسبة لمعاوية، فكانت مطلباً سلطوياً في الصميم، منطلقاً من تراث أسرته الأموية التي كانت لها الزعامة - التجارية على الأقل- في قريش.. ونجح في الانتقال إلى موقع بارز في السلطة خلال عهد الخليفة عمر.. وكان قادراً.. على التوفيق بين تراثه القرشي، وموقعه المستجد في الإسلام، مؤسساً لمدرسة في هذا السبيل، حيث الدين في خدمة السياسة»(٢).

وللإمام عليه السلام عدة رسائل إلى معاوية يحذره وينصحه من الدخول في هذا المنزلق الدنيوي، ويطالبه بالعودة إلى الاستقامة والابتعاد عن الشيطان، وتوجيه العمل للآخرة نذكر منها قوله عليه السلام: «.. فاتّق الله في نفسك، ونازع الشيطان قيادك، واصْرف إلى الآخرة وجهك، فهي طريقُنا وطريقك..»(٣).

---

(١) باب الخطب، رقم ٤٢.

(٢) بيضون، د.إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورؤية التاريخ، ص٩٨.

(٣) باب الرسائل، رقم ٥٥.

وقوله عليه السلام: «. . واعلم أن الشيطان قد ثبّطك عن أنْ تراجعَ أحسنَ أمورك، وتأذن لمقال نصيحتك»[١]. ومراده إن الشيطان قد أقعدك عن التفكير والتأمل، وذلك لتحقيق أحسن أمورك، وهو «الطاعة لنا، وعن أن تأذن - أي تسمع- لمقالنا في نصيحتك»[٢]. وهكذا سجّل الإمام موقفاً مبدئيّاً مع الملتحقين بمعاوية، فكان يهوّن على ولاته من تسلّلهم إليه، حبّاً لتحقيق الامتيازات المالية والدنيوية، فقد بعث برسالة إلى سهل بن حنيف الانصاري، وهو عامله على المدينة، في هذا الصدد، قائلاً له: «أما بعد، فقد بلغني أن رجالاً مِن قِبَلَكَ يتسلّلون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتُك من عددهم، ويذهب عنك من مددِهم، فكفى لهم غيّاً، ولك منهم شافياً، فرارُهم من الهدى والحق، وإيضاعُهم إلى العَمَى والجهل، وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها. . إنهم - والله - لم ينفروا من جوْرٍ، ولم يَلحقوا بعدلٍ. .»[٣]. فلا داعي للأسف والحزن على الذين اختاروا طريق الغيّ والجهل.

---

(١) باب الرسائل، رقم ٧٣. ثبطّك: أي أثقلك وأقعدك وشغلك. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب محمود عادل، مج١، الربع الأول، حرف الثاء، مادة (ث ب ط)، ص٣٠٧.

(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٧٤٤.

(٣) باب الرسائل، رقم ٧٠. الايضاع: الاسراع. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين: ترتيب محمود عادل، مج٢، الربع الرابع، حرف الواو، مادة (و ض ع)، ص٥١٥.

المطلب الثاني

استمرار المفاوضات السياسية، قبل وقوع الحرب وأثنائها

لم يقطع الإمام عليه السلام عن أعدائه جسر العبور إلى الرشد، وقنطرة العودة إلى الهدى، بالرغم من معرفته الواضحة بانحراف معاوية عن جادة الحقّ والصواب، وتوسّله بأساليب المكر والخداع في صراعه وإعلان حربه. ألم يقل له في إحدى رسائله: «فاتّقِ اللهَ فيما لديْك، وانظر في حقّه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تُعْذرُ بجهالته، فإنّ للطاعة أعلاماً واضحةً، وسُبُلاً نيّرةً، ومحجّةً نَهْجَةً، وغايةً مطّلَبَةً، يَردُها الأكيْاسُ، ويخالفُها الأنكاس، مَنْ نكبَ عنها جارَ عن الحقّ، وخبَط في التّيه، وغيّرَ اللهُ نعمتَهُ، واحَلّ به نِقْمتَهُ. فَنَفْسَك نفسَك! فقدْ بيّن اللهُ سبيلك، وحيثُ تناهتْ بك أمورَك، فقد أجْريتَ إلى غايةٍ خُسْرٍ، ومَحلّة كُفْرٍ، فإنّ نفسك قد أولجتْك شرّاً، وأقحمتْك غيّاً، وأوردَتْك المهالك، وأوْعَرَتْ عليك المسالك»[1]. يقول الشارح

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣٠. الاكيْاس، من كيْس، وكياسة: بمعنى العقل والفطانه والظرافة. والأنكاس، جمع النِكْس: وهو الرذيل المقصّر عن غاية النجدة والكرم. أنيس: د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، باب الكاف ص٨٠٧، وباب النون، ص٩٥٢.

البحراني في وسيطه: «ما لديه هو: أموال المسلمين وبلادهم، و«ما لا تُعذَر جهالته» هو: وجوب طاعة الله، وطاعة رسوله، وطاعة أئمة الحق من بعده. والمحجّة: الطريق الواضح. ومُطَلَبة بتشديد الطاء وفتح اللام: مطلوبة جداً. وأعلام: طاعة الله والكتاب والسّنة وأئمة الحق، وهي السبل النيّرة والطريق المضيئة، وغايتها المطلوبة الحصول على السعادة الباقية الأخروية»[١].

وبذلك يغلق الإمام عليه السلام على معاوية أبواب الاعتذار، بتوضيح طرق الوصول إلى طاعة الله سبحانه ورضاه. وهذا هو مورد الأكياس أي العقلاء من الناس، لا الأنكاس - جمع نكس: وهو الرجل الدنيء المنكوس - فهم يخالفوها لدناءة طبعهم، وقصور همتهم، وتعلقهم بحطام الدنيا وشهوات النفس الأمّارة بالسوء. ثم بيّن نتيجة من عدل وانحرف عن طريق الهدى فإنه يمشي على غير هداية واستقامة، وحينذاك ستتغير النعم الإلهية عنه بل سينزل العذاب عليه. ثم قال له مباشرة: «نفسك نفسَك»، أي احذر يا معاوية من مغبة العدول عن جادة الحق، واحفظ نفسك من الآثام وارتكاب المعاصي[٢]. وهنا يبين الشارح المعتزلي التفاتة جميلة في قوله عليه السلام: «وحيث تناهت بك أمورُك»، «الأوْلى ألا يكون هذا معطوفاً ولا متصلاً بقوله: «فقد بيّن الله سبيلك»، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف: حيث أنت، أي قف حيث أنت، فلا يذكرون الفعل»[٣]. وذلك لتنظر بتأمل

(١) البحراني، ابن ميثم: اختيار السالكين، شرح نهج البلاغة الوسيط، ص ٥٠٣.

(٢) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج١٩، ص٣٨٥- ٣٨٧.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٨، ج١٦، ص٢٠٩. كما ويورد بداية هذا الكتاب، وهو ردّ على كتاب معاوية، في الصفحة ذاتها.

إلى حالك ووضعك، وتتفحّص أعمالك، وما ستنتهي إليه في طريق الحرص على الدنيا وشهواتها، فالنتيجة نحو الخسران المبين، والمحل الذي سيدخله الكافر من النار يوم الحساب. كل ذلك لأن نفسك الأمّارة بالسوء أدخلتك المهالك وصعّبت عليك مسالك الرشاد.

ومع كل ذلك، لم يقطع الإمام أمله بالدعوة المستمرة للحوار والتذكير الدائم بمصائر الأمور - إتماماً للحجّة على معاوية وعلى من يسير على نهجه إلى يوم الحساب - فالإمام عليه السلام أراد حسم هذه التوجهات عبر المفاوضات السياسية لغرض التوصل إلى الحلول السلميّة، في تحديد الواجبات والمسؤوليات كما يريدها الإسلام. وذلك قبل وقوع الحرب، وفي أثنائها أيضاً، فالحرب استمرت طويلاً زهاء مائة وعشرة أيام، تخللتها هدنة شهر محرم الحرام وفي هذه الهدنة استمرت المفاوضات - أيضاً -، بغية إيصال المسلمين إلى شاطئ الأمان وحقن دماء بقية المسلمين، كما جاء في دعائه عليه السلام، على أهل الشام، وهو في صدد توجيه أصحابه: «اللهمّ احقنْ دماءَنا ودماءَهم، وأصلحْ ذات بيننا وبينهم، واهدهمْ من ضلالتهم..»[1].

نبحث هذا المطلب في المحاور التالية:

١• إرسال وفود للحوار، ومبعوثين للصلح.

٢• المراسلات الخطيّة.

٣• الإمام يطالب معاوية بالمبارزة الشخصيّة، حقناً لدماء المسلمين.

---

(١) باب الخطب، رقم ٢٠٦.

● **إرسال وفود للحوار، ومبعوثين للصلح:**

بعد أن حُسم الأمر لصالح الخلافة الشرعية في البصرة، عيّن الإمام عليه السلام عبد الله بن العباس والياً عليها، وأمر أهل البصرة بإطاعته، محذراً إياهم من خوض الفتن والشبهات[١]، ثم عاد إلى الكوفة يستجمع قواه العسكرية لمواجهة معاوية بالشام، ذلك العدو المتربص بدولة الخلافة، بعد أن تيقّن بنواياه في شن الحرب. فبدأ بإرسال وفود للحوار ومبعوثين لغرض التوصل إلى الحلّ الشرعي سلمياً من دون إراقة دماء المسلمين.

وكان أول من بعثه الإمام إلى معاوية هو جرير بن عبد الله البَجَليّ[٢]، وهو عامل عثمان على همدان، الذي نزعه الإمام منها، فأتى الكوفة وبايع الإمام، إلّا أن شخصيته كانت محل جدل ونقاش بين أصحاب الإمام، فقد اعترض عليه مالك الأشتر، واتّهمه بأن هواه مع دنيا معاوية، وطلب من الإمام أن يبعثه محلّه لأداء هذه المهمة. بينما تقدم جرير إلى الإمام بقوله: «ابعثني إليه.. فآتيه وأدعوه إلى أن

---

(١) راجع كتاب الإمام عليه السلام إلى أهل البصرة، بعد واقعة الجمل، وقد جاء فيه: (..فعَفوْتُ عن مجرمكم، ورفعتُ السيف عن مدبركم.. ولئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقِعَنّ بكم وقْعةً لا يكون يوم الجمل إليها إلّا كَلَعْقَةِ لاعق، مع أني عارف لذي الطاعة منكم فضله..). باب الرسائل، رقم٢٩.

(٢) جرير بن عبد الله البجلي، يكنى أبا عمرو، وقيل: أبا عبد الله، أسلم في سنة وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وقيل قبل وفاته بأربعين يوماً، وهو سيد قبيلته بجيلة. أصبح عامل الخليفة عثمان على ثغر همدان، عزله الإمام من موقعه في بداية عهده نزل الكوفة وبايع الإمام ودخل مع الناس، حمل رسالة الإمام إلى معاوية، ولما عاد اعتزل الفريقين، وهاجر إلى قرقيسيا، وقيل: نزل عند معاوية، وعلى الاحتمالين لم يستمر في نصرة الحق. الأمين: السيد محسن: أعيان الشيعة، ٤/ ٧١-٧٥.

يسلم لك هذا الأمر، وأدعو أهل الشام إلى طاعتك»[١]. ويبدو لي أن مصدر الشك عند الاشتر وغيره، يعود إلى عدم قناعتهم بشخص عُزِل عن ولايته، وقدّم نفسه لأداء هذه المهمة الحسّاسة في ذلك الظرف الدقيق، الذي قد تحدد مصيره المفاوضات، وجرير -هذا- لم يكن في أجواء خواص أصحاب الإمام، وعليه فلا يستطيع أن يتعاطى مع عدوٍّ يجيد المناورة السياسية كمعاوية، فسيتأثر به وينساق في تيار أهوائه، لذلك قال عنه الأشتر -مبكراً -: «إن هواه مع معاوية»[٢]. إلّا أن الإمام وافق على إرساله، لأنه قرأ النتائج مسبقاً، وما يفعله جرير سلباً أو ايجاباً لم يؤثر على سير تطور الأحداث نحو القتال، فبعثه إلى معاوية بكتاب خاص يدعوه إلى البيعة والدخول في جماعة المسلمين، وبعد ذلك يتم التحاكم إلى القرآن الكريم في دم عثمان، وزوّده بتعليماته المفيدة لأداء هذا الدور. وبالفعل أدى ذلك إلّا أن معاوية ماطله بطريقته، وحمّله رسالة جوابية من مشاهداته الاستعراضية للموقف العام في الشام بالإضافة إلى الرسالة الخطيّة، فقد دعا الناس للمطالبة بدم عثمان - أمامه - ونصب نفسه ولي الدم، وبايعه أهل الشام على ذلك. فلما عاد أخبر الإمام بأن القوم لا جواب لهم إلا السيف[٣]، وقد اجتمع «أهل الشام مع معاوية على قتاله، وإنهم يبكون عثمان، ويقولون: إنّ علياً قتله، وآوى قتلَته ومنع منهم، وإنهم لا بد لهم من قتاله حتى يفنوه أو يفنيهم»[٤]. كما

(١) المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب، ٢/ ٣٨١.
(٢) ابن الاثير، عزّالدين: الكامل في التاريخ، ٣/ ٢٧٦.
(٣) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٢٧-٦٢.
(٤) المسعودي ابو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب، ج٢، ص٣٨١.

وطلب معاوية من جرير أن يوصل للإمام مراده في إعطائه الشام ومصر أمام تسليمه للأمر، فكتب كتاباً بهذا الخصوص للإمام، وكذلك كتب جرير أيضاً[١].

تأخير المعركة لحين عودة المبعوث للحوار من الشام:

لما استبطأ الإمام عليه السلام وأصحابه عودة جرير البَجَليّ من الشام، أشار أصحاب الإمام عليه بالاستعداد والتحرّك للحرب، فقال عليه السلام: «إنّ استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاقٌ للشام، وصرفٌ لأهله عن خيرٍ إنْ أرادوه. ولكنْ قد وَقّتُّ لجرير وقتاً لا يُقيم بعده إلّا مخدوعاً أو عاصياً..»[٢].

وبالمقابل كتب الإمام إلى جرير كتاباً، يطالبه فيه بحسم المسألة مع معاوية بشكل قطعي جازم، فقال له عليه السلام: «أما بعد، فإذا أتاك كتابي فاحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم، ثم خيّره بين حربٍ مُجْليةٍ، أو سلْمٍ مُخزيةٍ، فإن اختار الحرب فانبذ إليه، وإن اختار السّلم فخذ بيعته»[٣]. وفي حينها كتب معاوية إلى الإمام بالحرب، وعاد جرير[٤].

---

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٥٢.

(٢) باب الخطب، رقم ٤٣.

(٣) باب الرسائل، رقم ٨٠. حرب مجلية: أي مخرجة له من وطنه. السّلم المخزية: الصلح الدال على العجز. فانبذ إليه: أي اطرح عليه عهد الأمان وأعلنه بالحرب. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٣٣٣٥-٣٣٣٧.

(٤) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٥٥-٥٦. وللوقوف على أخبار جرير البجلي بالتفصيل راجع: ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٢، ج٣، ص٥٢-٦٦.

وذكر المسعودي، إن الإمام عليه السلام جمع وجوه العرب من أصحابه بعد واقعة الجمل، واستشارهم في أمر معاوية بقوله: «..فأشيروا عليّ في أمر هذا الغلام المترف - يعني معاوية - فقال صعصعة: إن معاوية أترفهُ الهوى، وحبّبت إليه الدنيا، فهانت عليه مصارع الرجال. واتباع الآخرة بدنياهم..»، ثم اقترح على الإمام أن يبعث مبعوثاً شخصياً إلى معاوية ليحاوره مباشرة وبوضوح بالبيعة أو الحرب والقتال. هذا، والإمام بدوره حمّله هذه المسؤولية، وبعث بكتابه معه إلى معاوية(١).

وقال نصر بن مزاحم في كتابه وقعة صفين: «قام عديّ بن حاتم إلى عليّ عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي رجلاً من قومي لا يُجارى به، وهو يريد أن يزور ابن عمّ له.. بالشام، فلو أمرناه أن يلقي معاوية لعلّه أن يكسرَه..». وافق الإمام على ذلك، وكان اسم الرجل خُفاف بن عبد الله الطائي، وبالفعل ذهب إلى ابن عمه وهو سيد طيِّء، وكان خُفاف ذا لسان وهيئة وشعر، فذهب إلى معاوية وأسمعه تحليله عن الأحداث إبّان مقتل عثمان، وتهافت الناس على بيعة علي كتهافت الفراش، ثم خروجه إلى البصرة واستعداده لحرب الشام. وألقى عليه قصيدة في هذا المعنى، فارتاب منه معاوية بالرغم من إعجابه به، قائلاً لابن عمه: «إني لا أظن هذا إلا عيناً لعلي، أخرجه عنك لا يُفسد أهل الشام»(٢).

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص ٤٧-٤٨.

(٢) للتفاصيل راجع: المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٦٤-٦٨.

المفاوضات قبيل الحرب وأثناء الهدنة:

إن هدف الإمام إيصال الأمة إلى وعي تربوي من خلال جهادها، وهي تخوض التجربة الميدانية بكل تفاصيلها واستحقاقاتها، فحينما فرضت الحرب على دولة الخلافة، استجاب لها الإمام، مستثمراً ظروفها الاستثنائية لترسيخ دعائم الإيمان والسلوك السويّ في المسيرة الجهادية للأمة. فالجهاد هو المحكّ الفعلي لتبيان درجة الصدق والالتزام بالإسلام. وساحة الحرب هي ساعة الابتلاء والتمحيص، فهل يثبت المتدينون في جهادهم على الحق، وفي سلوكياتهم القتالية على الصدق؟ فحينما يبلغ الغضب ذروته وحب الثأر أو الانتقام قمّته في صدور المؤمنين المقاتلين، هل يحملهم ذلك إلى السلوك الشاذ وضياع القيم في ساحة المعركة؟

هنا تتجلى عظمة شخصية علي عليه السلام في مواقفه المبدئية وتربيته الصارمة لأصحابه. فنجده كالجبال الراسية في ثباته لا تحركه العواصف الهوجاء، ولا تزيحه ضغوط النفس والمقاتلين عن جادة الحق. فهو يقاتل ويغضب من دون أن يخرجه غضبُه عن طاعة الله. وقد سجّل في كل خطوة من خطوات المواجهة المسلحة قيم الإسلام، ومُثُل الإنسانية في أبهى صورها.

فعلى أرض المعركة، وفي بداية وقعة صفين، سعى الإمام - وبالتي هي أحسن - لإعادة ماء الفرات إلى إباحته للجميع، بينما شدّد معاوية على منع جيش عليّ منه وكان قد سبق في الاستيلاء على الشريعة. هنا لم يلجأ الإمام إلى الحسم العسكري مباشرة، وإنما فعّل جانب المفاوضات لحلّ هذه المعضلة، «فدعا صعصعة بن صوحان، فقال: ائت معاوية وقل له: إنّا سِرْنا إليك مسيرنا هذا وإنا كَرِهٌ لقتالكم

قبل الإعذار إليكم، وأنك قدّمت خيلك وقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا بالحرب، ونحن ممّن رأينا الكفّ حتى ندعوك ونحتجّ عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها، قد حُلْتُمْ بين الناس وبين الماء، فخلّ بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم له، وإن كان أحبّ إليك، أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب، فعلنا»[١]. ولما استمر معاوية في عناده، أمر الإمام جيشه باكتساحهم عن مواقعهم، وبالفعل تم النصر لجيش الإمام واستولى على الماء، طارداً جيش معاوية عنه - كما أشرنا سابقاً- فبعث الإمام عليه السلام إلى معاوية: «إنّا لا نكافيك بصُنعك، هلّم إلى الماء، فنحنُ وأنتم فيه سواء»[٢]. يقول جورج جرداق في هذا الموقع: «لو كان في جيش معاوية قبس من الخُلُق الكريم لأدركوا، بهذا الحادث، حقيقة كلّ من معاوية وعلي، ولعرفوا لأيّة طائفةٍ من الخُلق ينتمي كلّ من الرجلَيْن، ولَوثِقوا أنهم بمناصرتهم معاوية على عليّ إنما يناصرون انتهازياً..»[٣].

وفد الإمام يحاور معاوية مباشرة:

قال نصر بن مزاحم «ثم إن علياً دعا بشير بن عمرو بن محصن الانصاري[٤]، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي.

---

(١) المعتزلي، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج٢، ج٣، ص٢١٩-٢٢٠.

(٢) للتفاصيل راجع، المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص١٥٧-١٩٣. وكذلك ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٢، ج٣، ص٢١٦-٢٢٨.

(٣) جرداق، جورج: الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج٤، علي وعصره، ص٢٤٤.

(٤) هو أبو عمرة الانصاري، اسمه بشر أو بشير، وقيل: اسمه عمرو بن محصن، أو بشير بن عمرو وكان زوج بنت عم النبي صلى الله عليه وآله، المقوّم بن عبد المطلب، وهو من =

فقال: ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله ﷻ وإلى الطاعة والجماعة، وإلى اتّباع أمر الله تعالى»، فأتى الوفد ودخل على معاوية، قال بشير أبو عمرة: «يا معاوية إنّ الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة.. وإني أُنشدك بالله أن تفرّق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءَها بينها». فقطع معاوية عليه الكلام. فقال: هلّا أوصيت صاحبك؟ فقال: سبحان الله، إن صاحبي ليس مثلك، إن صاحبي أحق البريّة في هذا الأمر في الفضل والدين والسابقة والإسلام، والقرابة من رسول الله ﷺ»[١]. فتذرع معاوية بشعار المطالبة بدم عثمان، ثم قال: «انصرفوا من عندي فليس بيني وبينكم إلّا السيف»[٢].

وفد آخر من المبعوثين للصلح أيام الهدنة:

قال نصر بن مزاحم: «فاقتتل الناس ذا الحجة كلّه، فلما مضى ذو الحجة تداعى الناس أن يكفّ بعضُهم عن بعض إلى أن ينقضي المحرّم. لعلّ الله أن يُجريَ صلحاً واجتماعاً. فكفّ الناس بعضهم عن بعض.. فأرسل علي بن أبي طالب إلى معاوية عديّ بن حاتم، وشبث ابن ربْعي، ويزيد بن قيس، وزياد بن حفصة»[٣]. فذهبوا إلى معاوية وكلّموه باتجاه حقن الدماء، وجمع كلمة المسلمين، والدخول مع الناس في الطاعة. ولكن من دون جدوى[٤].

= شهداء صفين. انظر: العسقلاني: الاصابة في تمييز الصحابة، ج٤، باب الكنى، حرف العين المهملة، القسم الأول، ص١٤١، رقم ٨١٤.

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص١٨٧.

(٢) المرجع ذاته، ص١٨٨.

(٣) المرجع ذاته، ص١٩٦-١٩٧.

(٤) للوقوف على تفاصيل حوار المبعوثين لمعاوية، راجع المرجع ذاته، ص١٩٧-٢٠٠.

● **المراسلات الخطيّة للإمام علي عليه السلام:**

إلى جانب إرسال الوفود للتفاوض والحوار، كان الإمام عليه السلام يبعث بكتبه ورسائله إلى معاوية، في محاولة منه لإصلاحه، وإعادته إلى دائرة الرشد والطاعة، إتماماً للحّجة عليه، وعلى المشتركين معه من حوله، وتعليماً تربوياً رفيع المضامين الجهادية للسائرين على نهجه. وقد حفل باب الرسائل في كتاب نهج البلاغة بعدد من الكتب والرسائل في هذا الخصوص(١). نذكر نموذجاً من تلك الرسائل، لنتعرف على مدى حرص الإمام على هذه الأمة، في سبيل إنقاذها من محاولات استغلالها في غايات باطلة وتوجهات نفعيّة. قال الإمام عليه السلام في إحدى رسائله لمعاوية: «وأردْيْتَ جيلاً من الناس كثيراً، خَدَعْتَهُمْ بِغَيّك، وألقيتهم في مَوْج بحرك، تغشاهُمُ الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهمْ، ونكصوا على أعقابهم، وتولّوا على أدبارهم، وعوّلوا على أحسابهم، إلّا مَنْ فاء من أهل البصائر، فإنهم فارَقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من موازرتك، إذْ حملْتَهُمْ على الصّعب، وعدلْتَ بهم عن القصد، فاتّق اللهَ يا معاوية في نفسك، وجاذب الشيطان قيادك، فإنّ الدنيا منقطعةٌ عنك، والآخرةَ قريبة منك، والسلام»(٢).

---

(١) انظر باب الرسائل، الأرقام التالية- وهي رسائل الإمام إلى معاوية-: ٧٥، ٥٥، ٤٩، ٤٨، ٣٧، ٣٢، ٣٠، ١٠، ٩، ٨، ٦. ومن بين الرسائل هي إجابات على رسائل معاوية. راجع الأرقام التالية: ٧٣، ٦٥، ٦٤، ٢٨، ١٧، ٧.

(٢) باب الرسائل، رقم ٣٢. أرديتهم: أهلكتهم. الغيّ: الضلال. نكصوا على اعقابهم: رجعوا إلى الخلف. عوّلوا على أحسابهم: اعتمدوا واتكلوا عليها. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، باب الغين ص٦٦٧، وباب النون، ص٩٥٢، وباب العين، ص٦٣٧.

يكشف الإمام في هذه الرسالة عن بعض أساليب معاوية، التي خدعت جماعة من الناس، بالمال والمناصب في الدولة - ولو على مستوى المواعيد المستقبلية- فضاعت قيمهم الإسلامية، وعدلوا عن قصد الحق، ورجعوا إلى جاهليتهم. يقول الشارح المعتزلي في قوله عليه السلام: «وعوّلوا على أحسابهم»، «أي لم يعتمدوا على الدّين، وإنما أردتْهم الحميّة ونخوة الجاهلية، فأخْلدوا إليها وتركوا الدين، والإشارة إلى بني أُميّة وحلفائهم.. فحاموا من الحسب، ولم يأخذوا بموجب الشرع في تلك الواقعة»[1]. وفي موقع آخر، احتج الإمام على معاوية ببيعة أهل الحلّ والعقْد له، وألزمه على ضوء ذلك بالدخول في بيعته، فقد قال الإمام في رسالته لمعاوية: «إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يَرُدَّ، وإنّما الشورى للمهاجرين والانصار، فإن اجتمعوا على رجلٍ وسمّوه إماماً كان ذلك لله رضىً..»[2]. وأول الكتاب قوله عليه السلام: «أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمتْك وأنت بالشام»، يقول الشارح المعتزلي: «واعلم أن هذا الفصل دالٌّ بصريحه على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابنا المتكلمون، لأنه احتجّ على معاوية ببيعة أهل الحلّ والعقْد له، ولم يراعِ في ذلك إجماع المسلمين كلهم، وقياسه على بيعة أهل الحلّ والعقْد لأبي بكر.. فأما الإمامية فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٨، ج١٦، ص٢٩٣. ثم يذكر تفاصيل بعض الكتب والرسائل بين الإمام ومعاوية - جديرة بالاطلاع - ص٢٩٣-٢٩٦.

(٢) باب الرسائل، رقم ٦.

التقيّة، وتقول: إنه ما كان يمكنه ان يصرّح لمعاوية.. أنا منصوصٌ عليَّ من رسول الله ﷺ.. [حتى يقول]: وهذا القول من الإمامية دعوى لو عضّدها دليل لوجب أن يقال بها، ويصار إليها..»[١].

والحقيقة أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يلزمه بما ألزم به نفسه، على ضوء ميزانه السابق الذي أدخله في بيعة الخلفاء السابقين، وهو مستند على بيعة أهل الحلّ والعقْد من المهاجرين والانصار في المدينة المنورة عاصمة المسلمين.

وبالفعل، لقد «سعى الإمام إلى دعوة ابن ابي سفيان - بالطرق السلمية المألوفة - إلى عدم شقه عصا الطاعة على النظام، وإحداث الفتنة بين المسلمين، ليتسنى للخليفة - بعد ذلك- أن ينظر في الطلب الذي يقدّمه عمرو بن عثمان بن عفان - ولي عثمان- بشأن المتهمين بقتل عثمان، كي يجري التحقيق اللازم، وتُتّخذ الإجراءات القانونية بحق الجُناة. ولكنه معاوية ألّب الناس على الإمام، واتخذ قميص عثمان ستاراً للخروج على النظام، وسار بجيوشه متمرداً باغياً يريد العراق..»[٢].

- **الإمام يطالب معاوية بالمبارزة الشخصية، حقناً لدماء المسلمين:**

وذلك حينما وصلت المفاوضات السياسية إلى طريق مغلقة، والمراسلات والمحاورات الفكرية إلى زاوية حادة.مع معاوية وأعوانه، حيث أصبح موقفه واضحاً في تصميمه على الدخول في الحرب والقتال، طرح الإمام مبادرةً شخصية منه في مواجهة حرب

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٧، ج١٤، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٢) جعفر، نوري: الإمام علي عليه السلام ومناوئوه، ص١٦٥.

معاوية، تتلخص في مطالبته بالمبارزة القتالية شخصياً، وذلك حرصاً من الإمام على دماء المسلمين، ونبذ الخلافات والعصبيات التي تجرّ الأمة إلى ويلات النزاع والصراع. لذلك كتب إلى معاوية رسالة طويلة، يحذره فيها من اللهاث وراء حب الدنيا وخداع لذاتها، ويهدّده بالرّد الحاسم، وممّا جاء في هذا الكتاب قوله عليه السلام: «وقد دعوتَ إلى الحرب، فدع الناسَ جانباً، واخْرُجْ إليّ، وأعْفِ الفريقيْن من القتال، لتعلَمَ أيُّنا المرَينُ على قلبِهِ، والمغطّى على بصره! فأنا أبو حسنٍ، قاتلُ جدّك وأخيك وخالك شَدْخاً يومَ بدْرٍ، وذلك السيفُ معي، وبذلك القلب ألقى عدُوّي، ما استبدلتُ ديناً، ولا اسْتحدثتُ نبيّاً، وإني لعلى المنهاج الذي تركتموُهُ طائعين، ودخلتمْ فيه مُكرهين.. فكأني قد رأيتُك تضجّ من الحرب إذا عضّتْك ضجيج الجِمال بالأثقال..»[1].

إن دعوة الإمام لمعاوية للخروج إلى مبارزته أمام الجيشين، هي الرّد الحاسم والحكيم لدعوة معاوية للحرب «وقد كان عليه السلام يعلم من حاله إنه لا يثبت له، محبة للبقاء في الدنيا، فلذلك دعاه إلى المبارزة، ليُعلمه بإقدامه عليه وفراره منه، إنه ليس طالباً للحق وطريق الآخرة في قتاله، وأن حجب الشهوات الدنيوية قد غطّت عين بصيرته عن أحوال

(١) باب الرسائل، رقم ١٠. تجد الرسالة كاملة في المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين: ص١٠٨-١١٠. المرَين على قلبه، من الرّان: الغطاء والحجاب الكثيف، والصدأ الذي يعزل رؤية الحق، لقساوة قلبه باقتراف الذنب بعد الذنب. أنيس، د.إبراهيم (وآخرون): المعجم الوسيط، باب الراء، ص٣٨٦. شَدْخاً: أي كسراً. الطريحي، فخر الدين، مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، الربع الثاني، حرف الشين، ص٤٨٩.

الآخرة وطلبها، فكان فراره منه مستلزماً لعدم علمه بالآخرة المستلزم للرّين على قلبه، وعلامة دالة عليه»[١]. يقول الشارح المعتزلي: «والمَرين على قلبه: المغلوب عليه... وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكلمة لأن معاوية قالها في رسالة كتبها، ووقفتُ عليها، [جاء فيها].. فإنك المطبوع على قلبك، المغطّى على بصرك.. فشمّر للحرب، واصبر للضرب.. فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: ..وقلتَ: «فشمّر للحرب، واصبر» فإن كنت صادقاً فيما تزعم، ويُعينك عليه ابن النابغة، فدع الناس جانباً، وأعفِ الفريقين من القتال، وابرُزْ إليّ لتعلم أيّنا المَرين على قبله، المغطّى على بصره، فأنا أبو الحسن حقاً قاتل أخيك وخالك وجدّك، شدْخاً يومَ بدر..»[٢]. جدّ معاوية «هو عتبة بن ربيعة أبو هند أم معاوية، برز إليه يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، واشترك الإمام في قتله. (وأخيك) وهو حنظلة بن أبي سفيان، برز إليه حمزة، واشترك الإمام في قتله. (وخالك) هو الوليد بن عتبة بن ربيعة قتله الإمام. (شدْخاً) كسّرت رؤوسهم. وفصلتها عن أجسامهم»[٣]. وفي قوله عليه السلام: «وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه»، قال الشيخ محمد عبده: «المنهاج هو طريق الدين الحق لم يدخل فيه أبو سفيان ومعاوية إلا بعد الفتح كرهاً»[٤].

---

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٣٧٥.

(٢) ابن ابي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٨، ج١٥، ص٥٩. كما ويذكر كتاباً آخر من الإمام إلى معاوية بهذا المعنى، وذلك في ص٦٠-٦١.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص٤٠٦.

(٤) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٢.

هذا، وبالفعل أثناء المعركة «قام عليٌّ بين الصّفيْن ثم نادى: يا معاوية! - يكرّرها- فقال معاوية: اسألوه، ما شأنه؟ قال: أُحب أن يظهر لي فأكلّمَهُ كلمة واحدة. فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص، فلما قارباه لم يلتفت إلى عمرو، وقال لمعاوية: ويحك علام يَقتتل الناس بيني وبينك، ويضرب بعضهم بعضاً؟ أبرز إليّ، فأيُّنا قَتل صاحبَهُ فالأمرُ له. فالتفت معاوية إلى عمرو، فقال: ما ترى يا أبا عبد الله فيما ها هنا، أُبارزُهُ؟ فقال عمرو: لقد أنصفك الرجل، واعلم أنه إن نكلْتَ عنه لم تزَل سُبّةً عليك وعلى عقبك ما بقي عربيّ. فقال معاوية! يا عمرو بن العاص، ليس مثلي يُخدع عن نفسه. والله ما بارز ابنُ أبي طالب رجلاً قطّ إلّا سقى الأرض من دمه. ثم انصرف راجعاً حتى انتهى إلى آخر الصفوف وعمرو معه»[١].

وفي موقف الإمام -هذا- يقول العلّامة الخوئي، إنه «غاية الكرم والشجاعة والإنصاف والمروءة..» ويناسب المقام قول المتنبي: [الكامل]

كل يريد رجاله لحياته يا من يريد حياته لرجاله[٢]

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج١٥، ص٣١٦. راجع: المتنبي، أبو الطيب: ديوان المتنبي، ص٢٢٨.

المطلب الثالث

التعاليم والفنون القتالية
لدى الإمام علي ﷺ

بما أنّنا نؤمن بأنّ الإسلام هو دين الحياة بتمام تفاصيلها، وأن الإمام علي أمير المؤمنين هدفه تطبيق الإسلام لإدارة حياة الأمة، وهذا الهدف المصيري يتطلب تربية أبناء الأمة على أسس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما يراه الإمام لمستجدات الأمور من مواقف وسلوكيات، لتصل الأمة إلى مستوى الطموح في الإيمان والتقوى والعمل الصالح، وذلك في الاتجاه الفكري والعبادي والسلوكي والإداري والجهادي، وهذا المنحى الأخير يتطلب متابعات - نظرية وعملية - في توجيه الأمة وتربيتها وتعليمها لتكون بمستوى التحديات التي تواجهها في مسيرتها الإصلاحية والجهادية. هذه التعاليم التربوية غرضها إنماء حالة الوعي الجهادي في الأمة، كفرضٍ إلهي يتحدّد وجوبه عموماً في الظروف الخاصة، إلى جانب تزويد الأمة - وبالذات المجاهدين - بالقدرات القتالية، وفنون المبارزة والاقتتال ضدّ العدو. وهذا الأمر، بالإضافة إلى أهميته فهو خطير أيضاً، لذلك انصبت جهود الإمام ﷺ التربوية لأصحابه وجنده بشكل يضمن التوازن بين التعاليم الإسلامية الشرعية في العبادة

والسلوك والوعي السياسي والاجتماعي والجهادي، إلى جانب إتقان استخدام السلاح في وجه العدو، والتدريب على فنون القتال أثناء المواجهة والمبارزة والدفاع والهجوم في ساحة المعركة. وذلك لكي يتحدّد استخدام السلاح ضمن الموازين الشرعية.

وفي وقعة صفين، التي امتازت بأهمية خاصة، في مواجهة إعلام معاوية المضاد، واستخدامه المكر والخداع في سياسته، التي مُرّرت على بعض المسلمين، ممّا كان يستوجب جهداً مضاعفاً من قبل الإمام ومساعديه، لإيقاظ الناس في جيش معاوية وتوجيههم، وذلك لإمكانية هدايتهم إلى الحق، وكذلك لتربية جيشه على أخلاقيات الإسلام بالصبر وإطاعة الأوامر.

ففي ليلة نشوب المعركة في صفين، خطب الإمام عليه السلام بأصحابه بعد العصر - كما يقول نصر بن مزاحم-، ومن جملة ما قال فيها: «..ألا إنّكم لاقوا العدوّ غداً إن شاء الله. فأطيلوا الليلةَ بالقيام، وأكثروا تلاوة القرآن، واسألوا الله الصبر والنصر، والقوْهم بالجدّ والحزم، وكونوا صادقين. ثم انصرف ووثب الناسُ إلى سيوفهم ورماحهم ونبالهم يصلحونها»[1]. ومن وصاياه الأخلاقية وتعليماته التربوية لأصحابه وجنده قبل لقاء العدو بصفين قوله: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وتركُكم إيّاهم حتى يبدؤوكم حجّةٌ أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمةُ بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تُصيبوا مُعْوراً، ولا تُجْهزوا على جريح، ولا تُهيجوا النساء بأذىً..»[2]. وهذه هي تعاليم الإسلام وأخلاقيات

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٢٢٥.

(٢) باب الرسائل، رقم ١٤. مُعْوراً: الذي أُصيب بنقصٍ أو عيب في المعركة. =

الحرب عند رسول الله ﷺ، أما كيف يكون عدم الابتداء بقتالهم حجة أخرى عليهم؟ يقول الشارح البحراني: «وبيان هذه الحجة من وجهين: أحدهما: أنهم إذا بدؤوا بالحرب فقد تحقق دخولهم في حرب الله وحرب رسوله لقوله ﷺ: «حربك - يا علي- حربي». ومحقّق سعيهم في الأرض بالفساد بقتلهم النفس التي حرّم الله ابتداء بغير حق، وكل من تحقق دخوله في ذلك دخل في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾[1].

الثاني: إن البادي بالحرب معتد ابتداءً، وكلّ معتدٍ كذلك، يجب الاعتداء عليه لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾»[2].

[وقد] وصّاهم على تقدير وقوع الهزيمة منهم بإذن الله أن لا يقتلوا مدبراً: أي مولّياً هارباً، ولا يصيبوا معوراً، وهو الذي أمكنتْهم الفرصة في قتله بعد انكسار العدو..»[3].

= الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج٢، الربع الثالث، حرف العين، مادة (ع و ر)، ص٢٧٧.

(١) سورة المائدة، ٥/ ٣٣.

(٢) سورة البقرة، ٢/ ١٩٤.

(٣) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٣٨٣، ٣٨٤. الحديث الشريف تجده عند الطوسي، محمد بن الحسن: أمالي الطوسي، المجلس الثالث عشر ص٣٦٤، رقم ١٤/٧٦٣. عن الإمام الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي قال ﷺ: «يا علي حربك حربي وسلمك سلمي..». وفي رواية زيد بن أرقم عن النبي ﷺ أنه قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم». =

وإتماماً لهذه التعليمات ما نقله نصر بن مزاحم بعد قوله: «ولا تجهزوا على جريح»، ذكر قوله عليه السلام: «ولا تكشفوا عورةً، ولا تمثّلوا بقتيل. فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا زائراً إلّا بإذني، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلّا ما وجدتم في عسكرهم»[١].

ولكن المفارقة الواضحة في التعاليم الخلقية عند الإمام، قياساً بأعدائه، فالإمام يدعو إلى احترام حقوق الإنسان عموماً، والشخصية منها خصوصاً مثل كشف عورة العدو، بينما عمرو بن العاص لما تيقّن من أن سيف علي سيحصد رأسه، كشف عورته، فصرف الإمام وجهه عنه وتركه، وقد اصبح في موقع السخرية حتى من قبل قائده معاوية، وبهذه الحيلة أنقذ نفسه من القتل، ولكنْ لازمَه العار بقية أيامه، وأصبح عبرة للمدى[٢].

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• زرع روح الإقدام في المعركة، والإيثار أثناء القتال.

= أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين باب - ومن مناقب أهل رسول الله صلى الله عليه وآله ج١١ ص٢١ حديث ٤٦٩٧. والمعجم الكبير للطبراني ٣/ ٦٨/ ٢٥٥٤. وفي رواية أبي هريرة في مسند الإمام أحمد ٢/ ٤٤٢، قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى علي والحسن والحسين وفاطمة -صلوات الله عليهم - فقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم». وقال الهيثمي: مجمع الزوائد ج٩ ص١٦٩: رواه أحمد والطبراني وفيه تليد بن سليمان وفيه خلاف وبقية رجاله من رجال الصحيح. راجع أيضاً الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ٣/ ٧٦٧ عن زيد بن أرقم. وابن ماجه في سننه كذلك، ١/ ٥٢/ ١٤٥ بلفظ «أنا سلم لمن سالمتم وحرب لمن حاربتم».

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٢٠٤.

(٢) المرجع ذاته، ص ٤٠٧-٤٠٨. ويذكر اشعاراً لمعاوية في هذا الصدد.

٢• المبارزات الشخصية، وحرب الأفواج.

٣• معاوية يعالج هزيمته برفع المصاحف، كما توقع الإمام عليه السلام.

● **زرع روح الإقدام في المعركة، والإيثار أثناء القتال:**

قال الإمام عليه السلام وهو يحث أصحابه على القتال، والإقدام الشجاع في معركة صفين: «فقدّموا الدّارع، وأخّروا الحاسر، وعَضّوا على الأضراس فإنّه أنْبى للسيوف عن الهام، والْتَوُوا في أطراف الرماح، فإنه أمْوَرُ للأسنّة، وغُضّوا الأبصار فإنّه أربطُ للجأش، وأسكنُ للقلوب، وأميتوا الأصوات، فإنّه أطردُ للفشل. ورايتُكم فلا تُميلوها ولا تُخِلّوها، ولا تجعلوها إلّا بأيْدي شُجعانكم.. أجزأ امْرؤٌ قِرْنَهُ، وآسى أخاه بنفسه، ولم يكِلْ قِرْنَهُ إلى أخيه، فيجتمعُ عليه قرنُهُ وقرْنُ أخيه. وايَمْ الله لئن فَرَرْتُمْ من سيف العاجلة، لا تَسْلَمُوا من سيف الآخرة، وانتم لها ميمُ العرب، والسّنام الأعظم. إنَّ في الفِرار مَوْجِدَةَ الله، والذُّلَّ اللّازِمَ، والعارَ الباقي وإنّ الفارَّ لغَيرُ مزيدٍ في عُمُره، ولا محجوزٍ بينَه وبينَ يومه.. الجنّة تحت أطراف العوالي! اليوم تُبلى الأخبار! والله لأنا أشوقُ إلى لقائهم منهم إلى ديارهم..»[1].

---

(١) باب الخطب، رقم ١٢٤. أنبى: من نبا السيف إذا دفعتْهُ الصلابة من موقعه فلم يَقطع، والهام: جمع هامة، وهي الرأس. والتَوَوْا في أطراف الرماح، فإنه أمورُ للأسنّة: أمرهم أن يتلوّوا إذا طُعنوا، لكي يتحرك السّنان عن موضع الطعنة، فيخرج زالقاً، وإلّا خرق ونفذ، فقتل. وأمْوَر: أي اشد فعلاً للمور، وهو الاضطراب الموجب للانزلاق وعدم النفوذ. آسى أخاه مواساةً. قِرنه: مقارنه وقرينه في القتال. اللهاميم: السادات والاجواد من الناس. العوالي: الرماح، تُبلى: تمتحن =

ففي هذه الخطبة مجموعة أوامر ونواهٍ وتعاليم حربية تضمن للمجاهدين السيطرة على ساحة الحرب، والمضي نحو الانتصار. وذلك لأن الإمام وهو يزرع في نفوسهم روح الإقدام والشجاعة في اقتحام صفوف الأعداء، بطريقة عسكرية مدروسة، يريدهم أن يكونوا فيما بينهم متكاتفين متعاونين إلى مستويات الإيثار بالنفس في سبيل إنقاذ الأخ المجاهد ودحر عدوّه، وأن يلتزموا بالصمت اثناء القتال، والصمت من صفات الشجعان، يقول العقيد الركن أحمد الزيدي: «فالضعيف والخائف، والخائر القوى، يحاول أن يعوّض عن وضعه النفسي والمعنوي المتردي، بإحداث ضوضاء وجلبة، ويصدر تصريحات رنّانة ضخمة، فارغة المعنى، محاولاً التعويض عن هذا النقص الذي يعاني منه، . . أما الشجعان فإنهم غالباً ما يلوذون بالصمت والسكوت، مع إصرار وتصميم على تدمير العدو وتحقيق النصر»[1]. «وملخص هذه التعاليم: أن يتقدم عند القتال لابس الدرع على غيره، والضارب بالسيف يعضّ على أضراسه عند الضرب، والطاعن بالرمح يلتوي معه حين الطعن، ولا ينظر هذا وذاك هنا وهناك، ولا يرفع المقاتل صوته لأن الصياح للجبان، . . «ورايتكم . .» يجب أن تكون الراية مع الشجاع المقدام، وان يحفّ بها الأبطال البواسل، لأنها النظام الذي يجمع المحاربين، وعليها

= أقوالكم بمواقفكم. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٣٠٦-٣٠٧. أربط للجأش: أكثر ثباتاً، ورابط الجأش: هو شديد القلب، كأنه يربط نفسه عن الفرار. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، الربع الثاني، حرف الراء، مادة (ربط)، ص١٣٢-١٣٣.

(١) الزيدي، العقيد الركن أحمد: الإمام علي عليه السلام والحرب، ص٥٥.

تدور رحى المعركة. «أجزأ أمرؤ قرنه». أجزأ: كفى، والقِرن - بكسر القاف- الخصم الذي يبرز للمجاهد، والمعنى على المجاهد أن يصمد لخصمه، ولا يدعه يفلت منه «وآسى أخاه بنفسه» إن استطاع المجاهد أن يعين من يحتاج إلى المعونة من إخوانه فعليه أن يؤازره ويذود عنه. «ولم يكل قرنه إلى أخيه..». على المجاهد أن يثبت للعدو والذي يبارزه ولا يفرّ منه اتكالاً على من ثبت وصبر، لأن هذا الفرار سيؤدي إلى أن ينضمّ خصم الذي فرّ إلى خصم الذي ثبت، فيجتمع على المجاهد الثابت الصابر خصمان..»[١]. هذا، وإن تقديم صنف الدروع على غيره من أصناف الجيش له أهمية بالغة، وذلك «لأن شدة القتال وعنفه تبدأ في اللحظات الأولى عند اصطدام الصفوف المتقابلة، فإذا كانت الصفوف الأمامية ضعيفة، فإنها لا تستطيع أن تتحمل قوة الصدمة، فتنهار بسرعة..»[٢]. وفي قوله عليه السلام: «والْتَوُوا في أطراف الرماح، فإنّهُ أمْوَرُ للأسنّة»، يقول العقيد الركن أحمد الزيدي على ضوء هذه المعلومة القتالية: «..على المقاتل أن يلتوي إذا طُعن بالرمح من عدوّه، لأنه إذا فعل ذلك، فإنّ سنان الرمح سوف يزحف، وينزلق عن موضع الطعنة، فلا يخترقه إلى جسمه،..وعندها تفشل رمية الرمح التي يرسلها الخصم، فإن المجال سوف يصبح مواتياً أمام خصمه لتسديده برمحه بالطريقة التي يراها مناسبة، وبحريّة كافية، بعيداً عن التهديد، حيث إن الخصم قد أطلق رمحه ولم يعد لديه ما يقاتل به سوى السيف، الذي عليه أن يمسكه بيده

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص٢٣١.

(٢) الزيدي، العقيد الركن أحمد: الإمام علي والحرب، ص٧٥.

بقوّة كي لا يفلت»[١]. ثم ذكّرهم بأن الفرار لا يعني السلامة من الموت، وإطالة العمر، بل هو موجب لغضب الله، ومستلزم للذل والعار والخزي مدى الحياة. بينما تكون الجنة وهي الهدف الأسمى للمسلمين، إنما هي للمقاتلين الثابتين تحت أطراف الرماح. وبالفعل يذكر التاريخ «إن معاوية لما نظر إلى عسكر أهل العراق.. ونظر إلى عليٍّ على فرسٍ أشقر، حاسر الرأس يرتّب الصفوف كأنه يغرسهم في الأرض غرساً، فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص..»[٢].

تحويل الجرحى والقتلى إلى المعسكر الخلفي:

وذلك لكي لا يتحوّل الانشغال بهم، أو الاستعطاف عليهم، إلى فرصة سانحة لهجوم العدو، بالإضافة إلى إمكانية تداوي الجرحى منهم ومعالجتهم بشكل أفضل، هذا وإن إخلاء ساحات القتال من الجرحى والمصابين والقتلى يمنح المقاتلين مزيداً من روح الإقدام والاقتحام[٣].

● المبارزات الشخصية وحرب الأفواج:

بعد الجولة القتالية على الماء وسيطرة جيش الإمام عليه، شهدت ساحات القتال مبارزات شخصية بين الطرفين، وكذلك حرب الأفواج، ضمن الضوابط الأخلاقية التي شدّد عليها الإمام قبل لقاء العدو بصفين[٤]. وتفاصيل هذه المعارك تجدها في الكتب المعنيّة،

---

(١) المرجع ذاته، ص٧٥-٧٦.

(٢) المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، ٣/ ٣٠.

(٣) راجع: المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٣٥٣، ٣٩٤.

(٤) راجع باب الخطب، رقم ١٤.

بأسماء أبطالها، وحملة راياتها، والأشعار الحماسية التي قيلت أثناء الهجوم والمبارزات[١].

الإمام وقيادات جيشه، في الخط الأمامي، يشتركون في القتال:

لم يقتصر دور الإمام على التوجيه المعنوي، ورسم الخطط الميدانية، وإصدار الإرشادات والأوامر، وإنما كان له السبق في التنفيذ على أرض المعركة خصوصاً في الشدائد والمعضلات، كما لاحظنا في واقعة الجمل، حينما أخذ الراية من ولده محمد ابن الحنفيّة، منطلقاً نحو الأعداء يشق صفوفهم ويحصد أنفاسهم. وفي صفين له مواقف عديدة. فمثلاً «لما كان غداة الخميس [لسبع خلون من صفر من سنة سبع وثلاثين]، صلّى عليّ فغلّس بالغداة، ما رأيت عليّاً غلّس بالغداة أشدّ من تغليسه يومئذ، ثم خرج بالناس إلى أهل الشام فزحف إليهم، وكان هو يبدؤهم فيسير إليهم، فإذا رأوه وقد زحف استقبلوه بزُحوفهم»[٢]. هذا وقد ذكر نصر بن مزاحم في كتابه

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٣٨٧-٤١٣. ونقدي، الشيخ جعفر: غزوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، في هذا الكتاب سرد تاريخي لتفاصيل الأحداث القتالية، ففي صفين - القتال والتحكيم - ص١٤٣-١٦٩. وكذلك راجع: المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، في أكثر من موقع، تجد تفاصيل الأحداث مثلاً: ص ١٧٢-١٨٥، ويذكر القتال بعد شهر محرم، بالأيام، فمثلاً يذكر قتال يوم الأربعاء، والخميس ص٢١٤، ويوم الخميس لسبع خلون من صفر، ص٢٣٢ وهكذا.

(٢) المنقري، نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص٢٣٢. غلّس: «كان النبي صلى الله عليه وآله يغلّسُ بالفجر إذا اختلط بضوء الصباح». يقال: غلّس بالصلاة: صلّاها بالغَلَس. والغَلَس - بالتحريك -: الظُّلمة آخر الليل. الطريحي، الشيخ فخر الدين: مجمع البحرين، ج٢، باب الغين، ص١٣٢٨. طبع مؤسسة البعثة في قم - إيران.

«وقعة صفين» تفاصيل المبارزات من قبل أصحاب الإمام والقياديين في الجيش، أمثال مالك الأشتر بن الحارث النخعي، وقد جعله الإمام عليه السلام على مقدمة جيشه، ومما يذكر إنه قتل كثيراً من فرسان معاوية ابتداءً من معركة الماء واستمراراً مع تطورات الحرب إلى نهايتها. فكان يقتل المبارزين له واحداً تلو الآخر، وهم على شهرتهم بالقوة والبأس ومنهم من أصحاب الألوية، وهكذا بقية أصحاب الإمام كحجر بن عدي وعمار بن ياسر وعبد الله بن العباس وغيرهم[1]. ويذكر أيضاً حضور الإمام عليه السلام في تلك المبارزات فمثلاً: «كان فارسَ معاوية الذي يعدّه لكلّ مبارزٍ ولكلّ عظيمٍ حريثٌ مولاه، وكان يلبس سلاح معاوية متشبهّاً به، فإذا قاتل قال النّاس: ذاك معاوية، وإن معاوية دعاه فقال: يا حريث، اتّق علياً، وضع رمحك حيث شئت! فأتاه عمرو بن العاص فقال: . . فإنْ رأيت فرصة فاقْتحم. وخرج عليّ عليه السلام في هذا اليوم أمام الخيل، وحمل عليه حُريث. . وكان شديداً ذا بأس، فقال: يا علي، هل لك في المبارزة، فأقدِمْ أبا حسنٍ إذا شئت. فأقبل عليّ وهو يقول: [الرجز]

أنا عليٌّ وابن عبد المطلب نحن لَعمر الله أوْلى بالكُتُبْ
منّا النبيّ المصطفى غيرَ كذبْ أهلُ اللواء والمقام والحُجُب

(١) المنقري، المرجع نفسه، ص ١٧٤-١٨٤، وأيضاً ص ١٩٦، مبارزة الأشتر لأحد العماليق. ويذكر من أصحاب الألوية فارس يقال له: زامل بن عتيك الحِزامي، قتله الأشتر. كما ويذكر أسماء الذين قتلهم الأشتر وغيره من الأصحاب في تلك الصفحات. وفي ص٢٤٣، يذكر مبارزة حجر بن عدي صاحب أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، راجع طائفة من المبارزات ص٢٦٧-٢٨٠.

[إلى آخر الأبيات] ثم خالطه فما أمهله أن ضربه ضربةً واحدة فقطعه نصفين»[١].

يقول الزيدي: «لقد أثبتت التجارب قديمها وحديثها، بأن القادة والآمرين عندما يكونون في المقدمة مع مقاتليهم، فإنهم يساهمون مساهمةً فعالة في سرعة إحراز النصر ودحر العدو.. وفي كل المعارك التي شارك فيها الإمام علي قبل خلافته وبعدها، كان موقفه دائماً إلى الأمام، وكان لهذا الأمر تأثير كبير على سير المعارك والسيطرة على تطوراتها، وفي اللحظات الحرجة، التي كانت تسير فيها تطورات المعركة في غير صالحه، والتي كانت تبدو فيها خسارته للحرب وشيكة، لم ينقذ الموقف من التدهور سوى وجوده إلى أقصى الأمام، يقاتل العدو بيده، يزيحه عن أماكنه، ويحطم ترتيبه القتالي، ويصدر أوامره المتلاحقة إلى القادة والآمرين، في الوقت نفسه يحثهم على الإسراع بتنفيذ توجيهاته التي تستهدف سدّ الثغرات في الموقف العسكري..»[٢]. هذا وقد كان الإمام عليه السلام يراقب تلك المبارزات وينصر أصحابه في مواقفهم، كما حدث في مبارزات كُريب بن الصبّاح من أصحاب معاوية، ليس في أهل الشام أشهر منه قوةً وشدة، فطلب المبارزة من أصحاب علي عليه السلام وبالفعل قتل ثلاثة منهم، رمى أجسادهم فوق بعض، ونادى: من يبارز؟ فخرج إليه عليٌّ ينصحه من اتباع ابن آكلة الأكباد ولكن دون جدوى، بل طلبَ من الإمام أن يبارزه، فقال عليه السلام: لا حول ولا قوة إلّا بالله، ثم مشى إليه وعجّله بضربة خرّ منها قتيلاً يتشحّط بدمه. وقد شهدت الساحة حرب

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٢٧٢-٢٧٣.

(٢) الزيدي، العقيد الركن أحمد: الإمام علي والحرب، ص٦٨-٦٩.

الأفواج والجماعات القليلة، وكان الإمام يختار القائد لهذه الحملات[١].

الإمام عليه السلام والتعاليم القتالية في صفين:

لقد حفل نهج البلاغة بكثير من أقوال الإمام في معركة صفين، حول توجيهاته وتعاليمه لفنون القتال، سواء كانت على مستوى المبارزات الشخصية أو الحرب الهجوميّة العامة، نذكر منها قوله عليه السلام: «. .إنهم لن يزولوا عن مواقفهم دونَ طعنٍ دراكٍ، يخرج منهُمُ النسيم، وضَرْبٍ يفلقُ الهام، ويُطيحُ العظام، ويُندرُ السّواعد والأقدام، وحتى يُرْمَوْا بالمناسر تتبَعُها المناسر، ويُرجموا بالكتائب تقْفوها الحلائب، وحتى يجرّ ببلادهم الخميسُ يتلوه الخميس، وحتى تَدْعَقَ الخيولُ في نواحر أرضهم، وبأعنان مساربهمْ ومسارحهم». «قال الشريف الرضي رحمه الله تعالى: الدّعْق: الدّق، أي تدقُ الخيول بحوافرها أرضهم. ونواحر أرضهم: متقابلاتُها. .»[٢]. وقال الشارح المعتزلي: «طعن دراك، أي متتابع يتلو بعضه بعضاً، ويخرج منه النسيم، أي لسعته. . وفلقت الشيء، أفلقه - بكسر اللام- فَلْقاً، أي شققتُه، ويُطيح العظام: يسقطها. . ويندرُ السواعد: يسقطها أيضاً. . والمناسر: جمع منْسَر، وهو القطعة من الجيش تكون أمام الجيش الاعظم. . ويُرجَموا، أي يُغْزَوْا بالكتائب، جمع كتيبة

(١) للتفاصيل بالأسماء راجع المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص١٩٥، ٢٢٧.

(٢) باب الخطب، رقم ١٢٤. الخَميس - بالفتح -: الجيش، سمي به لأنه خمسة أقسام: الميمنة والميسرة والمقدمة والسّاقة والقلب. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، حرف الخاء، مادة (خ م س) ص٧٠٠٢.

وهي طائفة من الجيش. تقفوها الحلائب: أي تتبعها طوائف لنصرها والمحاماة عنها، يقال: قد أحلبوا، إذا جاؤوا من كل أوبٍ للنصرة.. والخميس: الجيش. والدعق قد فسّره الرضي ﷺ، ويجوز أن يفسّر بأمر آخر، وهو الهيْج والتنفير.. ونواحر أرضهم.. [وقد] يراد به أقصى أرضهم وآخرها.. وأعنان مساربهم ومسارحهم، جوانبها، والمسارب: ما يسرُب فيه المال الراعي، والمسارح: ما يسرح فيه، والفرق بين (سرْح) و(سرْب) أن السرّوح إنما يكون في أول النهار، وليس ذلك بشرط في السّروب»[١]. ثم يذكر تفاصيل ميدانية عن القتال في صفين، باعتبار إنّ هذا الكلام قاله الإمام لأصحابه في صفين[٢].

وقال الإمام عليه السلام، «في تعليم الحرب والمقاتلة، والمشهور أنه قال لأصحابه ليلة الهرير أوْ أوّل اللقاء بصفين: معاشر المسلمين: ..وأكملوا اللأمَةَ، وقَلقوا السيوف في أغمادها قبل سلّها. والْحظوا الخَزْرَ، واطْعُنُوا الشّزْرَ، ونافحوا بالظُبا، وصلوا السّيوفَ بالخُطا.. وعليكم بهذا السّواد الأعظم، والرّواقِ المُطنّب، فاضْربوا ثَبَجَه، فإنّ الشيطان كامنٌ في كِسْره، وقد قدّم للوثبة يداً، وأخّرَ للنّكوص رجْلاً. فصمْداً صَمْداً! حتى ينجلي لكم عمودُ الحق وأنتم الأعْلون والله معكم..»[٣].

قال الشيخ محمد عبده في شرحه: «اللأمة الدرع، وإكمالها أن يزداد عليها البيضة والسواعد ونحوها، وقد يراد من اللأمة آلات الحرب والدفاع. «وقلقوا السيوف..» مخافة أن تستعصي عن

---

(١) ابن ابي الحديد المعتزلي، عزّالدين: شرح نهج البلاغة، مج٤، ج٨، ص٢١٢-٢١٣.

(٢) المرجع ذاته، ص٢١٣-٢٧٥.

(٣) باب الخطب، رقم ٦٦.

الخروج عند السل. والخَزَرَ - محرّكة - النظر كأنه من أحد الشقين وهو علامة الغضب. اطعُنوا - بضم العين - فإذا كان في النسب مثلاً كان المضارع مفتوحها، وقد يفتح فيهما، والشزْر - بالفتح - الطعن في الجوانب يميناً وشمالاً، نافحوا: كافحوا وضاربوا، والظُبا -بالضم- جمع ظبة، طرف السيف وحدّه، صلوا من الوصل، أي اجعلوا سيوفكم متصلة بخطا أعدائكم، جمع خطوة، أو إذا قصرت سيوفكم عن الوصول إلى أعدائكم فصلوها بخطاكم.. وأراد بالسّواد الاعظم، جمهور أهل الشام، والرواق رواق معاوية.. الثّبَجَ -بالتحريك- الوسط، -كسره- بالكسر - شقه الأسفل، كناية عن الجوانب التي يفر إليها المنهزمون، والشيطان الكامن في الكسر مصدر الأوامر بالهجوم والرجوع، فإن جبنتم مدّ يده للوثبة، وإن شجّعتم أخّر للنكوص والهزيمة رجله، الصمد: القصد أي فاثبتوا على قصدكم..»[1].

ومن كلام له عليه السلام في بعض أيام صفين: «وقد رأيتُ جولتكم، وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزُكُمُ الجُفاةُ الطَّغامُ، وأعرابُ أهل الشام، وأنتم لهاميُم العرب، ويآفيخُ الشّرف، والأنْفُ المقدّم، والسّنامُ الاعظم، ولقد شفى وحاوِح صدري أن رأيتكم بأخَرَةٍ تحوزونَهُمْ كما حازوكم، وتُزيلونَهم عن مواقفهم كما أزالوكم، حَسّاً بالنّصال، وشَجْراً بالرّماح، تركَبُ أولاهم أُخْراهم كالإبل الهيم المطرودة، تُرمى عن حياضها، وتذادُ عن مواردها»[2]. أي رأيت

(١) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١١٤-١١٥.

(٢) باب الخطب، رقم ١٠٧. الجفاة: هم قساة القلوب وغلاظ الطباع، يعيدون عن آداب الشرع، يعملون بآرائهم مما لم يرو به الشرع. الطريحي، فخر الدين: مجمع =

جولاتكم وحركتكم في الحرب، وتقهقركم وابتعادكم عن مواقعكم، كناية عن الهرب، وهو من قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾[١]. وتحوزكم تشتمل عليكم وتعدل بكم عن مراكزكم، والجفاة: جمع جافٍ، وهو الغليظ الظالم، والطغام: الأوغاد. وأعراب أهل الشام أي الذين لا ثقافة لهم ولا وعي حضاري عندهم. وفي ذلك معاني العتب واللوم ببيان لطيف. ثم يمتدح أصحابه، بقوله: «وانتم لهاميم العرب..»: جمع لهموم وهو الجواد من الناس والخيل. واليآفيخ: جمع يافوخ وهو أعلى الرأس، وقمته. «والانف المقدم والسنام الاعظم»، تأكيد على معنى السمو والرفعة والشرف، وقوله: «ولقد شفى وحاوح صدري»: أي حرقته وحزازاته وآلامه، قد شفيت حينما رأيت أخيراً إحاطتكم بهم، واشتمالكم عليهم، قتلاً وطعناً بالرماح، فاضطروا للفرار، فوقع بعضهم على بعض، كالإبل الهيم وهي العطشى، حينما تطرد من الماء، وتمنع عن الورود إليه، فتفر من غير وعي تسحق بعضها بعضاً[٢]. حدث ذلك «عندما انهزمت ميمنته [جيش الإمام] في حرب صفين أمام أهل الشام، فلولا وجوده بين المقاتلين، لما أمكن تلافي الموقف الصعب، حيث اتجه [الإمام] إلى الميسرة يدفع المقاتلين معه لسدّ الثغرة في الترتيب القتالي لقواته في الميمنة،

= البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، الربع الأول، حرف الجيم، مادة (ج ف و)، ص٣٨٢-٣٨٣.

(١) سورة الانفال، ٨/١٦.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص١٦٨-١٦٩. وابن ابي الحديد المعتزلي، عزّالدين: شرح نهج البلاغة، مج٤، ج٧، ص١٢٣، -بتصرّف-.

وكان يصدر أوامره الصارمة لقادته وهو يقاتل، فقد أمر مالك الأشتر أن يجمع الناس المتقهقرين ويدفعهم إليه للقتال معه، إلى أنْ تمّ التغلب على ميسرة قوات معاوية، ودفعها عن ميمنة قواته إلى الخلف، وقد ظل يتنقل من الميمنة إلى الميسرة، ومنها إلى الميمنة، يصدر أوامره المتتالية. . . . حتى استطاع أن يسيطر على الموقف ويعيد ترتيب قواته مرةً أُخرى»[١]. كما شهدت الساحة خروج الجماعات المقاتلة كأفواج قتالية. يقول نصر بن مزاحم: «وكان عليّ عليه السلام يخرج الأشتر مرّة في خيله، وحُجْرَ بن عديّ مرّة، وشبَثَ بن ربعي التميمي مرة. .»[٢]، وهكذا.

● **معاوية يعالج هزيمته برفع المصاحف، كما توقّع الإمام عليه السلام:**

ففي كتاب له عليه السلام إلى معاوية، الذي دعاه فيه لمبارزته شخصياً، وإعفاء الجيشين من القتال، توقّع هزيمة معاوية وجيشه، ولجوءه إلى رفع المصاحف حيلةً ومكراً، حيث قال: «. . فكأني قد رأيتك تَضجُ من الحرب إذا عضّتْك ضجيج الجمال بالأثقال، وكأني بجماعتك تدعوني جَزَعاً من الضّرب المتتابع، والقضاء الواقع، ومصارعَ بعد مصارع، إلى كتاب الله، وهي كافرةٌ جاحدةٌ، أو مُبايعةٌ حائدةٌ»[٣].

---

(١) الزيدي، العقيد الركن أحمد: الإمام علي والحرب، ص٦٩-٧٠.

(٢) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص١٩٥.

(٣) باب الرسائل، رقم ١٠. المبايعة الحائدة: العادلة عن الحق، أي عن البيعة بعد الدخول فيها، مالوا وعدلوا عنها. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، رقم ٥، ص٦٠١. والجدير بالذكر أن هذه الفراسة هي جزء من الحرب النفسية بالمصطلح الحديث. وقد قيل للإمام: بأي شيء غلبتَ الاقران؟ فقال عليه السلام: «ما =

قال الشارح المعتزلي: «إما أن يكون فراسةً نبويّة صادقة، وهذا عظيم، وإما أن يكون إخباراً عن غيْب مفصّل، وهو أعظمُ وأعجب، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العَجَب»(١).

وقد كتب الإمام عليه السلام لأهل الأمصار ما جرى في صفين، وذكر تلك النتيجة التي توقعها بقوله: «وكان بدءُ أمرنا أنّا الْتَقينا والقومُ من

= لقيتُ رجلًا إلّا أعانني على نفسه». وقال الرضي: «يومئ بذلك إلى تمكن هيبته في القلوب». نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ٣١٨. ومع ذلك سنشير إشارة سريعة إلى مسألة علم الغيب الذي هو بلا شك ولا ريب خاص بالله الخالق الكريم حيث قال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ..﴾ النمل ٢٧/ ٦٥. ولكن قال سبحانه أيضاً: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ..﴾ الجن ٧٢/ ٢٦-٢٧. فقد ورد في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي في بحثه الروائي، عن الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي، روى محمد بن الفضل الهاشمي عن الرضا عليه السلام أنه نظر إلى ابن هذاب فقال: إنْ أنا أخبرتك أنك ستبتلى في هذه الأيام بدم ذي رحم لك لكنت مصدّقاً لي؟ قال: لا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى. قال: أو ليس إنه يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ..﴾ فرسول الله صلى الله عليه وآله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه، فعلّمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة». ثم يقول الطباطبائي، أقول: والأخبار في هذا الباب فوق الاحصاء ومدلولها أن النبي صلى الله عليه وآله أخذه بوحي من ربه وأنهم أخذوه بالوراثة منه صلى الله عليه وآله. الطباطبائي، السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ج٢٠ص٥٨.

(١) ابن ابي الحديد المعتزلي، عزّالدين: شرح نهج البلاغة، مج٨، ج١٥، ص٦٠. كما وذكر بعد شرحه هذا، كتابيْن للإمام عليه السلام إلى معاوية في المعنى ذاته. وقد ذكر عليه السلام في كتابه الثاني: (..ورأيتَ [يا معاوية] سُحُب الموت حتى هطلت عليك بصيّبها، حتى اعتصمت بكتاب أنت وأبوك أوّل من كفر وكذّب بنزوله. ولقد كنتُ تفرّستُها وآذنتُك أنّك فاعلها، وقد مضى منها ما مضى، وانقضى من كيدك فيها ما انقضى..). المرجع ذاته، ص٦١.

أهل الشام، والظاهر أنّ ربّنا واحد، ونبيّنا واحد، ودعوتنا إلى الإسلام واحدة.. إلّا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه بَراءٌ! فقلنا: تعالَوْا نُداوِ ما لا يُدرك اليوم بإطفاء النّائرة، وتسكين العامّة،.. فقالوا: بل نُداويه بالمكابرة! فأبَوْا حتى جنحت الحرب وركدتْ،.. ووضعتْ مخالبَها فينا وفيهم، أجابوا عند ذلك إلى الذي دعوناهم إليه، فأجبناهم إلى ما دَعَوْا، وسارعْناهم إلى ما طلبوا، حتى استبانت عليهم الحُجّة، وانقطعتْ منهُمُ المعذرة..»[1]. وفي قوله عليه السلام: «والظاهر»: إيماء إلى تهمته لهم بضدّ ذلك كما صرّح به هو وعمّار في صفين فإنه عليه السلام كان يقول: «.. ما أسلموا ولكن استسلموا، وأسرّوا الكفر، فلما وجدوا أعواناً عليه أظهروه»[2].. ثم حكى إجابتهم ورجوعهم إلى رأيه الذي رآه لهم، وذلك أنهم صبيحة ليلة الهرير، حين حملوا المصاحف على الأرماح كانوا يقولون لأصحابه عليه السلام: معاشر المسلمين نحو إخوانكم في الدين، الله الله في البنات والنساء، كما حكيناه أوّلاً. وذلك عين ما كان يذكرهم به عليه السلام من حفظ دماء المسلمين وذريّتهم، وإما إجابته إلى ما دعوا فإجابته إلى تحكيم كتاب الله حين دعوا إليه وظهور الحجّة عليهم برجوعهم إلى عين ما كان يدعوهم إليه من حقن الدماء، وفي ذلك

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٨. النائرة: العداوة والشحناء، واطفاء النائرة: عبارة عن تسكين الفتنة. جنحت الحرب وركدت: أقبلت وتهيأ رجالها لإيقادها. وثبتت. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل: مج٢، الربع الرابع، حرف النون، مادة (ن و ر) وكذلك مج١، الربع الأول، حرف الجيم، مادة (ج ف ح) ص٤٠٩.

(٢) باب الرسائل، رقم ١٦.

انقطاع عذرهم في المطالبة بدم عثمان، إذا كان سكوتهم عن دم صحابيّ لا حقّ لهم فيه أسهل من سفك دماء سبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان»[١].

والمحصّلة من هذه النتيجة، إنّ معاوية وجيشه في البداية أرادوا القتال تحدّياً لدولة الإسلام ورسالة الرسول المصطفى محمد ﷺ، فجاءت استجابة الإمام لهم بالطريقة التي اختاروها، لذلك قال عليه السلام عند استعداده لحرب معاوية وأهل الشام: «. . ولقد ضربتُ أنفَ هذا الأمر وعينَهُ، وقلّبتُ ظهرَهُ وبطنَه، فلم أرَ لي فيه إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمدٌ ﷺ»[٢].

والآن بعدما ذاق معاوية طعم الانتكاسة والهزيمة النكراء، التي بدت واضحة لجيشه، احتال برفع المصاحف استجابةً لاقتراح ابن العاص، وذلك لإخراج هزيمته بطريقة تحفظ حياته والبقية من جمعه.

وهنا يذكر المؤرخون التزام مالك الأشتر بالطاعة التامة لأوامر الإمام عليه السلام، إذْ أمره بالانسحاب، وهو في موقع قتالي يتحسس من خلاله الفتح، وعلى مقربة من الانتصار، وقد لاحت في الآفاق هزيمة معاوية وجيشه[٣]. ولعلّه - كما أظن- تراجع عن القتال مطيعاً، خوفاً

---

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) باب الخطب، رقم ٤٣. وقوله عليه السلام: (ولقد ضربتُ أنف هذا الأمر وعينه)، (مثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء في البحث والتأمل والفكر. .). التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١١٧.

(٣) راجع الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد: سيرُ أعلام النبلاء، ٥/ ٨٠. والمنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين: ص٤٩٢، ٥١٢.

من أن تغتال تلك الفئة المشبوهة من دعاة السلام الباطل عليّاً، إذا لم يأتمر بإيقاف القتال!.

يقول الدكتور حسن الزين: «لقد كان علي بن أبي طالب قاب قوسين أو أدنى من النصر ومن إلحاق الهزيمة بجيش معاوية، عندما لجأ عمرو بن العاص إلى الإشارة برفع المصاحف طلباً للفتنة، وقد تحققت، فدبّ الخلاف في جيش الإمام واضطر للقبول بالتحكيم..»[١].

لماذا لم يواصل الإمام عليه السلام القتال لإنهاء الفتنة؟:

إن الإمام عليه السلام يمتلك الشرعية في حربه، باعتباره الخليفة المنصوص عليه، والمنتخب من قبل الأمة -أيضاً-، فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قيادة المسلمين، وممّا يذكر إنه عليه السلام ركب في صفين بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم -الشهباء- وتعصب بعمامة رسول الله، ولهذه المظاهر دلالات تأثيرية واضحة على عموم المسلمين لا سيما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه، وعددهم ألفان وثمانمائة[٢].

أما حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن الصحابي عمّار بن ياسر، فكان له

(١) الزين، د.حسن: الإمام علي بن أبي طالب وتجربة الحكم، ص٨٠.

(٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٣٨٩-٣٩٠. ويقول: (كان ممن شهد صفين مع علي من أصحاب بدرٍ سبعة وثمانون رجلاً: منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممّن بايع تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائه). المرجع ذاته، ج٢، ص٣٦١.

وقعُهُ الكبير في جيش معاوية، مما اضطره إلى اللجوء لسياسة المكر والخداع، لاستيعاب المسألة. وقد ذكرنا الحديث الشريف -فيما سبق- وهو قوله ﷺ لعمّار: «تقتلك الفئة الباغية»(١). فتم توجيه الحديث الشريف بما يخدم جيش معاوية بصورة مفضوحة، يذكر نصر بن مزاحم - في هذا الصدد- «أن معاوية قال: إنما قتله من أخرجه، يخدع بذلك طغام أهل الشام»(٢).

وبالرغم من كل تلك الشرعية الواضحة لجيش الإمام، بالإضافة إلى اقترابه من الانتصار التام. إلّا أنه لم يواصل القتال، وذلك لعدة عوامل، من أهمها اشتداد الضغوط الداخلية على الإمام، وذلك من قبل زمرة نفعية ظهرت في جيش دولة الخلافة، والتي أيدتها جموع غير واعية لخدعة رفع المصاحف، وذلك لاعتبارات عصبية وقبلية. يقول الأستاذ عبد المقصود: «واستنامت الكثرة في جيش علي لمظهر الدعوة البرّاق، دون الحذر من لبّها الخبيث.. ففي قبولها الحياة! كالنعام أغمضوا عيونهم من شراك الصياد، وأخفوا رؤوسهم في الرمال»(٣). وقد ذمّهم الإمام بتضييع ثمرة القتال، لتركهم إيّاه عند اقترابهم من النصر، في قوله: «.. يا أهل العراق، فإنّما أنتم

---

(١) صحيح مسلم ج٨، كتاب الفتن ص١٨٦ عن أم سلمة. وكذلك البخاري، محمد بن اسماعيل: الجامع الصحيح، ج١، باب الصلاة، رقم الحديث ٤٤٧. عن أبي سعيد الخدري بلفظ (تقتله).

(٢) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٣٤٢-٣٤٣. الطغام -كسحاب-: أوغاد الناس وارذالهم. ومفردها طغامة للذكر والأنثى، مثل نعامة ونعام. البستاني، الشيخ عبد الله: البستان، باب الطاء، ص٦٦.

(٣) عبد المقصود، عبد الفتاح: الإمام علي بن أبي طالب، مج٣، ج٥، ص٦٦.

كالمرأةِ الحامل، حملتْ فلمّا أتمّت أملصت، ومات قيِّمُها..»[١].
وبالفعل تفرّقت الآراء في جيش دولة الخلافة في عدّة طوائف، «فطائفة أضلها تقاها حين حسبت أن في إبائها الاحتكام إلى كتاب الله خروجاً عن شرعة الدين، وطائفة أنهكتها الوغى وأكلت من عشائرها الموزعة بين جيش العراق وجيش الشام، فآثرت تعجّل السلامة، وطائفة ثالثة خاضت الحرب عن حميّة لا عن إيمان، فاكتفت بتلك الضروب للبسالة التي أبدتها خلال ما سلف من أيام القتال، ففيها غناء حين تمشي بسيرتها الأحاديث. وبين أولئك وهؤلاء فريق غيرهم خايلته دنيا ابن أبي سفيان.. في وقت أيقنت فيه أن عليّاً صاحب آخرة ليست تطلب عنده أطايب الحياة»[٢].

والذي يهمنا في تحليل هذا الموقف، هو أن جيش الإمام بعمومه لم يكن قد استوعب دروس التربية الجهادية بالشكل الكافي من الإمام، خصوصاً في مسائل الصبر والطاعة والثبات، لضيق آفاق تفكيرهم، ولمحدودية زمن التلقّي أيضاً، وهنا يمكن أن نشبه هذا الصنف من جيش الإمام بأولئك الذين تركوا مواقعهم بحثاً عن الغنائم في واقعة أُحد، ولم يطيعوا أوامر رسول الله ﷺ لهم بالثبات في مواقعهم.

إن الانتصار الذي حققّه جيش الإمام في معركة الجمل، شجّع الكثيرين باللحوق به في صفين، إيماناً منهم بشرعية الخلافة المتمثلة في الإمام علي عليه السلام، إلّا إن هذا الإيمان كان ممزوجاً بحالات الضعف

---

(١) باب الخطب، رقم ٧١. أملصت: أسقطت، وألقت ولدها ميتاً. قيّمها: زوجها. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٦٤١، ٦٤٠.

(٢) عبد المقصود، عبد الفتاح: الإمام علي بن أبي طالب، مج٣، ج٥، ص٦٧-٦٨.

الإنساني أمام إغراءات الدنيا والغنائم المادية، والطمع بانتصار الإمام. وبعبارة أُخرى أصبح جيش الإمام خليطاً متشابكاً من ذوي الطموحات الخاصة، وقد أصبح لهذا الخليط كلمته الواسعة بعد شهادة كوكبة من الأصحاب والنُّخب المتميزة في إخلاصها وجهادها في المعركة. يقول الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود: «من هذه الأخلاط كان جيش صفين، وللغاية التي مضى إليها الإمام مضت معه، وقد ازدهاها أن تساند ابن عم الرسول، صاحب الحق الشرعي ولاية أمر الناس، وهي تبغي - إذْ تظاهره - إعلاء كلمة الحق، وردّ كيد أيّما مبطلٍ حدّثته نفسه بالتمرّد على سلطانه. ومع ذلك، فلم تكن نفوسهم بلاً ريب فارغة الفراغ كله ممّا يداخل نفوس البشر من نزعات خاصة إلى الشهرة أو المغنم أو السيادة التي تفيئها عليهم الحرب المرقوبة، وإن طغت عليها - حين الزحف - تلكم الحماسة الطاغية لله، والإمام، والمُثُل النبيلة الرفيعة التي أذهلتهم عن الذات. أما الآن، وقد خفّ ذلك الطوفان الأمثل الذي جرفهم إذْ ذاك في عبابه، وصدمتهم محنة الحرب، وأصبحوا ينظرون بالعيون بعد أن كانوا يرون بالبصيرة، ويسمعون بالآذان دون القلوب، فقد تبدلت لهم الحال، وَهَوَوْا من سماء الروح إلى أرض المادة!»[١].

فضاق الإمام ذرعاً بالفئة المحرّكة لهذه الفتنة، حيث أصبحت سيدة الموقف في تلك الأزمة الحادّة، وكذلك بالذين انضموا إلى توجهاتهم النفعيّة، فسجّل آهاته وزفراته نحوهم بكلمات عديدة لغرض تقويمهم وإعادتهم إلى التبصر الإيماني والوعي الجهادي[٢].

---

(١) عبد المقصود، عبد الفتاح: الإمام علي بن ابي طالب، مج٣، ج٥، ص٦٨-٦٩.

(٢) راجع باب الخطب، رقم ٢٧، ورقم٣٩، ورقم٥٦، وغيرها. ستتحدث عن خطط =

والحقيقة أنّ هذه الظاهرة الشاذة لا يمكن معالجتها إلّا بهذه الصورة، وإنها المعاناة الحقيقية للمصلحين عموماً، لأن الإسلام هو دين السلام والعفو، ولا يأخذ الناس بمجرد نواياهم المستورة، وبالفعل يظهر انحرافهم عند توافر الأجواء المناسبة، وهكذا استمر تراجع جيش الإمام تحت وطأة مكيدة رفع المصاحف، حتى أمر عليه السلام الأشتر بالانسحاب وهو على مقربة من النصر والفتح، واصبح الأشعث بن قيس في جيش الإمام المسيطر على هذا التيار المتراجع، فاضطر الإمام إلى قبوله للتفاوض، فدخل في المشاورات مع الطرف الأموي تحت سقف الخدع والاطماع، فاختير عمرو بن العاص عن طرف جيش معاوية، وأبو موسى الأشعري عن طرف جيش الإمام، وحاول الإمام أن يثني هذا الاختيار لضعف الأشعري وعدم وفائه له، ويميل الكفّة إلى عبد الله بن عباس، مرةً، وإلى الأشتر أُخرى، ولكن من دون جدوى، وانتهت مهزلة التحكيم، بطريقة قاسية على قلوب المجاهدين، واستغل معاوية الفرصة ليتنفس الصعداء ويلملم جراحاته، وقد أنقذته هذه الخدعة من ضربة الإمام القاضية على وجوده[1]، بالرغم من أنها زعزعت كيان دولته، وحصدت الكثير من أتباعه، وكشفت للناس والتاريخ عن مكائده وخططه التآمرية.

هل الأكثرية ملزمة أم مُعلمة:

هذا السؤال يفرض نفسه هنا، والواقع -كما مرّ معنا فيما سبق-

= مثيري الفتنة وأطماعهم في المدخل التاريخي لمبحث النهروان القادم، في بداية المطلب الأول.

(١) انظر: المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٤٠٠-٤١٤.

إن الأكثرية غير مُلزمة برأيها للإمام، وقد كان واضحاً مع ابن عباس في قوله: «لك أن تُشير عليَّ وأرى، فإنْ عصيتُك فأطعني»[١]. إلّا أنه حينما يتبيّن للإمام إن الأمة يتهددها خطران، أحدهما أشدّ من الآخر، فيختار أهون الخطرين، وبالفعل في قبوله للتحكيم - من الناحية الواقعية- أبعد عن الأمة أسوء الضررين في نتيجة الأمر.

وفي تحليلنا لا نستبعد الحالة التربوية لتنازل الإمام وموافقته - على مضض- لرأي الأكثرية المخدوعة، فإن تربيتهم عبر اختيارهم لتجربة عملية كهذه، ستوصلهم إلى الاستفاقة على خطأ اختيارهم، فمن الناحية التربوية، تفضّل هذه الطريقة على طريقة إكراههم على مواصلة القتال، خصوصاً لو عرفنا أنّ المسألة تتحمّل السعة، ما دامت المصلحة الإسلامية محفوظة. وسنجد ثمرة هذه الطريقة التربوية فيما بعد. وللعلم ان هذه الطريقة قد سنّها الحبيب المصطفى ﷺ مع أصحابه الكرام في واقعة أُحد، حيث يذكر المؤرخون بأنه ﷺ كان من رأيه البقاء في المدينة والتخندق بها، فتنازل عن رأيه موافقاً لرأي الأكثرية وخرج من المدينة لمواجهة الأعداء، ومما يذكر أنّ الذين استكرهوا النبي ﷺ على الخروج ندموا على ذلك فيما بعد[٢].

حصيلة وقعة صفين:

يذكر المؤرخون: «أنّ عدة من قتل بها من الفريقين في مائة يوم

---

(١) باب الحكم، رقم ٣٢١.

(٢) راجع الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٨-١٩٠. وكذلك ابن الأثير، عزّ الدين: الكامل في التاريخ، مج٢، ص١٥٠.

وعشرة أيام، مائة ألف وعشرة آلاف من الناس: من أهل الشام تسعون ألفاً، ومن أهل العراق عشرون ألفاً. [ولعل هذه الأرقام مبالغ فيها، إلّا انها تدل على الحجم المريع للاقتتال، يقول المسعودي]: ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين أكثر ممّا قيل في هذا الباب، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل سوى الخدم والاتباع.. وأهل العراق كانوا في عشرين ومائة ألف مقاتل دون الاتباع والخدم»[١].

كما وذكر آخرون أنّ مجموع من قتل من الطرفين سبعون ألفاً، من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، وكان المقام بصفين مائة وعشرة أيام، وقتل من الصحابة الكرام ممّن كان في جيش عليّ عليه السلام خمسة وعشرون صحابياً، منهم عمّار بن ياسر، وكانت عدة الوقائع بينهما سبعون وقعة[٢].

«ومهما قيل في حرب صفين يبقى أنها قامت في مواجهة العصبيّة، القبلية وضدّها، ومن ثم من اجل [سعادة الإنسان]، التي كرسها الشرع الإسلامي وأعطاها حدودها وأبعادها وحماها علي بن أبي طالب، ودافع عنها في الحرب والسلم عبر تصرفاته التي حفظ منها التاريخ الإسلامي أمثلةً حيةً للصراع بين الخير والشر، وبين قيم الإسلام وعصبية الجاهلية»[٣].

---

(١) المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٤٠٤.

(٢) المرجع ذاته، ج٢، ص٣٦١.

(٣) الزين، د. حسن: الإمام علي بن أبي طالب وتجربة الحكم، ص٨١.

المبحث الثالث:

معركة النهروان[1]

هي ثلاثة مطالب:

* المطلب الأول : سياسة الإمام عليه السلام مع المعارضة بعد التحكيم *

* المطلب الثاني : أهم السمات الفكرية والسلوكية عند الخوارج *

* المطلب الثالث : خلاصة الدلالات التربوية للمعالجة الجذرية عند الإمام عليه السلام *

---

(١) (نَهروان: وأكثر ما يجري على الألسنة بكسر النون، وهي ثلاثة نهروانات: الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط، من الجانب الشرقي، حدّها الأعلى متصل ببغداد، وفيها عدة بلاد متوسطة، منها: اسكاف وجرجرايا والصافيّة ودير قُنّى، وغير ذلك، وكان بها وقعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مع الخوارج، مشهورة). الحموي، ياقوت: معجم البلدان، مج٥، باب النون والهاء وما يليهما، ص٣٢٤-٣٢٥.
وحدثت هذه المعركة في سنة ٣٩ هـ - ٦٥٩م. راجع الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص٢٠٢-٢١١. وكذلك الطبري، ابن جرير: تاريخ الطبري =

= المعروف بتاريخ الأمم الملوك، ٤/ ٥٢-٧٠. والمسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٤١٥-٤٢٢. وابن الأثير، عزّالدين: الكامل في التاريخ، ٣/ ٣٢٦-٣٤٨.

المطلب الأول

سياسة الإمام عليه السلام، مع المعارضة بعد التحكيم

● **المدخل التاريخي لظهور المعارضة:**

انتهت معركة صفين باختيار الحكمَيْن، فسارا في موكبيهما نحو دومة الجندل، الموقع الوسط بين العراق والشام، حيث وجّه الإمام عليه السلام أبا موسى عبد الله بن قيس في أربعة آلاف من خاصته، وصيّر عبد الله بن عباس على صلاتهم، ومعاوية بعث مع عمرو بن العاص أبا الأعور السلمي في مثل ذلك من جماعته[1]. وعاد الإمام بجيشه إلى الكوفة، كما عاد معاوية ببقية جيشه إلى دمشق، هذه النتيجة أوجدت انشقاقاً وتمرّداً داخل جيش الإمام، فأعلن المتمردون عدم رضاهم لهذه النتيجة، مطالبين بمواصلة القتال، وحين العودة نزلوا بحروراء - إحدى قرى الكوفة - ليتخذوها قاعدةً لتنظيم قواهم، وتطوير معارضتهم، فلم يدخلوا العاصمة مع الداخلين. وهنا يمكن اعتبار هذه الخطوة الانعزالية بداية تشكيلهم كقوّةٍ معارضةٍ لها لونها وخصوصيتها على الأرض. بينما «كان ظهورهم - العلني- بعد خدعة رفع المصاحف في تلك الحرب، من

---

(١) الدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص١٩٧.

قبل جيش معاوية، بمشورة عمرو بن العاص، بعد أن اتضح بما لا يقبل الشك حتمية هزيمة جيش الشام، لو استمرت الحرب»[١]. فكان - من المؤكد- «رفع المصاحف حيلة دبّرها عمرو بن العاص، للحيلولة بين القاسطين، وبين الفرار أمام جيوش الإمام»[٢].

ومما لا يخفى أنّ ظهورهم المفاجئ هذا، لم يأت من فراغ، وإنما كانت له أوّليات وجذور، فثمّت عوامل نفسية واجتماعية وثقافية متراكمة لدى هذه الجماعة، وجدت متنفساً مناسباً لها في المناخ الذي أولدته تلك النهاية للحرب. فقد أصبحوا بذور الفتنة في جيش الخلافة، بعدما فشلوا في مسعاهم ليكونوا ذلك (اللوبي) الخطير الذي يمسك بزمام الخلافة، ويؤثر على قرارات الخليفة، وبالفعل حينما اصطدموا بحزم الإمام الإداري، ووصلوا معه إلى طريق مسدود، فكّروا بالتخلص من معاوية وعليٍّ معاً، إلّا أنهم طرحوا فكرة أخيرة لتمرير نواياهم، وهي العودة المشروطة إلى جيش الخلافة، في محاولة منهم للخروج من المأزق الذي حوصروا فيه، فوضعوا شرطاً قاتلاً - على المستوى الشرعي والسياسي - وخلاصته أن يعلن الإمام توبته من قبوله للتحكيم، حيث اعتبروا قبوله كفراً، فلو تمَّ لهم مرادهم - نقول ذلك جَدَلاً- لاستطاعوا أن يمسكوا بعنق حركة الإمام - ولو مرحليّاً-، وفي تقديري إن موقفهم الجديد هذا يعبّر عن فشلهم في الوصول إلى أهدافهم المشبوهة، بالرغم من نجاحهم المرحلي في عرقلة تحقيق الانتصار المرتقب لجيش الخلافة، ومساهمتهم الفعّالة في إشاعة الفوضى، وفي هذا

---

(١) العاملي، السيد جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج١، ص١١٣-١١٤.

(٢) نوري، د.جعفر: علي عليه السلام ومناوئوه، ص١٧٥.

السياق فُرض الأشعري للتفاوض، ظنّاً منهم بأن الإمام سيرضخ بالنهاية لضغوطهم، وينصاع لشروطهم، ولكنهم حينما فشلوا في تحقيق ذلك، وقفوا ضد التحكيم، فانفردت فئة النفعيين لمواصلة التحكيم إلى النهاية - كما سنرى - بينما اتخذت فئة الخوارج طريق المواجهة المسلحة.

وهنا ما كان على الإمام - ضمن هذه المعادلة المتأزمة- إلّا أن يستجيب لهم فيما يريدون!، أو أن يتعالى من الدخول في تفاصيل ثانوية، لا تؤثر على أساسيات منهجيّته الاصلاحية، كاختيار المفاوض للتحكيم - مثلاً-، وذلك لكي لا تتوسع دائرة الاختلاف داخل جيشه[1].

وبالفعل كان هذا هو خيار الإمام عليه السلام، وبذلك حصر مثيري الفتنة، وذوي الأطماع المصلحية في زاوية حرجة، وكشف بالتالي عن وجوههم القبيحة ونواياهم الباطلة، فمن جهة اعتبر رفع المصاحف خدعة تعبّر عن هزيمة الأعداء، كما وحذّر الناس من اختيار الأشعري، ومن ثَمّ تركهم يخوضون تجربة تربوية جادّة، يتحملون نتائجها ويذوقون مرارة موقفهم ذلك، ثم يعودون - فيما بعد - إلى رشدهم وطاعة إمامهم عن وعي وبصيرة - وهذا هو الذي حصل كما سنرى -.

---

(١) يقول الأستاذ عباس العقاد: «فهذا التحكيم لم يكن ليبدل تلك العواقب على أية نتيجة من النتائج انتهى إليها، سواء اتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية معاً، أو اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر، أو لم يتفقا على شيء..». العقاد، عباس محمود: معاوية بن أبي سفيان، من موسوعة العقاد الإسلامية، مج٤، الكتاب الخامس، ص١٢١.

والحقيقة - التي أراها- إن الخوارج بمواقفهم المتناقضة من التحكيم أرادوا أن يكونوا تلك البطانة المسيطرة على مفاصل الدولة، والتحكّم بقرارات الخليفة، بطريقتهم الانفعالية الساذجة، التي ستثير الأمة ضد الخليفة فيما بعد، كما أثارتها بطانة الخليفة عثمان، بطريقتهم التسلطية والاستغلالية.

يقول الأستاذ العقاد: «وشاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه، وكثر القيل والقال في مخالفتهم للدين، وتوسعهم في اقتناء الدّور والحطام.. [كما وإن السيدة عائشة] كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال»[١].

بينما عالج الإمام تلك المسألة مبدئياً، فعزل تلك الفئة النفعية من الحاشية والولاة والقادة من المواقع الادارية من البداية، وقد اندسّ بعض الولاة المعزولين داخل جيشه، بعد اظهارهم الطاعة وإضمارهم العصيان بانتظار أداء الدور المصلحي في مناخ مناسب، أمثال الأشعث بن قيس[٢]، بينما واجه الإمام جماعة الخوارج بالنصح والإرشاد، وقد نجح في التأثير على معظمهم، وما كان أمام المعاندين إلّا السيف «وكفى به شافياً من الباطل، وناصراً للحق»[٣].

---

(١) العقّاد، عباس محمود: عائشة الصّديقة بنت الصّديق، من موسوعة العقّاد الإسلامية، مج٤، الكتاب الثالث، ص٦٧و٧٢.

(٢) فقد عزله الإمام من ولاية أذربيجان، وأراد إلحاقه بمعاوية، فأشير عليه بالذهاب إلى الإمام، فقدم «منابذاً في سرّه، مشايعاً في ظاهره». الصغير، د.محمد حسين: الإمام علي عليه السلام سيرته وقيادته، ص٣١٢.

(٣) باب الخطب، رقم ٢٢، مقطع (التهديد بالحرب).

إثارة الفتنة بين الاغراءات الدنيوية والنفوس الشريرة:

من المؤكد أنّ النفوس التوّاقة لإشعال نار الفتنة، تكون خلاياها الشريرة نائمة ضمن أجواءٍ هادئة، لكنها تترقب ساعة الانتباه، وذلك حينما يُثيرها منبّه الاغراءات الدنيوية، والاطماع المالية والسلطوية ولو على مستوى المواعيد المستقبلية، فعمرو بن العاص أخذ يعيش أحلام ولايته على مصر، بعد أن عقد صفقته الدنيوية التي تحدثنا عنها مع معاوية قبل معركة صفين، وهو نموذج واضح للمحرّضين ضد الخليفة عثمان في حياته، الذين انقلبوا بعد مقتله، وانضموا إلى معاوية مطالبين بدمه!!. وكذلك تثيرها -أيضاً - إشكاليات فكرية نتيجة قراءات مغلوطة للاسلام، بشكل أناني مقيت، كما اعتقد رجال الخوارج، فهُمُ الإسلام والإسلام هم، وغيرهم كافرون!! والحالتان برزتا في تلك المرحلة من خلافة الإمام عليه السلام، فالخوارج بنظرتهم الظّلامية، وانتهاجهم العنف الدموي ضد مخالفيهم، ظهروا إلى جانب الفئة النفعية من ذوي الاطماع، الذين تفتّحت شهيتهم على دنيا معاوية، وحسبوها جنتهم الموعودة!، وهم في الحقيقة اصبحوا يتناغمون مع الطامعين الواقفين في صف معاوية بشكلٍ صريح. ولعلّ هذه الظاهرة الحسّاسة هي عين الابتلاء للانسان المسلم، هل يتجاوزها انتصاراً للاسلام والحق؟ أو يسقط صريعاً تحت وطأة حبّ الدنيا الذي يعمي بصيرة القلوب. وبعد هذا التوضيح نتساءل: هل يمكن اعتبار هؤلاء المشبوهين، هم أنفسهم أثاروا الفتنة على الخليفة عثمان، وقتلوه، ثم اندسوا في جيش الإمام، وخرجوا عليه وقتلوه فيما بعد؟

الحقيقة - في اعتقادي - إن الفتن تتنوّع على ضوء ظروفها الموضوعية وتوجهاتها الفكرية، وأهداف المثيرين لها، وبالرغم من

الاشتراك اللفظي فيما بينها، وتداخلها في بعض الظروف والأهداف، إلا أنه حينما نفكّك الأحداث ونعيدها إلى مسارها الطبيعي، يتميز أمامنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ونتخلص من ظاهرة تسطيح الرؤية للأحداث وعملية خلط الأوراق، «فالذين باشروا قتل عثمان قُتلوا يوم قُتل عثمان، في دار عثمان، والذين كان معاوية يطالبهم بدم عثمان لم يباشروا القتل، وإنما أكثروا السّواد، وحصَروا عثمان في الدار.. كل هؤلاء لا يجب عليهم القصاص في الشرع..»[1]. بينما معاوية - المعزول عن ولايته - رفع قميص عثمان لأسباب سياسية، تتلخص بمحاولته في البقاء بالسلطة، وتحدّي الظروف الجديدة بأية وسيلة كانت، فسار إلى معركة صفين، وفي نهايتها رفع المصاحف -حيلة- ليفلت من الضربة القاضية التي كادت أن تقضي عليه مع بقية جيشه.

إن هذه الوقائع التاريخية لا يمكن عزلها عن ظروفها الخاصة، وإفرازاتها المرحلية ومعطياتها السياسية أيضاً، من هنا نلمس الفرق بوضوح بين بطانة وساسة وولاة أثاروا المسلمين ضد الخليفة عثمان، لسوء إدارتهم، فضجّ المسلمون مطالبين بالاصلاح، فاستغل مثيروا الفتنة هذه الحالة العامة، وأقدموا على قتل الخليفة، مما جعل الإمام أن يتعامل بحزم وقوة ضد تلك البطانة النفعية التي هي سبب تلك الأحداث، فعزلَ الولاة -خصوصاً- المستقوين بالمال والمكر والخداع، من البداية - كمعاوية- ليتم انتشالهم من جذورهم، وإنقاذ البلاد والعباد من شرّهم. وبين المتضررين من سياسة الإمام، والمتعاونين مع ذوي الأطماع السياسية والاقتصادية الذين أثاروا الفتن

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٧، ج١٤، ص٢٤٤.

وشنوا الحروب لصالح مشروعهم المصلحي. وبالفعل سعى المتضررون بكل جهدهم وإمكانياتهم لكسب المؤيدين لهم في معركتهم ضد دولة الخلافة، بتوزيع الأموال والمناصب المستقبلية في الإدارة، وكذلك بتنظيم غارات عسكرية للاعتداء على أطراف البلاد، بهدف إثارة القلاقل وزعزعة الأمن - كما مرّ معنا- سعياً منهم لعرقلة المسيرة الاصلاحية التي انتهجها الإمام عليه السلام في عهده. ومن هنا قدّم الخوارج خدمة مجّانية لمعاوية وأعوانه بأعمالهم التخريبيّة والعدوانية التي اشغلت دولة الخلافة وأثقلتها بالأزمات الداخلية، كما وأخّرت المواجهة العسكرية ضد معاوية - مرّةً أخرى- حيث جرّوا دولة الخلافة إلى حرب فرضوها عليها، في النهروان.وهكذا حيكت المؤامرة على دولة الخلافة هذه المرة من الداخل، لتشغل الإمام الخليفة عن العدو المتربص بها في الشام، و«صحيح أن الخوارج أدانوا بعد التحكيم عليّاً ومعاوية، والضالعين معهما في هذا الأمر، إلّا أن حركتهم الموجهة في الصميم ضد الخليفة، كانت تصبُّ عمليًّا في مصلحة خصمه»[1]. والسؤال المطروح هنا: لماذا استوعب الإمام هذا الخليط غير الدقيق من الناس، وزجّهم في الحروب، وهو يعلم أنّهم كالقنابل الموقوتة في طريق الجهاد؟

في الحقيقة أنّ الإمام في حركته الاصلاحية الشاملة، أبقى الباب مفتوحاً أمام الجميع، للدخول في خضم العملية الاصلاحية، ومن المعلوم ان الأمة هي البحر الذي يسبح فيه المصلحون، وفي

(١) بيضون، الدكتور إبراهيم: الإمام علي في رؤية النهج ورواية التاريخ، ص ٩٠.

تقديري ان الإمام زجّ هؤلاء في ميدان الجهاد سعياً منه لتدعيم وعيهم الإسلامي، إلّا انه لم تخلُ المسألة من مغامرة بحدّيْها الايجابي والسلبي، لا يقتحمها إلّا صاحب النفس الكبيرة بمشروعه الكبير. لذلك لم يتخلص جيش الخلافة من المتراجعين والانتهازيين. يقول الأستاذ العقاد: «كان في الجيش أُناس يخونون عهده، ويشغبون عليه، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخَّرون لعدوّه، كارهون لانتصاره.. فإن لم يكونوا كذلك، فالأمر الذي لا شك فيه، أنّهم كانوا يعملون وهم عامدون -أو غير عامدين - شرّ ما يعمله الخائن الخبيث الذي يتحيّن الفرص للعناد والشقاق وإفشاء الخلل والخذلان في أحرج الأوقات»[١]. ومع كل ذلك استمرّ الإمام عليه السلام في منهجه التربوي، يحرّض الناس على مواصلة الجهاد، ويحذرهم من خوض المنازعات والتفرقة، في المواطن الجهادية الثلاثة - يوم الجمل وصفين والنهروان - وممّا يذكره المؤرخون، قوله عليه السلام لأصحابه: «عباد الله، اتقوا الله ﷻ، وغُضوا الأبصار، واخفضوا الأصوات، وأقلّوا الكلام، ووطّنوا أنفسكم على المنازلة والمجاوَلة، والمبارزة.. ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، اللهم ألْهِمْهُمُ الصبر، وأنزل عليهم النصر، وأعظم لهم الأجر»[٢].

ولكن وبالرغم من هذه التوجيهات التربوية المكثفة، ظهرت

---

(١) العقاد، عباس محمود: عبقرية الإمام علي، من موسوعة العقاد الإسلامية، مج٣، الكتاب الثاني، ص٧٩-٨٠.

(٢) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٢٠٤. والآية المباركة من سورة الأنفال ٨/ ٤٦. والطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ٤/ ٧.

بوادر تلك الاستعدادت النفسية المنحرفة، وغير القابلة للدخول في العملية الإصلاحية وإطاعة ولي الأمر. فاتخذت لنفسها أسلوباً خاصاً في مواجهة التحديات، بما تمليه على أنفسهم تلك الترسبات التاريخية والخلفيات الثقافية. وإلى جانب هذه الطبقة برزت استعدادت أُخرى تعيش تراكمات مزدوجة، استطاعت أن تجمع حولها شعبيّة عامة داخل جيش دولة الخلافة، ضمن منطلقات الروح القبلية، والعصبيّة الجاهلية، إلى جانب القدرة على الاستفادة من الإسلام لمصالحها الخاصة. هذه الطبقة احتلت موقعاً مهماً في الأحداث السياسية، إلى مستوى الصدارة أحياناً، فملأت مساحة من الفراغات القيادية، لا بكفاءاتها وإنما بضغوط الأحاسيس الإقليمية والقبلية، وذلك بعد أن نالت الصفوة القيادية المجاهدة في جيش الإمام، شرف الشهادة في سبيل الله، أمثال: عمار بن ياسر وغيره، فأصبح الدرب سالكاً أمام رؤساء القبائل وأعيان الناس، من الذين لم يستوعبوا دروس التربية الجهادية من الإمام عليه السلام بالشكل المطلوب، ليتبوّؤا المواقع المهمة، فكان فيهم «ممّن استهواهم معاوية بالمال والوعود. وكان في طليعتهم الأشعث بن قيس الكندي..، فكان هؤلاء يريدون الموادعة، ولا يريدون نصراً لعلي عليه السلام، يسير بعده بسيرة النبي صلى الله عليه وآله»[1]. يقول الأستاذ العقاد: «وأيّا كانت العلة الخفيّة، فقد صنع الرجل [الأشعث بن قيس كبير سادات كنده] غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخذلان الحزب الذي هو فيه»[2].

---

(١) الصغير، الدكتور محمد حسين: الإمام علي عليه السلام سيرته وقيادته..، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٢) العقاد، عباس محمود: عبقرية الإمام علي، من موسوعة العقاد الإسلامية، مج٣، الكتاب الثاني، ص٨٢.

وهكذا، تحت وطأة رفع المصاحف هبّ الكثيرون من عموم جيش الإمام يطالبوه بإيقاف الحرب، والرضا بحكم القرآن، وازدادت الضغوط حتى لم يتركوا للإمام فرصة اختيار من يمثله في التحكيم، بل استكره في كتابة صحيفة التحكيم في حينها! حيث «اشرأبّت العصبية القبلية بعنقها المهزوز لتفرض أبا موسى الأشعري ممثلاً عنه في هذه المحنة، وأبو موسى هو صاحبه بالأمس الذي خذّل عنه الكوفيين»(١). وقد حاول الإمام عليه السلام تخفيف انبهارهم بالمصاحف المرفوعة على الرماح، ومصحف دمشق الأعظم على خمسة أرماح يحملها خمسة رجال، وبالشعارات البراقة، قائلاً لهم: «عباد الله، أنا أحرى من أُجاب إلى كتاب الله، وكذلك أنتم، غير أنّ القوم ليس يريدون بذلك إلّا المكر، وقد عضّتهم الحرب، والله لقد رفعوها وما رأيهم العمل بها، وليس يسعني مع ذلك أن أُدْعى إلى كتاب الله فأبى، وكيف وإنما قاتلتهم ليدينوا بحكمه»(٢).

وفي اختيار الأشعري قال عليه السلام: «ألا وإنّ القومَ اختاروا لأنفسهم أقربَ القوم ممّا يحبّون، وإنّكم اخترتمْ لأنفسكم أقربَ القوم ممّا تكرهون، وإنّما عهْدُكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول: «إنّها فتنةٌ فقطّعوا أوتاركم وشيموا سيوفكم»، فإنْ كان صادقاً فقد أخْطأ بمسيره غير مستكرَهٍ، وإن كان كاذباً فقد لزمتْهُ التُّهْمَة. فادفعوا في صدر عَمْرو ابن العاص بعبد الله بن العبّاس، وخذوا مَهَلَ الأيام، وحوطوا قواصي الإسلام..»(٣). فقد اختار جيش معاوية عمرو بن العاص المعروف

---

(١) الصغير، د.محمد حسين: المرجع ذاته، ص٢٩١-٢٩٢.

(٢) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص١٨٩-١٩٠.

(٣) باب الخطب، رقم ٢٣٨. شيموا سيوفكم: أي اغمدوها، ولا تقاتلوا. وخذوا مهل =

بمكره وخداعه، والشيء الذي يحبونه فيه أن يحقّق لهم الغلبة في الحوار السياسي مع ممثل جيش الإمام. بينما اختار عموم جيش الإمام من سيصلهم إلى ما يكرهونه وهو الخذلان والخيبة، وهو عبد الله بن قيس، أبو موسى الاشعري، الذي كان والياً على الكوفة إبان معركة الجمل، وقد خذّل الناس من الالتحاق بجيش الإمام معتبراً تلك الحرب فتنة فدعا إلى تجنبها. وفي قوله عليه السلام: «فإن كان صادقاً فقد أخطا بمسيره غير مستكرَه، وإنْ كان كاذباً فقد لزمتْهُ التّهمة»، يقول الشارح المعتزلي: «فإن كان صادقاً فما باله سار إليّ، وصار معي في الصف، وحضر حرب صفين، وكثّر سواد أهل العراق وإن لم يحارب.. وإن كان كاذباً فيما رواه من خبر الفتنة فقد لزمته التهمة وقُبّح الاختلاف إليه في الحكومة»[1]. وكلام الإمام في الحقيقة، هو احتجاج على اختيارهم للأشعري، فهو على تقدير صدْقه، لماذا غيّر مسيره وحضر المعركة التي اعتبرها فتنة وُعد بها؟ وإنْ كان كاذباً ثَبَتَ عليه الفسق، فلا ينبغي الاعتماد عليه في هذا الأمر المهم. ولكن «جازت الحيلة على كثير من أصحاب علي، وعلى أهل اليمن منهم خاصة.. أبوا إلّا قبول الهدنة، وأنذروا عليّاً، فاضطر كارهاً إلى الإذعان لرأي الكثرة.. وفرضت على عليّ أن يقبل اختيار أبي موسى الأشعري حَكَماً»[2]. فكتب للإمام عليه السلام كتاباً من محلّ الاجتماع بابن

= الأيام: أي اغتنموا سعة الوقت في فسحة الأيام. قواصي الإسلام: ما بَعُد من الأطراف والنواحي، وحوطوا قواصي الإسلام: أي احفظوها من غارة أهل الفتنة عليها، واجعلوا كلّ قاصية لكم لا عليكم. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٥٨٠.

(١) ابن ابي الحديد المعتزلي، عزّالدين: شرح نهج البلاغة، مج ٧، ج١٣، ص ٢١٣.

(٢) حسين، طه: مرآة الإسلام، ص٣٢٨-٣٢٩.

العاص: فأجابه الإمام ناصحاً ومحذراً، وممّا قال عليه السلام له: «فإنّ الناس قد تغيّر كثيرٌ منهم عن كثيرٍ من حظّهم، فمالوا مع الدنيا، ونطقوا بالهوى.. وليسَ رَجُلٌ -فاعْلم- أحرص على جماعة أُمة محمد صلى الله عليه وآله وسلّم وأُلفتها منّي، أبتغي بذلك حُسْنَ الثواب.. فإنّ الشقي من حُرم نفعَ ما أوتي من العقل، والتجربة، وإني لأَعْبَدُ أنْ يقولَ قائلٌ بباطلٍ، وأنْ أُفسِدَ أمراً قد أصلحه الله. فدع ما لا تعرفُ، فإنّ شرار الناس طائرون إليك بأقاويل السوء»[١].

«أي أن كثيراً من الناس قد انقلبوا عن حظوظهم الحقيقية، وهي حظوظ السعادة الأبدية بنصرة الحق.. «وإني لأَعْبدُ أن يقول قائلٌ بباطل»، أن يغضبني قول الباطل وإفسادي لأمر الخلافة الذي أصلحه الله بالبيعة»[٢]. وكأنه يقول: «انا أكره الباطل من غيري، فكيف أفعله ولا أنكره من نفسي؟.. إذا أنت أخلصت لله، وتوخيت صلاح المسلمين - يا أبا موسى - فأنا أول المقرّين لعملك.. المراد بشرار الناس هنا ابن العاص واضرابه، والمعنى ان هؤلاء يوسوسون في صدرك بالأكاذيب والأضاليل فاحذرهم»[٣].

ومع كل ذلك، فإن الأمر الذي يثير الاستغراب في التحكيم، هو أنّ الحكمَيْن قد سَدَلا الستار - تماماً - عن أسباب المعركة، وامتنعا عن

---

(١) باب الرسائل، رقم ٧٨. وإني لأعْبَدُ: أي آنَفُ، فهو من عَبِد يَعْبَدُ، كغضِبَ يغْضَبُ، عَبَداً، والمراد: إني لآنفُ من أن يقول غيري قولاً باطلاً، فكيف لا آنف أنا ذلك من نفسي. الصالح، د.صبحي: نهج البلاغة، فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة، ص٧١٠، رقم ٤٤٢٦.

(٢) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٣٦-١٣٧.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص٢٠٥-٢٠٦.

تشخيص المسبّب لها، لتحميله مسؤولية إراقة الدماء، وَلم يبحثا مسألة المطالبة بدم عثمان، وسبب عدم بيعة معاوية لعلي بالخلافة، ومن هو السبّاق في إعلان الحرب، والساعي للفتنة والفساد والعبث في حقوق الأمة. بينما أظهرت مهزلة التحكيم أنواعاً من المكر والخداع في ممارسات ابن العاص ومن ورائه معاوية، كلّفت الأمة الإسلامية ضرائب باهضة هدرت فيها الطاقات والأنفس، ذهب ضحيتها مشروع الإسلام السياسي والجهادي، الذي خسرت بركاته البشرية برمّتها.

أما الخوارج الذين اعتزلوا الفريقين، وتمركزوا في حروراء، فأخذوا يفكرون في غرفٍ ضيقة في اتجاهات سوداويّة - سنعرض لها فيما بعد - للخروج من أزمتهم الحادة.

هذا، وعندما انتهى التحكيم، بنتيجة واضحة في رفض حكم القرآن الذي رفعوه مكراً وخديعة على الرماح، حينذاك استعاد الناس وعيهم، فمالوا إلى الإمام نادمين، معتذرين، وفي الوقت ذاته أعلنوا استعدادهم لجهاد عدوّهم الماكر، استكمالاً لحرب صفين، فخطب فيهم قائلاً: «أما بعدُ، فإنّ معصية الناصح الشفيق العالِم المجرّب تورثُ الحَسْرة، وتُعقِبُ الندامة، وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلْتُ لكم مخزونَ رأيي، لو كان يُطاعُ لقصيرٍ أمرٌ! فأبيتمْ عليّ إباء المخالفين الجُفاة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب الناصحُ بنُصحه، وضَنّ الزّنْدُ بقَدْحه، فكنت أنا وإياكم كما قال أخو هوازن: [الطويل]

«أمرتُكُمُ أمري بمنعرجِ اللّوى فلم تستبينوا إلّا ضُحى الغَد»[1]

(١) باب الخطب، رقم٣٥. الشاعر هو دريد بن الصّمة من قبيلة هوازن. ومنعرج اللّوى: =

إنّ الإمام عليه السلام في طريقته الحكيمة سعى لاستيعاب صدمتهم المتوقعة على ما اختاروه لأنفسهم، مخالفين بذلك نصحه وهو الشفيق بحالهم، ولديه علم تجريبي بالأحداث، يشخص الأمور عن دراية. حقاً إنها المعصية التي تصدم المرتكب لها بالحيرة والندامة والحسرة. وكان الإمام قد أمرهم بوضوح في مسألة الحكميْن، وقوله عليه السلام: «ونخلتُ»، «أي أخلصتُ، تشبيهٌ لما ينخل من الدقيق ونحوه لأن يظهر خالصه، «لكم مخزون رأيي» أي الرأي الحصيف الذي كان مخزوناً في صدري»[1]، «لو كان يطاع لقصير أمر»، وقصير اسم رجل و«هو مولى جذيمة المعروف بالأبرش، وكان حاذقاً، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن للزباء، ملكة الجزيرة [الذي قتل أباها]. فخالفه، وقصدها إجابة لدعوتها إلى زواجه فقتلته، فقال قصير: «لا يطاع لقصير أمر» فذهب مثلاً»[2].

وقوله عليه السلام: «فأبَيْتُمْ عليّ إباء المخالفين»، «أي كأنكم مخالفون لي أعداء معي، لا كأنكم أنصاري وأصحابي. . . «حتى ارتاب الناصح بنصحه» يعني ان مخالفتهم كانت بحيث شك الناصح في انّ نصيحته هل هي صحيحة أم لا؟ وهذا كناية عن شدة مخالفتهم - لا أنه عليه السلام شك في صحة نصيحته. . «وضَنّ» أي بخل «الزند» وهو الحجر الذي

= اسم مكان. وللوقوف على قصة هذه القصيدة، راجع التستري، الشيخ محمد تقي: بهج الصباغة. . مج١٠، ص٣٣٤-٣٣٦.

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٢٠١.

(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٠٧. للاطلاع على قصة هذا المثل بالتفصيل راجع، التستري، الشيخ محمد تقي: بهج الصباغة. .، مج١٠، ص٣٢٨-٣٣٣.

يصك بآخر فيخرج منه النار «بقدحه» أي بإخراجه النار، وهذا كناية عن إمساكه عليه السلام بآرائه المصيبة المضيئة النافعة، فإن الإنسان إذا رأى عصيان الناس لرأيه لا يُظهر آراءه ضنّاً بها أن تذهب سدى»[١].

وهنا استثمر الإمام حالة الحسرة والندامة لديهم ليحولها إلى طاقة جهادية فاعلة، فتوجّهوا - بالفعل- نحو الاستعدادات الحربية من جديد، إلّا أن التصعيد العدواني الذي انتهجه الخوارج عرقل المسيرة الجهادية نحو حرب معاوية. وهنا تأتي المعالجة الجذرية للإمام لهذه التنوءات السرطانية، التي ظهرت في جسم الأمة، وهي جماعة الخوارج، بعد محاولات الإمام العديدة، لغرض إصلاح أمرهم وإعادتهم إلى سبيل الرشاد، وذلك ضمن الأساليب التربوية التي اتبعها الإمام معهم، وهي بحق دروس رفيعة المستوى بكل خطواتها تزوّد المرشدين بالرؤى المطلوبة، وسنرى آثارها الآنية في ثنايا البحث بتطور الأحداث. وهذا ما سنتناوله ضمن المحاور التالية:

١• أهم مرتكزات الإمام في التعامل مع المعارضة.

٢• الحوار الفكري والسياسي مع الخوارج، وأثره عليهم.

٣• التوجيه التربوي، وفتح آفاق الجهاد أمامهم مجدّداً.

• أهم مرتكزات الإمام في التعامل مع المعارضة:

لقد امتازت نقاط الارتكاز في تعامل الإمام بتمحورها المبدئي ضمن منهجيته التربوية المستندة على أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ألم يقل في التحكيم: «..ولما دعانا القومُ إلى أنْ

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٢٠١-٢٠٢.

نُحكّمَ بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولّي عن كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد قال الله سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، فردُّهُ إلى الله أن نحكمَ بكتابه، وردُّهُ إلى الرسول أنْ نأخذَ بسُنّته، فإذا حُكمَ بالصّدق في كتاب الله، فنحنُ أحقّ الناس به، وإنْ حُكم بسُنّة رسول الله ﷺ، فنحن أحقّ الناس وأوْلاهم بها..»[1]. هكذا عالج أزمة الخوارج المعارضين للتحكيم، بكل شفافية ووضوح، بالرغم من أنهم عارضوا وبقوة استمرار القتال في بداية رفع المصاحف -كما مرّ معنا- ومع ذلك ترك الإمام عليه السلام لهم مساحة الاختيار لمواقفهم، من دون جبر أو إكراه، في قبول حكومته ومشروعه الجهادي، وسمح لهم بممارسة قناعاتهم في معارضة الدولة، وذلك في حدود الحركة السياسية والإعلامية ضمن المعترك العام، وبما يحتويه هذا التحرك من النقد والاعتراض والمواجهات الكلامية حتى مع الإمام نفسه وهو على المنبر، كقولهم له: «جزعت من البلية، ورضيت بالقضية، وقبلت بالدنيّة، لا حكم إلا لله، فيقول حُكمَ الله أنتظر فيكم..»[2].

ولقد سعى الإمام على فتح باب الحوار معهم، ودعاهم للدخول في المناظرات والمناقشات وإثارة الشبهات، والاستماع للردود وتحكيم الوعي والانصاف، وسجّل لنا التاريخ صفحات مشرقة في هذا الجانب- سنذكر منها فيما بعد - لكي لا يصبح الجدل للجدل كغاية عقيمة، وإنما ليكون وسيلة للتوصل إلى الأهداف الإسلامية المرجوة في بلوغ سبل الهدى والصلاح، قال الإمام عليه السلام لعبد الله

(١) باب الخطب، رقم ١٢٥. الآية الكريمة من سورة النساء ٤/ ٥٩.

(٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٤٠٦.

ابن العباس، لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّالٌ ذو وجوهٍ، تقولُ ويقولون، ولكن حاججهُمْ بالسّنة، فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً»[١]. وهدفه عليه السلام من هذا النهي، لكي لا تتحول المحاججة إلى شتات فكري تضيع معه الجهود، من دون نيل الهدف المنشود، فإن الآيات المباركة «لها ظاهر وتأويلات محتملة، يمكنهم أن يتعلّقوا بها عند المجادلة.. فلا يتم الغرض به في مخاصمتهم»[٢].

فمثلاً لتفسير قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٣]، سيفسّر كل طرف ولي الأمر بما يراه، بينما قول الرسول صلى الله عليه وآله: «علي مع الحق والحق مع علي، والحق يدور حيثما دارَ علي»[٤]، واضح الدلالة في القصد والحصر.

---

(١) باب الرسائل، رقم ٧٧. محيصاً: أي خلاصاً ومهرباً. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج٢، الربع الرابع، حرف الميم، مادة (م ح ص)، ص١٧٥.

(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٢٣٤.

(٣) سورة النساء، ٤/ ٥٩.

(٤) المجلسي، العلّامة الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار، ج٣٨، باب ٥٧، ضمن أحاديث رقم١، ص٢٩. ورواه سعد بن أبي وقاص بإضافة «لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». الاستغاثة لأبي القاسم الكوفي ج٢، ص٦٣، ويجعله الشيخ المفيد في المسائل الصاغانية من الثوابت، ص١٠٩. وفي مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ٢٣٥-٢٣٦ بهذا اللفظ «علي مع الحق والحق مع علي حيث كان». عن سعد في بيت أم سلمة وشهدت أم سلمة بصحته. رواه البزار وقال: فيه سعد بن شعيب لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح. وفي شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي ٢/ ٦٠/ ٤٢١ عن عائشة.

وقد ذكر الطوسي في أماليه، أنه حينما تلا رسول الله ﷺ، الآية المباركة: ﴿فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، سئل عن أصحاب النار، فأجابهم ﷺ، ثم دعا علياً عليه السلام، فقال: «.. يا علي حربُك حربي، وسِلْمك سِلْمي، وأنت العلَم فيما بيني وبين أُمتي بعدي»[(١)].

توجيه الشعار المركزي للخوارج:

لقد رفعوا شعار: «لا حكم إلّا لله»، واصبح بمثابة اللافتة العريضة التي تتصدر رؤيتهم للأحداث ومشروعهم السياسي، وقد استهوى كثيراً من الناس ممّن هزّتهم عواصف الشك، وسلبتهم القدرة على الثبات إثر صدمتهم بنهاية وقعة صفين.

إن توجيه الإمام لشعارهم هذا، هو من أبرز مرتكزاته السياسية في معالجة أزمة الخوارج، حيث أفرغ شعارهم من محتواه، وحصره في زاوية الاستعراض الباهت، حيث قال عليه السلام: «كلمة حقّ يُراد بها باطل! نعم إنه لا حُكمَ إلّا لله. ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرةَ إلّا لله، وإنّه لا بُدّ للناس من أميرٍ برّ أو فاجرٍ يعمل في إمْرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلّغُ اللهُ فيها الأجل، ويُجْمَعُ به الفيءُ، ويقاتلُ به العدوّ، وتأمنُ به السُبُل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى

---

(١) الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن: أمالي الطوسي، ص٣٦٤، رقم ٧٦٣/ ١٤، المجلس الثالث عشر، عن الإمام الرضا عن آبائه عن علي، راجع ص٥٥٢، هامش رقم (٥). وتمام الحديث أن النبي ﷺ تلا هذه الآية الكريمة. قيل يا رسول الله: من أصحاب النار؟ قال: «من قاتل علياً بعدي - أولئك هم أصحاب النار مع الكفار، فقد كفروا بالحق لما جاءهم، ألا وإن علياً مني فمن حاربه فقد حاربني وأسخط ربي، ثم دعا علياً فقال: «يا علي حربك حربي وسلمك سلمي..». والآية الكريمة من سورة البقرة ٢/ ٢٧٥.

يستريحَ برٌّ، ويُستراحَ من فاجر»[١]. إن ظاهر قولهم حق ولكن يقصدون منه الباطل، بمعنى ان الحكم لله الخالق المشرّع، وحده دون سواه كلمة حق، أما نفي الحاكم وهو مرادهم فهذا باطل، لأن «الحكم غير الحاكم، فالكليّ صحيح والتطبيق باطل»[٢]. يقول الشيخ محمد عبده في شرحه لكلام الإمام عليه السلام بأنه «برهان على بطلان زعمهم، أنه لا إمرة إلّا لله بأن البداهة قاضية أن الناس لا بد لهم من أمير برّ أو فاجر حتى تستقيم أمورهم، وولاية الفاجر لا تمنع المؤمن من عمله لإحراز دينه ودنياه، وفيها يستمتع الكافر حتى يوافيه الأجل، ويبلغ الله فيها الأمور آجالها المحدودة لها بنظام الخلقة وتجري سائر المصالح المذكورة»[٣].

وفي الرواية عن أبي مخنف، عن ابن ابي جرّة الحنفي، تكملة لكلام الإمام عليه السلام فقد قال: «فإنْ سكتوا تركناهم.. وإن تكلّموا حججناهم، وإن خرجوا علينا قاتلناهم»[٤]. وبذلك يحدّد الإمام الخطوط العريضة لسياسته معهم.

الحقوق الإسلامية العامة وضمان الإلتزام بالعهود:

إن الإمام عليه السلام لم يمنع أحداً من الكلام والتجمهر وإعلان المعارضة السياسية السلميّة، ما لم تتوسل هذه الجماعات باستخدام السلاح ولغة العنف، وإباحة دماء المسلمين والاعتداء على حقوقهم،

---

(١) باب الخطب، رقم ٤٠.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٢١٦.

(٣) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٩١.

(٤) التستري، الشيخ محمد تقي: بهج الصباغة، مج١٠، ص٣٩٩.

فالعنف خطٌّ أحمر لا يمكن التساهل مع متجاوزيه، لأنه سيحوّل الساحة إلى فوضى واضطرابات وخرق للقوانين، فإن لم تقف الدولة بحزم وشدة أمام هذه الظاهرة، فسيُفتقد الأمن وتهدّد المصالح العامة. وعليه قال الإمام عليه السلام: «. . لهم علينا ثلاث: أن لا نمنعهم المساجد أن يذكروا الله فيها، وأن لا نمنعهم الفيء ما دامت أيديهم في أيدينا، وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلونا»[١]. وهدف الإمام هو «أن يحفظ الأمن، وان يربي الناس، ويعلمهم، ويهديهم سبيل الرشاد، والسداد، وأن يحكم فيهم بحكم الله سبحانه، ويفقههم في الدين.

إنه لا يريد أن يخاف الناس منه، بل يريدهم أن يخافوا الله سبحانه، ولا يريد منهم مراعاة خواطره، والتأقلم مع مزاجه، بل يريدهم أن يراعوا التوجيه الإلهي، والحكم الشرعي، وأن يحفظ دينهم وأنفسهم»[٢]. لذلك «حينما طلب الحروريّة منه نقض العهد، ورفض التحكيم، والخروج مجدّداً إلى صفين، قال لهم علي عليه السلام: هذا حيث بعثنا الحكميْن! وأخذنا منهم العهد، وأعطيناهموه؟ هلّا قلتم هذا قبل؟!

قالوا: «كنّا قد طالت الحرب علينا، واشتد البأس، وكثر الجراح. . فقال لهم: أفحين اشتدّ البأس عليكم عاهدتم، فلما وجدتم الجمام قلتم: ننقض العهد؟! إنّ رسولَ الله كان يفي للمشركين، أفتأمرونني بنقضه»[٣].

---

(١) المتقي الهندي، العلّامة علاء الدين: كنز العمال، ج١١، ص٣٠٠، رقم الحديث ٣١٥٦٩.

(٢) العاملي، السيد جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج١، ص١٤٥.

(٣) المرجع ذاته، ج١، ص٧٤. الجمام: الاستراحة وجمّ جُموماً القوم: استراحوا. =

وضوحه في بيان مصيرهم المنتظر:

فقد قال لهم: «فأنا نذيرٌ لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بيّنةٍ من ربكم، ولا سلطانٍ مبينٍ معكم..»[١]. وكان الإمام جدّياً في تحديد المصير البائس الذي ينتظرهم، إن صعّدوا عنادهم وبدأوا القتال. فقد شخّص المكان الذي سيصرعون فيه، وذلك في أطراف النهر، قرب الكوفة عند حروراء، «وبأهضام هذا الغائط»، أي في السهول المنخفضة في هذا الوادي، والغائط ما سفل من الأرض، وقد صدق الإمام في نبوءته وفراسته فقد قتلوا في المكان الذي أشار إليه[٢]. هذا وكان عليه السلام أكثر وضوحاً معهم حينما عزم على حربهم، وقد قيل له: إن القوم عبروا جسرَ النهروان! فقال عليه السلام: «مصارعهم دونَ النطفة، والله لا يُفْلِتُ منهُمْ عشرةٌ، ولا يَهْلك منكم عَشَرَةٌ»[٣]. وبالفعل لم يَسْلم منهم غير تسعة أشخاص، فرّوا وتوزعوا في البلدان، يذكرهم الشيخ الشبلنجي ويقول: «..لم يسلم من الخوارج المارقين غير هذه التسعة، وهذه كرامة من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فإنه قال قبل ذلك..»[٤].

= معلوف، لويس: المنجد في اللغة، حرف الجيم، ص١٠٠.

(١) باب الخطب، رقم ٣٦. الأهضام، جمع هضم: وهو المطمئن من الوادي. والغائط: ما سفل من الأرض. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٠٨.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٣) باب الخطب، رقم ٥٩. قال الشريف الرضي -بعد ذكر الخطبة -: (يعني بالنطفة ماء النهر، وهي أفصح كناية عن الماء وإن كان كثيراً جماً). الصالح، د.صبحي: نهج البلاغة، ص٩٣، بعد ذكر الخطبة رقم ٥٩.

(٤) الشبلنجي، الشيخ مؤمن بن حسن: نور الأبصار، ص١١٣.

● **الحوار الفكري والسياسي مع الخوارج، وأثره عليهم:**

بينما أخذت فئة الخوارج بتسويق دعوتها للناس، واثارتهم ضد مواقف الإمام ودولة الخلافة، كان الإمام يعالج أزمتهم بالحوار، كأساس شرعي في منهجيته التربوية، فبعث إليهم أكثر من مبعوث ليحاورهم ويحاججهم في سبيل الاصلاح والعودة إلى الهدى، منهم: البراء بن عازب الذي بقي عندهم ثلاثة أيام يدعوهم فيها إلى الاستقامة والعودة إلى بيت الطاعة، وكذلك بعث صعصعة وابن عباس وقيس بن سعد وغيرهم من الصحابة الكرام[١]. وقد حفلت صفحات التاريخ بنصوص كثيرة عن الاحتجاجات التي جرت بين الإمام عليه السلام وأصحابه، وبين الخوارج، حيث استمرت حوالي ستة أشهر، وقد استطاع ابن عباس أن يغيّر في آراء بعضهم، كما ودخل الإمام عليه السلام مباشرة في حوار رؤسائهم، رادّاً شبهاتهم، على ضوء القرآن الكريم والسنة المحمديّة الشريفة، فكان يفحمهم، ويقيم الحجّة عليهم، فهو القائل: «أنا حجيج المارقين، وخصيم الناكثين المُرْتابين..»[٢].

مواقف الإمام عليه السلام على خطى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

لقد اتخذ الإمام عليه السلام من سنة رسول الله صلى الله عليه وآله منطلقاً شرعياً لمواقفه، لذلك في حواره مع وجوه الخوارج، كان يستدل بها على كل خطوة خطاها في وقعة صفين، خصوصاً تلك الخطوات التي أثارت اشكالياتهم بعد رفع المصاحف، من موافقته على إيقاف القتال، وإلى عدم ضربهم بالسيف حينما عارضوه، وأهمها أنه عليه السلام

(١) العاملي، سيد جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج١ ص١٥٤-١٥٥.

(٢) باب الخطب، رقم ٧٢.

حكّم الرجال في دين الله، وتنازل عن إمرة المؤمنين في أثناء كتابة وثيقة التحكيم، وهكذا سائر اشكالياتهم على حركة الإمام ومواقفه. وبالنتيجة كانوا ينصاعون إلى توضيحاته سوى المعاندين وذوي المآرب الشخصية. للمثال اكتفي بالإشارة إلى ردّه عليه السلام لاشكاليتهم على وثيقة التحكيم، حيث أمر بحذف كلمة «أمير المؤمنين» من اسمه، واعتبروا ذلك إنه ضيّع الوصيّة بعد أن كان وصيّاً بالحق. ذكّرهم بما فَعَله الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في وثيقة الصلح مع المشركين، فقد أمر صلى الله عليه وآله بحذف كلمة (رسول الله) من اسمه، قائلاً: «فإن ذلك لا يضرّ نبوّتي شيئاً»، وذكّرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وختم قوله عليه السلام: «فاستنت برسول الله صلى الله عليه وآله: «قالوا: صدقت.. خصمْتنا وربّ الكعبة..»[1]. وفي حينها قال الإمام: «الله أكبر، سنّةٌ بسنة، أما والله لقد جرى على يدي نظير هذا يوم الحديبية، وامتناع قريش أن يكتب محمد رسول الله، قال النبي صلى الله عليه وآله للكاتب: «اكتب محمد بن عبد الله، فكتبوا»[2].

---

(١) العاملي، سيد جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج١، ص٢٨٣-٢٨٤. وللوقوف على صور من تلك المحاججات - وهي جديرة بالمطالعة - راجع: العاملي، المرجع ذاته، الفصل الثالث: من المناظرات والاحتجاجات، ص٢٦١-٣٠٠. وراجع تحت عنوان (علي عليه السلام يضيّع الوصيّة)، من المرجع ذاته، ص١٢٥ وما بعدها. وللاطلاع على بعض الاحتجاجات راجع: التستري، الشيخ محمد تقي: بهج الصباغة، مج١٠، ص٤١٩-٤٣٦. الآية الكريمة الأولى من سورة الحشر ٥٩/ ٧. والآية الكريمة الثانية من سورة الأحزاب ٣٣/ ٢١.

(٢) الدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص١٩٤. راجع نص وثيقة التحكيم مع أسماء الشهود الموقعين عليها والخلاف بعد التحكيم، ومداولة الحكمين، وإعلان =

ثمرة الاحتجاجات والمناظرات:

لقد ظهرت في ثلاثة اتجاهات: في الاتجاه الأول، على تربية أصحابه وتدريبهم على أسلوب الاحتجاج والحوار، لتثبيت قلوبهم، وطمأنتهم بمسيرتهم الجهادية، خصوصاً أولئك الذين تمّ زجّهم للحوار والجدال.

والاتجاه الثاني: في ردّ المعاندين وإظهار ضعفهم وهزيمتهم، وبالتالي كشفهم أمام قواعدهم، بأنهم معاندون لا يجيدون إلّا إثارة الفتن وإراقة الدماء، ولذلك انكفؤوا في الزاوية الضيقة، وظهر حجمهم الطبيعي أمام الأمة، حينما بانَ عجزهم واستسلامهم أمام الحجة البالغة.

والاتجاه الثالث: في التأثير على المضلّلين والمخدوعين في صفوفهم، لتكون هذه الاحتجاجات خشبة الإنقاذ لحياتهم ومصيرهم، وبالفعل أدّت تلك المناظرات والنصائح مفاعيلها في أغلبيتهم، فعادوا إلى رشدهم، فمنهم من اعتزل تماماً، ومنهم من عاد إلى جيش دولة الخلافة ليجاهد في ظل الشرعية، ويذكر المؤرخون أعداداً متفاوتة من الذين اصطدموا بالحقيقة وانتبهوا من غفلتهم، فمنهم من يَذكر بأنّ عددهم بلغ ستة وعشرين ألفاً، وبعد المحاججات تقلّص إلى أربعة آلاف[1]، أصروا على عنادهم، وتكفير الآخرين وبذلك اختاروا القتال.

= الحكم، في المرجع ذاته، ص١٩٤-٢٠٢.

(١) العاملي، المرجع نفسه، ج١، ص٢٧٢.

● **التوجيه التربوي، وفتح آفاق الجهاد مجدّداً:**

استوعب الإمام عليه السلام الحالة المضطربة في جيشه إثر رفع المصاحف، واستجاب لطلب التحكيم - على مضض - وعلى تمثيل الأشعري، - تحت وطأة الإلحاح - إلّا أنّه حدّد الحكميْن بأساسيات الإسلام المبيّنة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وفي حالة الخروج عنهما، لا يكون للتحكيم اعتبار شرعي ولا اثر واقعي، وبالفعل كانت هذه التحديدات الشرعية بمثابة الضمانة للموقف المبدئي، فقد ورد في وثيقة التحكيم قبل إجرائه: «..فإنْ هما [الأشعري وابن العاص] لم يحكما بما في كتاب الله وسنة نبيّه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهم الأول في الحرب..»[1]. ولما طلب بعض أصحاب الإمام رفض الوثيقة بعد التوقيع عليها، والعودة إلى الحرب - مثلاً - قال علي: «أبعد أن كتبناه ننقضه؟ هذا لا يجوز»[2]. وبهذه الطريقة في معالجة الأزمة جسّد الإمام روح الشريعة في توجيهاته التربوية الملتزمة، لتكون قدوةً لأصحابه، ومن يأتي من ورائهم من المؤمنين، ونموذجاً للاقتداء المطلوب في التعامل بالقضايا المصيرية.

وبالفعل حينما تأكد الإمام وسائر المؤمنين من ترك الرجليْن الحكميْن لحكم الله، عاد الإمام لوضعه الأول في الحرب كما نصّت الوثيقة. ويورد المسعودي في مروجه تكملة خطبة الإمام بعدما بلغه

---

(١) راجع النص الكامل للوثيقة عند الدينوري، ابو حنيفة أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص١٩٤-١٩٦.

(٢) المرجع ذاته، ص١٩٧.

من أمر الحكمين قوله عليه السلام: «..ألا إنّ هذين الرجلين الخاطئين اللّذين اخترتموهما حكميْن قد تركا حكم الله، وحكَما بهوى أنفسهما بغير حجةٍ ولا حقٍ معروفٍ، فأماتا ما أحيا القرآن، وأحْيَيا ما أماته، واختلف في حكمهما كلامهما، ولم يرشدهما الله، ولم يوفقهما، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين، فتأهبوا للجهاد واستعدوا للمسير، وأصبحوا في عساكركم إن شاء الله تعالى..»[1].

هكذا فتح الإمام باب الجهاد مجدّداً لمواصلة الحرب ضد معاوية، بعد أن حصلت الأصوات التي نادت بوقف الحرب دروساً قاسية. الحقيقة إن سياسة الإمام رغم قساوة الظروف، أدخلت الجناحين الرئيسيين في جيشه، في دورة تربوية مكثفة، كان الزمن كفيلاً في كشف أبعادها بعد ظهور مهزلة التحكيم، فالجناح المطالب بإيقاف الحرب، نال دروساً تربوية في ضرورة اطاعة الإمام وعدم الانخداع وراء الشعارات البراقة التي يرفعها الأعداء، عبر إيجاد الثقة العالية بالقيادة الشرعية. وأما الجناح المطالب بإدامة القتال، حصل على دروس تربوية أيضاً تتلخص في إطاعة الإمام وضرورة الانضباط أمام القرارات القيادية وان كانت تخالف الرؤية الشخصية. وبهذه الطريقة التي كلفت الأمة زمناً، وفسحت مجالاً للفرقة والفتنة، تمّ كشف النوايا الحقيقية للخوارج، وذلك برفضهم العودة إلى القتال، بل اندفعوا إلى أعمال إرهابية ضد الأمة كما سنرى ذلك بتطور الأحداث، وفي نظرنا إن دعوة الإمام عليه السلام لهم للالتحاق

---

(١) تكملة الخطبة رقم ٣٥، عند المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص ٤١٣. راجع حوار الإمام مع زعيم الخوارج (ابن الكوّاء) في التستري، الشيخ محمد تقي: بهج الصباغة، مج ١٠، ص٣٦٥.

بمسيرة الجهاد، هي عملية إنقاذ لواقعهم المنهار، ليتم انتشالهم الفعلي من مستنقع الفتنة ووحل الصراع الداخلي الذي بات يهدّد مصيرهم في حالة انخراطهم في العمليات الإرهابية، خصوصاً لو علمنا بأن الفرصة الجهادية - هذه - تلتقي مع مطالبتهم باستمرار القتال. فواصل الإمام توجيهاته التربوية واستنهاضهم نحو الجهاد في آفاقه المشروعة[1].

وقد ركّز حديثه في إحدى خطبه على الذين اشتركوا في صفين دون سواهم، وفي معسكرهم، ولهذه الخصوصية دلالات تربوية مهمة من حيث التأثر والتأثير، فشدّد على أهمية إنصاتهم، لفهم كلامه فإنه مصيري لهم، حيث قال عليه السلام: «أكلّكُمْ شهد صفين؟ فقالوا: منّا من شهد ومنّا من لم يشهد. قال: فامتازوا فرقتين، فليكن من شهد صفين فرقة، ومن لم يشهدها فرقة، حتى أُكلّم كلاً منكم بكلامه. ونادى الناس، فقال: أمْسكوا عن الكلام، وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتكم إليّ، فمن نشدْناه شهادةً فليقل بعلمه فيها...

ألم تقولوا عند رفعهم المصاحف حيلةً وغيلةً، ومكراً وخديعةً إخواننا وأهل دعوتنا، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه.. فقلت لكم: هذا أمر ظاهره إيمان، وباطنه عدوان، وأوله رحمة، وآخرة ندامة. فأقيموا على شأنكم، والزموا طريقتكم، وعضّوا على

(١) الدينوري، أحمد بن داود: الاخبار الطوال، ص ٢٠٦. نص رسالة الإمام إلى عبد الله بن وهب الراسبي ويزيد بن الحُصين ومن قبلهما، لما نزلوا نهروان، جاء فيها: (فأقبلوا إليّ رحمكم الله، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم، لنعود إلى محاربتهم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين).

الجهاد بنواجذكم، ولا تلتفتوا إلى ناعق نَعَقَ..»[١]. فهنا يحمّلهم الإمام مسؤولية عدم إطاعته، ويعطيهم درساً في ذلك، ثم يجدّد لهم نداءه الجهادي للمرة الثانية ليقوّمهم. فبالرغم من تلك الأحداث والتطورات يبقى الإمام مؤدياً مهامه التربوية والجهادية، بل إنه «مصمّم على خطته الواضحة، لا يرضى الدنية من الأمر، ولا يداهن في دينه، ولا يتحوّل عن سياسته الصريحة قليلاً ولا كثيراً. والمحن تتتابع عليه ويقفو بعضها إثر بعض، وهو ماضٍ في طريقه لا ينحرف عنه إلى يمين أو شمال»[٢].

(١) باب الخطب، رقم ١٢٢. الغيلة: الخداع والأخذ على غرّة. استقالونا: من الاستقلال بالشيء أي الإقلال به. وهو الاستبداد به لا طلبه. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب محمود عادل مج٢، حرف الغين، الربع الثالث، مادة غول، ص٣٤٠. الربع الثالث، وحرف القاف، مادة (ق ل ل) ص٥٤٤.

(٢) حسين، طه: الفتنة الكبرى، علي وبنوه، ص١٢٩.

المطلب الثاني

أهم السمات الفكرية والسلوكية عند الخوارج

تميّزت فئة الخوارج بعدة ميّزات، أفردت لها خصوصيّة معينة في أسلوب التفكير، وطريقة التعامل السلوكي في مواجهة الأزمات والأحداث التي مرّت بها، وهي لا تخلو من الأسلوب البدوي في الغلظة والشدّة إلى جانب السذاجة والسطحية في فهم الشريعة الإسلامية، ممّا أوقعها في شراك التكفير والعنف والإرهاب. وبذلك أُفرغت الشريعة الإسلامية - على أيدي الخوارج -من معاني الأخوة والتسامح والألفة مع أبناء الإسلام غير المتطابقين معهم في تفاصيل أفكارهم ورؤاهم السياسية، وهذه المعاني السامية هي روح الأخلاق والقيم الإنسانية النبيلة في صميم الإسلام. وهكذا شهد التاريخ مواقف دامية لهذه الفئة، من جملة اعتداءاتها على الإنسان وحقوقه المشروعة في الحياة، سنشير إلى بعضها، من قتل وسلب وانتهاكات- بما تقتضيه طبيعة البحث- إلى أنْ أقدمت على الخطوة القاتلة في دخول الحرب ضد دولة الخلافة الشرعية.

نتناول أهم تلك السمات - على ضوء ما ورد في نهج البلاغة- في المحاور التالية:

١• تغليب الارتباط القبلي العرفي على الديني الشرعي.

٢• السذاجة والسطحية في فهم الإسلام.

٣• اعتماد العنف والإرهاب الدموي.

● **تغليب الارتباط القبلي العُرفي على الديني الشرعي:**

ربما من الصحيح أن نقول: إن العراق بثرواته الطبيعية والبشرية أصبح العمق الاستراتيجي المعتمد للدولة الإسلامية، بعد توسعتها، باعتباره مصدر إمداد مهم للإسلاميين اقتصادياً وعسكرياً. والكوفة تتوسط كيان الدولة الإسلامية تقريباً، لذلك اختارها الإمام عليه السلام عاصمة له، بعد انتهائه من حرب الناكثين في البصرة، حيث دخلها في اليوم الثاني عشر من شهر رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة، وذلك لضرورة فرضتها الحالة السياسية وتطورات الأحداث العسكرية، فالعاصمة الجديدة تهيئ للإمام رجال الكوفة، وأبطال البصرة، بالاضافة إلى المهاجرين والأنصار وبقية مجاهدي بدر[١].

هذا، ومن الصحيح أيضاً أن نقول في الوقت ذاته: إن العراق لم يلقَ العناية التربوية المناسبة، بعد فتحه في عهد الخلافة الثانية، وإلى دولة خلافة علي عليه السلام ليتم من خلالها تأهيل العراقيين بالشكل المطلوب، لأداء الأدوار الخطيرة التي تنتظرهم إدارياً وجهادياً في حياة المسلمين[٢]. فحينما تم اختيار الكوفة من قبل الإمام عاصمة للدولة الإسلامية، كثّف جهوده لرعاية هذا العمق البشري المهم،

---

(١) الصغير، د.محمد حسين: الإمام علي عليه السلام، سيرته وقيادته، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٢) العاملي، السيد جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج١ ص٤٣ وما بعدها.

وبالفعل تركّز دوره التربوي في بثّ الوعي الإسلامي - فكرياً وسلوكياً وجهادياً - داخل صفوف الأمة، ونجحت الأمة بأغلبيتها، في درجات متفاوته، باستيعاب تعاليم الإسلام التي ترجمها الإمام عليه السلام أمامهم على نفسه كمثالٍ يقتدى، وعلى أرض الواقع بنقاء الإيمان ووضوح الالتزام، فتحولت الأمة المطيعة له إلى طاقة بنائية رفدت حياة المسلمين بالعطاءات الخيّرة، وحققت الإنجازات الواعدة على مستوى العلوم الإسلامية، وإدارة شؤون المسلمين، والجهاد الواعي في سبيل الله.
ولكن الذي حصل - أيضاً - إن الإمام - بالرغم من كفاءاته القيادية والتربوية - ما أسعفته الظروف بالشكل المقبول، وعجّل عليه الزمن، فكثرت ضدّ دولته المؤامرات والحروب التي أكلت خيرة الأمة وهم أصحابه الكرام، ومن المعلوم ان عملية البناء الإيماني للأمة - هذا البناء الذي يعتبر هو طموح الأنبياء والرسل في الحياة - لم يتحقق بسهولة، على عكس عملية الهدم والتخريب وإضاعة القيم والأخلاق.
والمهم ان الإمام واجه مبكراً تلك المحاولات التخريبيّة التي أدت إلى الحروب الداخلية، حيث وجدت تلك الفئات المحاربة فرصة التنفيس عن طموحاتها وآمالها على الساحة العراقية وضد دولة الإسلام الفتية، خوفاً من استمرارها في حالة الاستقرار السياسي الذي سيضيّع أحلامها المرسومة سلفاً. وقد وجدت هذه المؤامرات خطوطاً متعاطفة معها داخل الكوفة والبصرة، تلك الخطوط التي استعصت عليها استيعاب دروس الإيمان والجهاد من الإمام، فاستغلت عدله ورحمته، فخرجت عن حكومته، وجمعت أنصاراً لها، وتهيأت للمعركة، وكان من الطبيعي على هؤلاء الخوارج أن يتمسكوا بالعصبية القبلية، والمفاهيم الجاهلية، لتقوى شوكتهم في المواجهة. يقول السيد جعفر

العاملي: «وقد بلغت المشاعر القبلية، والروح العشائرية حدّاً جعل البعض يقول: غلب على الكوفة طابع الحياة الجاهلية»[١]. ويقسّم الدكتور الصغير الكوفيين إلى: «ثلاثة فرقاء فالفريق الأول: هو الذي ناصره في حرب الجمل، والفريق الثاني: هو الذي تخلّف عنه فيها، ممّا كان يأمل نصرهم، وينتظر مؤازرتهم، ولكنهم كانوا دون مستوى المسؤولية. والفريق الثالث: هو الذي رابط في الكوفة دون نصره في البصرة، ودون خذلانه في الكوفة، [ويضيف لقوله]: كان الفريق الثاني.. وفيه بعض الرؤساء ومشايخ القبائل، فاستحبّ أن يكفّر عمّا مضى استرضاءً للإمام، فهو يدعو للحرب»[٢]. أي من غير قناعة بها، وإنما دخلوا المعركة إلى جانب جيش الإمام عليه السلام ولكن بدوافع قبلية عرضيّة أكثر منها دوافع دينية شرعية، وذلك خشية «اللوم والتعنيف» من الأمة والأصحاب الكرام، على حد تعبير الأستاذ الصغير[٣]. وليس من منطلق الشعور بالمسؤولية الشرعية.

إن هذا التغليب في الارتباط على حساب الإسلام، جرّهم إلى هاوية المروق والخروج عن الدين. فقد جاء في الحديث النبوي الشريف قوله صلى الله عليه وآله: «إن فيكم قوماً يدينون ويعملون حتى يُعجبوا الناس، وتُعجِبُهُمْ أنفسهم، يمرقون من الدين كما يمرق السّهم من الرمية»[٤]. وقد وصفهم الإمام عليه السلام: «وأنتم معاشرُ أخفّاءُ الهام،

---

(١) العاملي، المرجع ذاته، ج١، ص٥٢. راجع: حياة الشعر في الكوفة، ص١٨١.

(٢) الصغير، د. محمد حسين: الإمام علي عليه السلام سيرته وقيادته، ص٢٧٤.

(٣) المرجع ذاته. بالصفحة ذاتها.

(٤) المتقي الهندي، العلّامة علاء الدين: كنز العمال، ج١١، ص٢٨٨، رقم الحديث ٣١٥٤٤. عن أنس بن مالك وأخرجه ابن ماجه في سننه ج١، ص٥٩، ١٢- باب ذكر =

سفهاءُ الأحلام، ولم آت - لا أبا لكم - بُجْراً، ولا أردتُ لكم ضُرّاً»[١].

و«خفّة الهامة كناية عن رذيلة الطيش المقابلة لفضيلة الثبات. والسفه رذيلة مقابلة للحلم. والثبات والحلم فضيلتان تحت ملكة الشجاعة.. وقوله «ولم آتِ -لا أبا لكم- بجراً ولا أردتُ لكم ضُرّاً»، خرج مخرج الاعتذار إليهم، واستدراجهم ببيان تحسين فعله، ونفي المنكر عنه، وعدم قصد الاساءة إليهم ليرجعوا عمّا شُبّه إليهم. وقوله -لا أبا لكم-.. دعاء المرء أن لا يكون له أب يعزّه ويشد ظهره، ونفي الأب يستلزم نفي العشيرة له، فكأنه دعاء بالذّل وعدم الناصر»[٢]. لذلك نرى في سلوكهم تجسيداً لمقولة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» بالمعنى الجاهلي، فحينما قتلوا ظلماً عبد الله بن خبّاب - سنشير إلى ذلك فيما بعد - طالبهم الإمام بالقصاص، أنْ يسلّموه القتَلة، «فقالوا: كلّنا قتله!»[٣]. تعبيراً عن حميّتهم الجاهلية.

وخير من وصفهم مولانا أمير المؤمنين حينما وقف على مصارعهم، يتأمل مصيرهم البائس، ليُنبّه المسلمين ويربّيهم على

= الخوارج رقم ١٦٨ عن عبد الله بن مسعود قوله ﷺ: «يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان سفهاء الاحلام يقولون من خير قول الناس يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرّمية..».

(١) باب الخطب، رقم ٣٦. لم آت بُجْراً: لم آتِ شراً وامراً عظيماً. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب محمود عادل، مج١، الربع الأول، حرف الباء، مادة (ب ج ر)، ص١٥٥.

(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٩٢.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج٢، ص٤٤٤.

الخوف من الله وطاعته بإخلاص، وهؤلاء الصرعى لا منطلقات فكرية لهم ولا رؤى ثقافية يحملونها، وإنما كانت أعمالهم اغراءات من الشيطان والهوى، حيث قال عليه السلام: «بؤساً لكم، لقد ضرّكم من غرّكم، فقيل له: مَنْ غرّهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: الشيطان المُضلّ، والأنفس الأمّارة بالسوء، غرّتْهُم بالأمانيّ، وفسحتْ لهم بالمعاصي، وَوَعدتْهُمْ الإظهار، فاقتحَمَتْ بهم النّار»[(١)].

● **السّذاجة والسطحية في فهم الإسلام:**

مما أوقعهم في فخّ الجهل ومنزلقات النفاق والضلال وتكفير الآخرين واستحلال دماء المسلمين. فقد قال الإمام: «..إن الشيطان اليوم قد استغلّهُمْ، وهو غداً متبرّئٌ منهم، ومُتَخَلّ عنهم، فَحَسْبُهُمْ بخروجهم من الهدى، وارتكاسهم في الضلال والعمى، وصدّهم عن الحق، وجماحهم في التّيه»[(٢)]. بمعنى أن الشيطان قد دعاهم للتفلّل، وهو الانهزام عن الجماعة، وتفريق الكلمة، وأنه في النتيجة سيتبرأ منهم، ويبتعد عنهم، في الحرب ويوم القيامة معاً. وقوله عليه السلام: «فحسبهم بخروجهم من الهدى»، أي يكفيهم ضلالاً وجهالةً وشراً خروجهم من دائرة الهدى، «والارتكاس في الضلال والعمى»، أي

---

(١) باب الحكم، رقم ٣٢٣. الإظهار: أي وعدتهم الانتصار والظفر. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٨٣٣.

(٢) باب الخطب، رقم ١٨١. الارتكاس، من الرّكس: وهو ردّ الشيء مقلوباً. الجماح، من جمح: أي أسرع إسراعاً لا يردّه شيء. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، الربع الثاني، حرف الراء، مادة (ر ك س)، ص٢١٧. والربع الأول، وحرف الجيم، مادة (ج م ح)، ص٣٩٢.

انقلابهم على رأسهم[١]. «الرجوع، كأنه جعلهم في تردّدهم في طغيان الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلص منه، والجماح في التيه: الغُلوّ والإفراط»[٢]، «واستعار لفظ الجماح، لخروجهم من فضيلة العدل إلى طرف الإفراط على جهل بمطلوبهم وهو معنى التيه»[٣].

ومن سذاجتهم تعميم أحكامهم على عموم المسلمين، لمجرد اختلافهم في الآراء السياسية، وبعض التوجهات الفكرية، إلى مستوى إراقة الدماء، لنستمع إلى كلام الإمام عليه السلام، وهو يردّ عليهم، حيث يقول: «فإن أبيتم إلّا أنْ تزعموا أني أخطأتُ وضَللتُ، فَلِمَ تُضلّلونَ عامّة أُمّة محمد صلى الله عليه وآله، بضَلالي، وتأخذونَهم بخَطئي، وتكفّرونهم بذُنوبي! سيوفُكم على عواتقكم تضعونها مواضعَ البُرْء والسّقمْ، وتخلطون من أذنبَ بمنْ لم يذنبْ. وقد علمتمْ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله رَجَمَ الزّاني المُحْصِنَ، ثم صلّى عليه، ثمّ ورّثه أهلَهُ. وقطَعَ السارق وجلَدَ الزاني غير المحصن، ثمّ قسّمَ عليهما من الفيء، ونكحا المسلمات، فأخذهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم، وأقام حقّ الله فيهم، ولم يَمنعْهم سَهْمَهُمْ من الإسلام، ولم يُخْرج أسماءَهم من بين أهله. ثم أنتم شرارُ الناس، ومَن رمى به الشيطان مراميه، وضرَبَ به تيهه..»[٤].

---

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٣، ص٩٣.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة مج٥، ج١٠، ص٢٦٩.

(٣) البحراني، ابن ميثم: اختيار مصباح السالكين، شرح نهج البلاغة الوسيط، ص٣٧٢.

(٤) باب الخطب، رقم ١٢٧. ضرب به تيهه: حيرته وتكبره، أي حيّره وجعله تائهاً ضالاً. =

ومن خلال هذه الخطبة تتوضح لدينا سطحيتهم في تفسير النص القرآني، لذلك احتج الإمام عليه السلام بالسنة النبوية على بطلان زعمهم. حيث إنه صلى الله عليه وآله «لم يخرج أحداً من الإسلام بذنب ارتكبه، بل كان يجزيه على أحكام المسلمين، ويؤاخذه بما فعل»[١]. يقول الشارح المعتزلي: «إنّ الخوارج كلها تذهب إلى تكفير أهل الكبائر، ولذلك كفّروا علياً عليه السلام، ومن اتبعه على تصويب التحكيم، وهذا الاحتجاج الذي احتج به عليهم لازم صحيح، لأنه لو كان صاحب الكبيرة كافراً لما صلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ولا ورّثه من المسلم، ولا مكّنه من نكاح المسلمات، ولا قسم عليه من الفيء ولأخرجه من لفظ الإسلام»[٢]. فالمسلم الفاسق يستحق إقامة الحد على فسقه، لا القتل على تكفيره، ومعنى قوله عليه السلام: «ثم ورّثه أهله»، «أي أعطى ميراثه لأهله بعد موته، لا قبل موته بعد الزّنا، فإنّ الإنسان إذا كفر قسمت أمواله يوم كفره على ورثته في ذلك اليوم، لا ورثته عند الموت»[٣]. هذا، وقد أورد الشارح المعتزلي العديد من احتجاجاتهم المبنيّة على تفسيرهم التحميلي للآيات القرآنية الكريمة، للمثال، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٤]. «وهذا يقتضي أنّ من لا يكون مؤمناً فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافراً.

= الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، الربع الأول، حرف التاء، مادة (ت ى ه)، ص٣٠٤.

(١) البحراني، ابن ميثم: اختيار مصباح السالكين، ص٢٨٤.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٤، ج٨، ص٢٨٢.

(٣) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٨٠.

(٤) سورة التغابن ٦٤/ ٢.

والجواب أنّ (من) ها هنا للتبعيض، وليس في ذكر التبعيض نفي الثالث، كما أن قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بِطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾، لا ينفي وجود دابة تمشي على أكثر من أربعة كبعض الحشرات»[١].

بالاضافة إلى ذلك تراهم متمسكين بكثرة العبادة حتى اسودّت جباههم من كثرة السجود، ويتظاهرون بشكليات الإسلام ولبوسه التي لن تتجاوز الحالة القشرية، إنما هي عبادة «بعيدة عن الوعي، وعن التأمل والفكر، فإنها تكون مجرّد طقوس يؤديها الإنسان، ولا يحس بها، ولا يتفاعل معها إلّا من خلال ما يبذله من جهد جسدي، من دون أن يشعر بعظمة الله سبحانه.. ويتلمس بمشاعره وأحاسيسه معاني كمالاته السامية»[٢]. وخير دليل على سطحيتهم قول الإمام عليه السلام، حينما وقف ينظر إلى رأس قائدهم - الراسبي- في أرض المعركة: «كان أخو راسب حافظاً لكتاب الله، تاركاً لحدود الله..»[٣].

هذا، وقد جاء في كتب الحديث والتاريخ عن صفاتهم وأعمالهم، فهم يقرؤون القرآن، لا يتجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وتؤكد بعض الروايات أنّ من علامتهم ظهور المخدج وهو ذو الثدية فيهم[٤]، وقد قال أبو سعيد

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٤، ج٨، ص٢٨٤. للمزيد من الأمثلة ومناقشاتها في المرجع ذاته، ص٢٨٢-٢٨٥. والآية المباركة من سورة النور٢٤/ ٤٥.

(٢) العاملي، السيد جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج٢، ص٢٠.

(٣) التستري، الشيخ محمد تقي: بهج الصباغة، مج١٠، ص٤١٥.

(٤) ابن حنبل، أبو عبد الله الشيباني: مسند الإمام أحمد،ج١، ص١٥٣، رقم ٧٣٧. =

الخدري: «فحدثني عشرون أو بضعٌ وعشرون من أصحاب النبي ﷺ: أن علياً رضي الله عنه وليُّ قتلهم..»[١]، وأضاف الخدري في روايته لحديث آخر في المضمون ذاته، أشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه، جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله ﷺ»[٢]. ومن العلامات التي ذكرتْها الروايات انهم أحداث الأسنان سفهاء الأحلام.. يتلون كتاب الله وهم أعداؤه، وانهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الاوثان. ويشير السيد العاملي إلى استمرارية صفاتهم بقوله: «انهم كانوا حتى بعد مرور عشرات بل مئات السنين لا يزالون أعراباً جُفاةً، يهيمن عليهم الجهل، والأمية، والقسوة، ومن سماتهم الغلظة والجفاء، ويتميزون بسذاجة وسطحية، جعلتهم يفقدون المناعة الكافية في مقابل خصومهم الذين وُجد من يعرف كيف يستغل هذه الجهالة

= يذكر علامات الخوارج في الحديث الشريف، حيث يقول ﷺ: (..يقرؤون القرآن يحسبون أنّه لهم وهو عليهم، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، وآية ذلك أنّ فيهم رجلاً له عضد وليس لها ذراع، عليها مثل حلمة الثدي..)، وحينما قيل للإمام علي (أأنت سمعته من رسول الله ﷺ، قال: أي وربّ الكعبة)، ثلاث مرات.

(١) ابن حنبل، أبو عبد الله الشيباني: مسند الإمام أحمد، ج٣، ص٤١٩، رقم الحديث ١٠٨٩٣. عن أبي سعيد الخدري.

(٢) المصدر ذاته، ص٤٥٩، رقم الحديث ١١١٤٣. وفي ج ٥ ص٤٧٦، رقم ١٨٦٦٨ يذكر أن الصحابي عبد الله بن أبي اشترك في قتال الخوارج، وقد لحق بهم غلام له، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (طوبى لمن قتلهم وقتلوه). وفي الجزء ذاته، ص٥١٧، رقم ١٨٩٢٢، يروي الحديث الشريف نفسه باضافة (ثمّ) في قوله ﷺ: (طوبى لمن قتلهم ثمّ قتلوه). وراجع أيضاً: ابن الاثير، عزّ الدين ابي الحسن: الكامل في التاريخ، ج٣ ص٣٤٧-٣٤٨. تحت عنوان (ذكر مقتل ذي الثُّدَيّة).

وتلك السذاجة، ويستفيد من تلكم السطحية، كحربة ماضية، وسيف قاطع ضدّهم..»[١].

● **اعتماد العنف والإرهاب الدموي:**

حينما أظهر الخوارج إفلاسهم في الحوار الفكري والمواجهة السياسية، بدليل تناقص أعدادهم إثر توجيهات ونصائح الإمام عليه السلام وأصحابه الكرام لهم - كما مرّ معنا - تعصّب من بقي في معسكرهم بمجمل المواقف والأفكار الخاصة بهم، خصوصاً كبارهم أمثال الراسبي، وكأنما أرادوا من تشبثهم بهذه الأفكار إعادة الاعتبار لأنفسهم، خصوصاً لو تذكرنا إعلانهم عن خطئهم وكفرهم ثم توبتهم، لذلك طالبوا الإمام عليه السلام بأن يعلن عن خطئه وكفره ثم يتوب إلى الله سبحانه، لينظروا في الأمر مجدّداً، واعتبروا هذه المسألة مطلباً مفصليّاً يحدّد موقفهم المصيري، فلذلك ردّهم الإمام عليه السلام ردّاً حاسماً بقوله: «أصابكم حاصبٌ، ولا بقي منكم آثِرٌ، أبعدَ إيماني بالله، وجهادي مع رسول صلى الله عليه وآله، أشهد على نفسي بالكفر! ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾! فأوبوا شرّ مآب، وارْجعُوا على أثر الأعقاب. أما إنكم ستلقون بعديَ ذُلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثَرَةً يتخذُها الظالمون فيكم سُنّةً»[٢]. فدعا عليهم أولاً بريح تحصبهم، ثم بالفناء غضباً من مقالتهم، ثم أخذ في تقريعهم وإنكار مقالتهم.

---

(١) العاملي، جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج٢، ص١٣٧.

(٢) باب الخطب، رقم ٥٨. يشير السيد الرضي بعد ذكره هذه الخطبة إلى كلمة (آثِر) بعدة روايات، والذي ذكر يعتبره أصح الوجوه، ومعنى (آثِر): (هو الذي يأثر الحديث ويرويه أي يحكيه، كأنه عليه السلام قال: لا بقي منكم مخبرا). حاصب: =

وقوله عليه السلام: «فأوبوا شرّ مآب، وارجعوا على اثر الأعقاب»، «أي ارجعوا شرّ مرجع، والأعقاب: جمع عَقِب - بكسر القاف- وهو مؤخّر القدم، . . والمراد انعكاس حالهم، وعوْدهم من العزّ إلى الذّل، ومن الهداية إلى الضلال. . وهذا الدعاء عليهم، وهذا الإخبار عن مستقبل حالهم، وقد وقع ذلك، فإنّ الله تعالى سلّط على الخوارج بعده الذّل الشامل، والسيف القاطع. . ومعنى الأثَرَة الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم واطّراح جانبهم»[1].

وبهذا الرّد الحاسم يئسوا من إعادة الاعتبار لأنفسهم بتلك الطريقة الجافة، وحينما فشلوا في مطلبهم انزلقوا في ممارسة أسلوب العنف والإرهاب ضد المسلمين قتلاً وسلباً، وإعداداً للحرب، وقد ذكر المعتزلي في شرحه طرفاً من رجالهم وحروبهم، وللمثال نشير إلى تقويمه لأحد رجالهم وهو نافع بن الأزرق الحنفي، الذي إليه تنتسب الأزارقة من الخوارج، حيث يقول: «. . كان يفتي بأن الدار كفر، وأنهم جميعاً في النار، وكلّ من فيها كافر، إلّا من أظهر إيمانه، ولا يحلّ للمؤمنين أن يجيبوا داعياً منهم إلى الصلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يناكحوهم، ولا يتوارث الخارجي

= الريح الشديدة التي تثير الحصباء، أي صغار الحصى. وهو دعاء عليهم بالأذى والهلاك. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، الربع الأول، حرف الحاء، مادة (ح ص ب)، ص٥٢١. أثره: أي استبداداً فيهم، وحرمانهم من حقوقهم، وهنا: الاستبداد عليهم بالفيء والغنائم واطّراح جانبهم. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٣٤. والآية الكريمة من سورة الأنعام ٦/ ٥٦.

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة مج٢، ج٤، ص٣٢٩.

وغيره، وهم مثل كفّار العرب وعَبَدة الأوثان، لا يقبل منهم إلّا الإسلام أو السيف والقعَد بمنزلتهم.. فتفرّق عنه جماعة من الخوارج، منهم نجدة بن عامر، واحتج نجدة بقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ فسار نجدة وأصحابه إلى اليمامة، وأضاف نافع إلى مقالته التي قدّمناها، استحلاله الغدر بأمانته لمن خالفه، فكتب نجدة إليه: أما بعد، فإنّ عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البر، تجرّد لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك، فاستحالك واستهواك، وأغواك فغويْتَ، واكفرت الذين عَذَرهم الله في كتابه من قعدة المسلمين وضَعَفتهم، ثمّ استحللت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وقال سبحانه في القَعَدة خيراً، ،أو ما سمعت قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾، فجعلهم من المؤمنين وفضّل عليهم المجاهدين بأعمالهم. ثم إنك لا تؤدي أمانةً إلى مَنْ خالفك، والله تعالى قد أمر أن تؤدّى الأمانات إلى أهلها. فاتّق الله في نفسك، واتّق يوماً لا يجزي فيه والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً فإنّ الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل والسلام»[1].

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: المرجع ذاته، مج٢، ج٤، ص٣٣٢-٣٣٣. والآيات الكريمة، من سورة غافر ٤٠/ ٢٨، ومن سورة الانعام ٦/ ١٦٤، ومن سورة النساء ٤/ ٩٥ - علي التوالي - وللوقوف على إجابة نافع بن الأزرق على رسالة نجدة بن عامر، وكذلك للاطلاع على تفاصيل (الخوارج رجالهم وحروبهم) راجع المرجع المذكور ص٣٢٩-٤٢١. وراجع: المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب، ج٢، ص٤١٥-٤٢٢، تحت عنوان (ذكر حروبه -رضي الله عنه- مع أهل النهروان).

نكتفي بهذا المثل للتعرف على مدى «الخشونة والقسوة والعنف»[١]، لدى هذه الجماعة التي جسّدت الطبيعة البدوية في تعصبهم، وتمردهم على نظم الحياة الاجتماعية والسياسية للدولة الشرعية، وللقانون العام. فقد قال الإمام عليه السلام: «. . كلّما نَجَمَ منهم قَرْنٌ قُطع، حتى يكون آخرُهم لُصُوصاً سلّابين»[٢]. «أي قطّاعاً للطريق»[٣]. يعتدون على الناس، ويسرقون أموالهم، ويقتلونهم.

التصعيد العدواني قبل وقعة النهروان:

صعّد الخوارج من أعمالهم العنيفة، مما أدّى إلى تغيير وجهة الحرب من معاوية إليهم، بينما كان الإمام قد قرّر تركهم والتوجّه للشام، لولا تصعيدهم الارهابي وزعزعتهم لأمن البلاد، وبالفعل وصلت أخبارهم للإمام حيث «إنّهم قتلوا عبد الله بن خبّاب بن الأرت، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وبقروا بطن امرأته وهي حامل، وقتلوا ثلاث نسوة من طيِّئ، . . فلما بلغ علياً رضي الله عنه ذلك بعث إليهم الحارث بن مرة العبدي، ليأتيهم، وينظر صحة الخبر فيما بلغه عنهم، ويكتب به إليه، ولا يكتمه شيئاً من أمرهم. فلما دنا منهم، وسألهم قتلوه. وأتى علياً رضي الله عنه الخبر بذلك وهو بمعسكره، فقال

---

(١) العاملي، جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج٢، ص١٤. نقلاً عن الأستاذ أبي زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية ص٧٠-٧١. وللأستاذ أبي زهرة تقويم حولهم لا نتفق معه تماماً. للاطلاع على آراء أبي زهرة وغيره حول الخوارج، مع المناقشة العلميّة، راجع: العاملي: المرجع ذاته ج٢، ص١٤-١٩.

(٢) باب الخطب، رقم ٦٠. نجم: ظهر ولمع منهم رئيس قتل، حتى ينتهي أمرهم إلى أن يكونوا لصوصاً سلّابين. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٣٥.

(٣) الخوئي، الميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٤، ص٣٧٥.

الناس: يا أمير المؤمنين، عَلامَ ندع هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا، وعيالنا؟! سرْ بنا إليهم، فإذا فرغنا منهم سرنا إلى اعدائنا من أهل الشام.. ولما قرب علي - رضي الله عنه - منهم بحيث يرونه ويراهم، نزل وأرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قَتَلَة إخواننا منكم نقتلهم بهم، وأتاركم وأكفّ عنكم حتى ألقي أهل الشام، فلعلّ الله أن يأخذ بقلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أموركم. فقالوا: كلنا قتلناهم، وكلنا مستحلّون لدمائكم وأموالكم ودمائهم..»[١].

ويضيف الدينوري في كتابه «الأخبار الطوال» إنهم «كانوا في جميع مسيرهم لا يلقون أحداً إلّا قالوا له: ما تقول في الحكمين؟ فإن تبرّأ منهما تركوه، وإن أبى قتلوه»[٢]. وهكذا صعّدوا من أعمالهم الارهابيّة «فاعترضوا الناس وأخذوا الأموال والدّواب والسّلاح، ودخلوا القرى، وساروا حتى انتهوا إلى النهروان. فلما لحقهم علي عليه السلام.. أقام أياماً يدعوهم، ويحتجّ عليهم فأبوا أن يجيبوا، وتعبأوا لقتاله. فعبّأ الناس، ثم خرج إليهم، فدعاهم، فأبوا، وبدأوه بالقتال. فقاتلهم وقتلهم»[٣].

---

(١) الشبلنجي، الشيخ مؤمن بن حسن: نور الأبصار، ص١١٢-١١٣.

(٢) الدينوري، أحمد بن داود: الأخبار الطوال، ص٢٠٦.

(٣) العاملي، جعفر مرتضى: علي عليه السلام والخوارج، ج١، ص١٥٣. للاطلاع على أحاديث النبي صلى الله عليه وآله في الخوارج، وبعض تفاصيل أعمالهم العدوانية والعنفية راجع: المعتزلي: ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج١، ج٢، ص٤٤٠-٤٥٢.

المطلب الثالث

خلاصة الدلالات التربوية
للمعالجة الجذرية عند الإمام عليه السلام

إن الإسلام هو دين المحبة والسلام والأُلفة والتعاون بين الناس، يوفر العدل، ويبيّن حقوق المسلم وواجباته، إلّا أنه حينما تهدّد المجتمع الإسلامي مخاطر فكرية وفتن أمنية - داخلية - يتعيّن على الحاكم الشرعي مواجهتها بالطرق السلميّة لغرض تطويقها في موضعها، ومعالجتها بالطرق المشروعة سلميّاً. أما إذا باشرت فئة إثارة الفتن والاضطرابات، أعمالها الإرهابية ضد أمن العباد والبلاد، يتعيّن العلاج الجذري المتناسب مع اعتداءاتهم بالقتل والحرب، وذلك للحفاظ على حياة المسلمين ووحدتهم ومصالحهم. إن الإمام عليه السلام في عهد خلافته واجه الناكثين والقاسطين والمارقين، بجهوده الاصلاحية، وتواصل معهم بالوسائل السلمية عبر الحوار الفكري والسياسي، ولكن حينما بدأوا بمسلسل العدوان على حقوق المسلمين، وأراقوا الدماء بغير حق، بادر الإمام عليه السلام إلى معالجاته الجذريّة في قتالهم، وذلك ليتم استئصال الغدد السرطانية من جسم الأمة، قبل استفحالها وتمكنها من القضاء على الإسلام والمسلمين. وفي ذلك قال الإمام عليه السلام وهو يلوم العصاة: «ألا وإنكم قد نفضتم

أيديكم من حبل الطاعة، وثلمتمْ حصْنَ الله المضروبَ عليكم، بأحكام الجاهلية. . . ألا وقد قطعتمْ قيْدَ الإسلام، وعطّلتم حدوده، وأمتّمْ أحكامه. ألا وقد أمرني اللهُ بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الأرض. .»[١].

وهكذا طبّق الإمام فريضة الجهاد باستخدام القوة من أجل الاصلاح التربوي، يقول الشيخ شمس الدين حول الناكثين لبيعته عليه السلام والقاسطين والمارقين: «. . اضطروه إلى أن يخوض ضدّهم معركة الجمل في البصرة، أو المتمردين على الشرعية في الشام بقيادة معاوية ابن أبي سفيان الذي رفض جميع الصيغ السياسية التي عرضها عليه الإمام ليعود من خلالها إلى الشرعية، أو المارقين الخوارج على الشرعية، والذين رفضوا كلّ عروض السلام التي قُدّمتْ لهم، وأصرّوا على الفتنة، وما رسوا الإرهاب ضد الفلاحين والآمنين والأطفال والنساء.

في هذه الحالات وأمثالها على المسلم المستقيم أن يبرأ من انحراف في قلبه، وأن يدينه علناً بلسانه، وأن ينخرط في أيّ حركة يقودها الحاكم العادل لتقويم الانحراف بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك»[٢].

فإذن تركزت تربية الإمام عليه السلام للمتلقين منه في عهده مباشرةً، أو للاجيال القادمة التي تبحث عن المعالجات الجذرية لأمثال هذه المواجهات المصيرية. ويقدّم لنا الإمام نفسه من خلال تجربته الشخصيّة في التضحية والجهاد بمزاولة الأعمال الجهادية طامحاً

---

(١) باب الخطب، رقم ١٩٢، تسمى القاصعة، من مقطع (لوم العصاة)، رقم ١٦.

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام، ص ١١٨.

لنيل الشهادة في سبيل الله، ضمن الضوابط الشرعية، فقد قال عليه السلام في جوابه على إحدى رسائل معاوية: «..وإني لو قتلتُ في ذات الله وحُييت، ثمّ قتلتُ ثم حييت سبعين مرة، لم أرجع عن الشدّة في ذات الله، والجهاد لأعداء الله..»[1]. هكذا ينبع صدق الإمام عليه السلام في تعامله مع فروض الله سبحانه، خصوصاً فرض الجهاد - الذي نحن بصدده - وعليه يتحمل كل التبعات والنتائج المحتملة دون هوادة، إحياءً للإسلام، ومن هنا نتلمس بوضوح عمق الدلالات التربوية لنهج الإمام الجهادي في نفوس المتلقين من أصحابه وأتباعه وشيعته على مدى الزمن. فجاءت معالجاته الجذرية في مواجهة الباطل والانحراف تأسيساً في مستوى الحروب الداخلية، واستكمالاً لحلقات العمل الجهادي العام الذي أسسه الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله، وكان هدفه إبراء ذمته أمام الله سبحانه، لا يخالطه هدف دنيوي أو مصلحي.

ولذلك اطمئنت النفوس إلى الإمام عليه السلام - سابقاً ولاحقاً - لما بثّه من وعيّ متميّز في الناس، وحوّلهم إلى طاقة هائلة ترفض الباطل، لتبني الحياة على أُسس الإسلام القويمة، بعيداً عن العصبيات القبلية والاعراف الجاهلية. بل وضع تلك التقاليد والاعراف الاجتماعية في إطارها الطبيعي لتكون الهيمنة التامة في حياة المسلمين للإسلام على المستوى الفردي والجمعي.

معوّقات تمكين الأمة:

ومما لا شك فيه أنّ الإمام عليه السلام عانى معاناة شديدة في سبيل تربية الأمة إلى مستويات التضحية التامة في سبيل الله وإطاعة ولي

(١) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص٤٧١.

الأمر الشرعي. ونصوص نهج البلاغة واضحة في تبيان تلك المعاناة الكبيرة للإمام عليه السلام وهو يستنهض الأمة ويربّيها على جهاد العدو، وتحصيل العزّة المطلوبة، للمثال نذكر إحدى خطبه، وهو يستنهض الناس حينما بلغه خبر غزو الأنبار من قِبل جيش معاوية، وممّا قال لهم: «..يا اشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال، لَوَددْتُ أني لم أركم ولم أعرفْكم معرفةً - والله - جرّت ندماً، واعقبت سَدَماً، قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيْحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نُغَبَ التّهمْام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان..»[١].

نعم هكذا يعبّر الإمام عن آلامه الشديدة إثر خذلانهم عن الاستجابة الواعية لندائه في مواجهة المعتدين على الأنبار، ويرمي بالمسؤولية عليهم لعدم إطاعتهم له، فتمنى إنه لم يعرفهم، لأنها المعرفة التي جرّت الندم، «واعقبت سدماً» أي الحزن والغيظ والهم، ثم دعا عليهم بالقتل والموت، فقد ملؤوا قلبه قيْحاً أي صديد القرحة، وملؤوا صدره غيظاً وغضباً، والنُّغَب - جمع نَغْبه - كجرعة وجُرَع - لفظاً ومعنى - أي جرعة بعد جرعة، والمراد: أن أنفاسه أمست هموماً يتجرّعُها[٢].

---

(١) باب الخطب، رقم ٢٧.السَدَم - محرّكةً - الهم مع أسف أو غيظ. القيح: ما في القرحة من صديد. شحنتم صدري: ملأتموه، النُّغب: جمع نُغبة وهي الجرعة. التهمام - بالفتح - الهم. أنفاساً: أي جرعة بعد جرعة، والمراد أن أنفاسه أمست هماً يتجرعه. الصالح، د. صبحي: نهج البلاغة، فهرس الألفاظ الغريبة المشروحة ص٥٧٤، الأرقام ٣٤٨-٣٥٣.

(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٩٠.

فإذن واجه الإمام في مسيرته التربوية للأمة الكثير من الأزمات الاجتماعية والفكرية والنفسية، وبادر بتقويمها إسلامياً وإيمانياً، وبالرغم من تطويق مشروعه الحضاري في إقامة دولة الإسلام وحمايتها من أعداء الداخل والخارج، بالأحداث الجسام، حيث واجهت دولته الفتيّة عدّة حروب وفتن واعتداءات في أطراف البلاد، تركت آثارها الواضحة على عامل الزمن المناسب، والجهاد المطلوب، وعموم ظروف التلقي لدروسه التربوية والممارسات الجهادية، ففي فترة حكمه التي لم تتجاوز خمس سنين، انصبّ كثير من جهده في الحروب وصد العدوان وردّ الطامعين، ومما لا يخفى إن هذه الحروب والفتن قد استنزفت جهوداً ودماءً وإمكانيات من الدولة والأمة.

ومع كل ذلك واصل الإمام تربيته الجهادية المكثفة، عبر توجيهاته المستمرة للمتلقين، ومتابعاته التقويمية الدائمة، ومعالجاته الحثيثة لعوامل تباطئهم في الجهاد، وتأخرهم عن الاستجابة لنداء العقيدة في القتال. فلو دققنا النظر في خطبته عليه السلام وهو يطالب المسلمين بالاستنفار لحرب معاوية، بعد فراغه من أمر الخوارج، لعرفنا مدى عمق آلامه من واقع الفساد في الأمة، وممّا قال لهم: «أفٍّ لكم! لقد سئمتُ عتابكم! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً؟ وبالذُل من العزّ خلَفاً؟ إذا دعوتُكم إلى جهاد عدوّكمْ دارتْ أعينُكُمْ، كأنّكم من الموت في غَمْرَة، ومن الذّهول في سَكْرَة.. لبئس - لعمرُ الله - سُعْرُ نار الحرب أنتم! تكادون ولا تكيدون، وتُنتقصُ أطرافكم فلا تمتعضون، لا يُنام عنكم وأنتم في غفلةٍ ساهون، غُلب والله المتخاذلون!..»[1]. وهنا يعبّر الإمام عن ضجره

(١) باب الخطب، رقم ٣٤. دارت أعينكم، من شدة الاضطراب والخوف والجزع. غمرة =

منهم بكلمة (أُفٍّ)، ويُبيّن لهم أنّه عليه السلام قد ملّ من كثرة عتابهم وتوجيههم لغرض الاصلاح، ويستفهم استفهاماً إنكارياً، بأنكم كيف ترضون بالدنيا الزائلة عوضاً عن النعيم الدائم في الآخرة، وبالذل تحت إمرة معاوية عوضاً عن العزّ الذي تعيشونه حالياً تحت راية الإسلام؟. ويصف إرادتهم النفسية من خلال نظراته الدقيقة إلى أعينهم، حيث يظهر جزعهم واضطرابهم حينما يدعوهم إلى الجهاد، فتدور أعينهم بحثاً عن مهربٍ وخلاص، وكأن الموت قد غشاهم وغمرهم كالماء الذي يغمر الغريق، وكأنهم من شدة فزعهم كالسكارى في الجبن واللّامبالاة. ثم يقْسم عليه السلام بحياة الله عز وجل بأنهم بئس الرجال لخوض غمار الحرب، كناية عن جبنهم وهزيمتهم النفسية، ففي الوقت الذي يخطط الأعداء ضدّهم، ويَغيرون على أطراف البلاد، إنهم نائمون، ولا يغضبون، ثم يقسم بالله سبحانه إن مصير المتخاذلين عن الجهاد هو الفشل والخسارة في الدنيا والآخرة.

كل تلك المعاناة العاصفة التي عاشها الإمام عليه السلام في سبيل تربية الأمة وتمكينها من أداء واجبها الشرعي أنتجت - بالفعل - قوافل من المجاهدين، ورجال التضحية في المواقف الصعبة، وطلّاب الشهادة في سبيل الله، بقلوبٍ واعية، وعقولٍ مدركة، وعلومٍ نافعة، وقد احتل شهداؤهم صفحات مشرقة في تاريخ المسلمين، ومجاهدوهم شيّدوا أمجاد المسلمين في التاريخ، وطبعوا أسماءهم في قلوب المؤمنين، يتوارثون عزّهم وفخرهم جيلاً بعد جيل، كما وسارت على نهجهم، وحركتهم قوافل الأبطال من المؤمنين في كل عصر.

= الموت: الشدة التي ينتهي إليها المحتضر. تمتعضون: تأنفون وتغضبون. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٠٣، ١٠٤.

إنهم قد أصبحوا حماة الإسلام على مرّ العصور. والذي يهمنا أن نشير إلى أن هذه المعوّقات قد ذلّلها الإمام بتضحياته المشهودة وتربيته الجهادية الواعية، ولقد ظهرت ثمرات تربيته في ساحات القتال التي قادها ضد الأعداء بشكلٍ ملحوظ، وأكثر من ذلك إن تغييراً كبيراً قد حصل في الأمة، في أواخر حياته عليه السلام كثمرة طبيعية لتلك التربية الدقيقة في أجواء المعاناة الهائلة، فبعد تلك الخطبة التربوية الاستنهاضية نحو الجهاد، ظهرت بوادر الجهاد بشكلٍ عام في الأمة، يقول الدكتور محمد حسين الصغير: «.. فاستجاب الناس استجابة كاملة، وأنّب بعضهم بعضاً على الخذلان، ودفع بعضهم بعضاً إلى الجهاد، وتلاوم رؤساء القبائل.. فيما بينهم، فأصبحوا اليوم غيرهم بالأمس، إنها يقظة الضمير بعد طول رقاد، وإذا بهم يدٌ واحدة مع الإمام بعد أن شحنوا صدره غيظاً، وملؤوا قلبه قيْحاً، إنها انتباهة من ضيّع مجده بيده، فأخذ يتلافى تقصيره المتعمّد بتدبيرٍ وحكمةٍ ومروءة، وتداعى الناس بعضهم إلى بعض، وسار فيهم سراتهم، وتحدّث خطباؤهم، وتكلم بلغاؤهم، وقامت النجدة على قدم وساق، وانتفضت الحميّة دون تردّد، وتهلّل وجه الإمام فرحاً بهذا الانقلاب الجديد، واستبشر قلبه سروراً مع هذا التغيّر المفاجئ، فهو يرى النصح في الاستجابة، وهو يرى الإخلاص في النفير، فالزعيم يجتمع إلى أنصاره يحرّضهم على القتال، والموجّه يدعو أتباعه إلى النضال.. ولم يجتمع العراقيّون على الإمام اجتماعهم له هذا الحين، فالجيش يتعاقد على المنيّة، وشرطة الخميس تبايع على الموت، والجند بغاية الأهبة والاستعداد، والعواطف ملتهبة، والمشاعر متحفّزة، وبان للإمام الوجه في هذه الحرب، والصدق

لدى أصحابه هذه الآونة، فأرسل زياد بن حفصة في طليعةٍ من أصحابه، وأمره أن يغير على أطراف الشام، ووجّه معقل بن قيس لتعبئة أهل السواد، واستنجد أهل البصرة فأنجدوه بعزيمة صادقة، ودعا أطراف الدولة إلى الالتحاق بالجيش، فتكونت للإمام عدّة عظيمة في هذا الشأن، وتهيّأت له الأسباب في السلاح والكراع والرجال، فما هي إلّا أن تحين الساعة فيزحف زحفة الصادق على الشام، وإنه لفي هذا السبيل إذ يأتمر الخوارج مخططين قتله، فينتقض الأمر»[1].

وهكذا تثمر جهود الإمام في تربية الأمة، عبر تزويدها بالوعي الإسلامي المواكب للمتغيرات السياسية والإثارات الفكرية، وذلك على المستوى العبادي والسلوكي والجهادي، وهنا تكمن أسرار العظمة في شخصية الإمام وتربيته الجهادية المركزة، وما حملت من دلالات تغييريّة آنية في الأمة، وعلى المدى البعيد أيضاً، ليتحمل المجاهدون مسؤولية بناء صرح المشروع الإسلامي الذي سيكون نموذجاً واعداً للحياة الحضارية على كوكب الأرض.

---

(١) الصغير، د.محمد حسين: الإمام علي عليه السلام سيرته وقيادته، ص٣١٥-٣١٦.

الفصل الخامس

فئات المتلقين للتربية الجهادية.

وفيه ثلاثة مباحث:

* المبحث الأول : الأمة الإسلامية *

* المبحث الثاني : الجيش الإسلامي *

* المبحث الثالث : قادة الجيش *

تمهيد

من المعلوم أن الإسلام هو دين العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات الشرعية بين المسلمين عموماً، مهما كانت ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ومواقعهم العلمية والسياسية، وأعمارهم ولغاتهم ومناطقهم، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1] وأن مقياس التفاضل عند الله سبحانه، يتمحور حول درجات التقوى والعمل الصالح ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[2]. وعلى ما تقدم، نرى أنّ التربية الجهادية في منهجية الإمام عليه السلام هي تربية شاملة لعموم المسلمين بكل شرائحهم ومواقعهم وفئاتهم وأعمارهم، رجالاً ونساءً وأبناءً، مع مراعاة الخصوصية الطبيعية لكلّ منهم، في أداء الدور المتناسب مع الاستعدادات الذاتية. فالجميع - إذن - مشمولون في الدورة التربوية الجهادية. كما أنّ على جميع المسلمين أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، على ضوء القرآن الكريم والسنة الشريفة، في أداء الصلاة والصيام ومناسك الحج وسائر العبادات. وعليهم أن يتخلقوا

---

(١) سورة الأنبياء ٢١/١٠٧.

(٢) سورة الحجرات ٤٩/١٣.

بآداب الإسلام وتعاليم الشريعة، فإن عليهم - أيضاً - أن يستجيبوا لنداء الجهاد، الذي يصدر من الحاكم الشرعي - بلا استثناء - وذلك في ظروفهم الطبيعية، تطبيقاً لمبادئ العدل والمساواة في الإسلام.

إلّا أنه، من العدل والانصاف - أيضاً - أن نؤمن باختلاف الناس في قدراتهم العقلية، وفي مدى استيعابهم واستجابتهم لمضامين الرسالة، وكذلك في قدراتهم الذاتية وظروفهم الموضوعية التي تؤهلهم لأداء الواجبات بتفاصيلها، والالتزام بالسلوكيات المطلوبة بدقتها. لذلك قال الرسول الأعظم ﷺ: «إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدْر عقولهم». وقال ﷺ في حديث شريف آخر: «إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهوا به، حتى تنظروا كيف عقله؟»[1]. صحيح أن هنالك جامعاً مشتركاً بين جميع المسلمين في أداء العبادات كفريضة الحج - مثلاً - فالجميع يلبس ملابس الإحرام ويؤدي المناسك، إلّا أنّ هنالك فوارق كبيرة في النوايا والطموحات والرؤية لهذه الفريضة. فهل تحقّق المزيد من الالتزام والتزوّد بعوامل التقوى، ومراجعة حسابات الذات لتطهيرها من الذنوب والآثام العالقة، وتجدّد التعهد القلبي والمبايعة الحقة مع الله سبحانه على طريق الاستقامة والهدى، لدى جميع الحجّاج بالدرجة ذاتها؟!.

---

(١) الكليني، محمد بن يعقوب: الأصول من الكافي، مج ١، كتاب العقل والجهل، الحديث الأول ص٢٣، رقم ١٥. عن الإمام الصادق. راجع كتاب المحاسن لأحمد ابن محمد بن خالد البرقي ١/ ١٩٥/ ١٧ عن سليمان بن إبراهيم الجعفري رفعه بلا كلمة (أمرنا). والحديث الثاني المصدر ذاته ص٢٦، رقم ٢٨. وفي شرح الكافي للمولى محمد صالح المازندراني ١/ ٣١٩/ ١٨ عن الإمام الصادق.

أتخطّر ها هنا كلمة للإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج؟»[١].

إن الأداء الواعي لهذه الفريضة وغيرها، بتمام شعائرها ومكتسباتها هي من نصيب القلة المركزة في الوعي والالتزام من المسلمين المؤمنين المتميّزين.

هذه الفوارق الطبيعية في المجتمع تستلزم - بالمقابل - اختلافاً في التوجيه التربوي، والتغذية الإيمانية المتناسبة مع وضعها، وهكذا يكون التوجيه التربوي العام لجميع المسلمين، ولكن يختلف في كثافته وتفاصيله، وتحمّل عبء المسؤوليات الإدارية والجهادية حسب حالة المتلقين في خصوصياتهم ومواقعهم، فالأمة الإسلامية كلها تتلقى التربية الجهادية العامة، بالاضافة إلى ذلك تراعى خصوصية الجيش الإسلامي وفرق المجاهدين في تكثيف التوجيه والتربية، كما أن لقادة الجيش والولاة وعموم الإداريين في الدولة، خصوصيات متميّزة، تستوجب توجيهاً ميدانياً متناسباً مع أوضاعهم وطموحاتهم.

انطلاقاً من هذه الجوانب المتقدمة، تناولنا هذا الفصل في المباحث الثلاثة التي تقدّم ذكرها، على ضوء ما ورد في نهج البلاغة.

---

(١) المجلسي، العلامة الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار، ج٢٧، رقم٣٠، ص ١٨١.

المبحث الأول

الأمة الإسلامية

وفيه ثلاثة مطالب:

★ المطلب الأول : الخطاب العام للتوجيه المعنوي ★

★ المطلب الثاني : بناء الإيمان والعقيدة في القلوب ★

★ المطلب الثالث : الأخلاق العامة ★

المجاهدون أبناء الأمة الإسلامية وحصنها

إن الأمة الإسلامية بكلّ شرائحها وأصنافها وتقسيماتها هي بمثابة المتلقي الأساس لخطب وأحاديث الإمام علي عليه السلام، وذلك لأنها هي موضوع التوجيه، وساحة التربية والجهاد، ومركز أهداف الرسالة الإسلامية. ومن خلال التربية العامة للأمة - عبر الخطب والأحاديث العامة - أنتجت هذه الأمة قوافل من المجاهدين ونماذج نادرة من القادة والإداريين المخلصين، الذين قدّموا تضحياتٍ جسام، وملؤوا صفحات مشرقة من حضارة الأمة والتاريخ الإنساني، فيها صور فذّة - ليس لها مثيل- في العطاء والإخلاص والتضحية إلى درجة الاستشهاد في سبيل الله.

إن هذه الخطب العامة تبقى متلازمةً مع توجيهات الإمام التربوية لعموم الأمة في تبيان واجباتها الجهادية، ومن هذه الطريقة التربوية العامة، تظهر إمكانيات تركيز التربية للحلقات الأصغر داخل الدائرة الاجتماعية الواسعة، أي لتربية النخب من قادة الجيش والولاة والإداريين وكتائب المجاهدين، ومن يمتلك أهلية تحمل المسؤولية في إدارة العملية الجهادية وتنميتها وتنفيذها.

فالأمة -إذاً- هي محور التربية الجهادية، لذلك انصبّت اهتمامات الإمام في هذه الخطب العامة في اتجاه الاهتمامات الإسلامية العامة، من تنمية المعنويات، إلى البناء الإيماني، وترسيخ القيم الأخلاقية النبيلة، وذلك لتعزيز اللّحمة الداخلية في المجتمع، والانسجام والتوحد تحت الراية الشرعية. يقول الإمام علي عليه السلام: «وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابُرَ والتقاطع..»[١]. وفي تجاوز الحساسيات الشخصية والحسابات الخاصة، يقول الإمام علي عليه السلام: «من أشرف أعمال الكريم غفلتُهُ عمّا يعلم»[٢]. وبذلك يتم توجيه السعي نحو إقامة أسس الإسلام في الحياة، وخدمة المسلمين في أسمى صورة وأنبلِ عطاء، بعد إقناعهم بأحقيّة المسيرة الجهادية التي يسلكونها ضمن أُسس الإيمان. وعليه فقد أحاط الإمام عليه السلام بخطبه العامة، عقول الناس وعواطفهم ومشاعرهم، كما وجّه طموحاتهم نحو قيم الرسالة وبناء الآخرة. وبالمحصّلة يبدو أن الخطابة هي الوسيلة الأبرز والأنجح لإيصال المتلقين إلى الالتزام بالمنهج الشرعي، عقيدةً وعبادةً وسلوكاً وجهاداً. يقول العلامة ابن ميثم البحراني في مقدمة شرحه لنهج البلاغة: «الخطابة في الإقناع أنجح من غيرها،.. والخطابة هي المتكلّفة بحمل الجمهور على التصديق بها.. وقد أشار التنزيل الإلهي إلى هذه الصناعة في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٣]. فسبيل ربك هو الديانة الحقيقية،

(١) باب الرسائل، رقم ٤٧.
(٢) باب الحكم، رقم ٢٢٢.
(٣) سورة النحل ١٦/ ١٢٥.

والحكمة هي البرهان، وذلك لمن يحتمله، والموعظة الحسنة هي الخطابة، وهي لمن قصر عن درجة البرهان، أو جادلهم بالتي هي أحسن أي بالمشهورات المحمودة... فإذن الخطابة صناعة وافرة النفع في مصالح المدن، وبها تدبّر العامة وتنتظم أحوالهم»[١].

ان الهدف من خطب الإمام عليه السلام العامة، هو امتداد الهدف السامي لخطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، في هداية الناس واصلاحهم، وبالفعل «إنه لما كان الغرض من وضع الشرائع والسنن إنّما هو نظام الخلق وجذبهم إلى الجناب المقدس عن دار الغرور، وتذكيرهم لمعبودهم الحق، وتعليمهم كيفيّة السلوك للصراط المستقيم... وعُلم من ذلك أنّ علياً كان مقرّراً للشريعة ومثبتاً لها، وموضحاً لمقاصد سنن الرسول صلى الله عليه وآله، ومفرّعاً لأحكامها، إذ كان هو الممنوح بجوامع العلم والمطّلع على الأسرار الإلهيّة لم يكن مقصوده من جميع الأقوال المنقولة عنه إلّا الغرض الأول من وضع الشرائع والسنن..»[٢].

على ما تقدّم، نتناول هذا المبحث ضمن المطالب التالية:

المطلب الأول: الخطاب العام للتوجيه المعنوي.

المطلب الثاني: بناء الإيمان والعقيدة في القلوب.

المطلب الثالث: الأخلاق العامة.

---

(١) البحراني، العلامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، في مقدمة المؤلف، ج ١، ص ٨٧-٨٨.

(٢) المرجع ذاته، ص١٠٢.

المطلب الأول

الخطاب العام للتوجيه المعنوي

تحتاج الأمة إلى توجيه معنوي مستمر، لكي تبقى صلبةً في مواقفها، عزيزةً في أداء رسالتها، خصوصاً إذا كانت تحيطها شبكات عدوانية تتربص بها الدوائر من كل جانب. فإذا حصل خللٌ أو تقصير في هذا التوجيه، ستهتز معنويات الأمة، ممّا يترك أثراً سلبياً على مسيرتها الجهادية، فتبدأ التنازلات والتراجعات وبذلك ستعين الأمة جلّاديها بالانقضاض على الضّحيّة. بينما يعالج الإمام هذه المسألة بطريقة معاكسة، تظهر العزّة الإسلامية والكرامة الإيمانية والهيبة المعنوية عند مواجهة العدو المتجبّر، حيث يوقع في داخله الهزيمة النفسية التي تعين المجاهدين في القضاء على العدو. فقد «قيل له: بأي شيءٍ غلبتَ الأقران؟ فقال عليه السلام: ما لقيتُ رجلاً إلّا أعانني على نفسه». «قال الرضي: يومئ بذلك إلى تمكن هيبته في القلوب»[1]. «وقد شاع وذاع عن الإمام أنّه ما بارز بطلاً إلّا وأرداهُ قتيلاً، ومن هنا كان البطل إذا برز للإمام وجهاً لوجه أخذ الجزع بمجامع قلبه، ولا شيء أقسى على الإنسان وأشد وطأً من شعوره بأنه

---

(١) باب الحكم، رقم ٣١٨.

مقتول لا محالة، فكان هذا الشعور المدمّر القاتل عوناً للإمام على خصمه»[١].

وهكذا كان الإمام عليه السلام يشحن الأمة بالتوجيهات المعنوية عملياً على الدوام، عبر خطبه وإرشاداته، لتتمكن الأمة من الوقوف في وجه التحديات، محافظةً على دينها وقيمها، غير متأثرة بالإعلام الجاهلي والاستكباري، شديدةً في جهادها ضد أعداء الإسلام والإنسانية. خصوصاً في ظروف الشدة والعُسرة، ليطرد عنها إمكانية حصول الهزيمة النفسية في المواجهة، والتي هي - في الحقيقة - أشدّ أثراً وأعمق جرحاً في الأمة من الهزيمة العسكرية في ساحات القتال. لأن الهزيمة العسكرية يمكن معالجتها بإعادة الكَرّة مرةً ثانية، أو استيعاب الصدمة ومن ثمّ ترتيب الاستعدادات القتالية بشكل أفضل.

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• الواقعية في التفكير، والوضوح في التعامل.

٢• استنهاض الهمم وأخذ الدروس والعبر من التجارب.

٣• الالتفاف حول العلماء الربانيين والتزوّد منهم.

• الواقعية في التفكير، والوضوح في التعامل:

من الضروري تكريس شعارات الأمة الإسلامية في الحياة العامة، من إقامة نظام العدالة الإسلامية، إلى الوقوف إلى جانب المظلومين في أخذ حقوقهم من الظالمين، ورعاية ضعفاء المجتمع،

---

(١) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص ٤٠٦.

وذلك لأن هذه الشعارات - التي هي في حقيقتها أهداف الإسلام - تمنح الأمة معنويات عالية للتصدّي وتحمّل المسؤولية الشرعية.

إلّا أن هذه الشعارات الكبيرة تتطلب طريقةً واقعية في التفكير، ووضوحاً في التعامل، لأن الواقعية والوضوح تكمن فيهما الحالة الصحيّة، والتي تعني الانطلاقة الصحيحة لبناء الحياة بحكمة ودراية. فهي لا تحصل إلّا بعد دراسة وافية، واستشارات جدّية لمعرفة قدرات الأمة، وتنمية معنوياتها في المواجهات المستمرة ضد اغراءات الحياة المادية، والاستعداد الفعلي لخوض غمار المواجهة الجهادية ضد أعداء الإسلام والإنسان.

إن التفكير الواقعي يبعد الأمة عن مخاطر التهوّر في مواجهات غير محسوبة العواقب، وكذلك يبعدها عن حالات الاستسلام والخوف والهزيمة. وكلما ازدادت مسؤولية الإنسان المسلم في الحياة، كلما ازدادت حاجته للتفكير الواقعي والوضوح في التعامل. وأكثر المسلمين حاجةً للواقعية والوضوح هو القائد الأعلى للأمة. ولا نقصد بذلك الشؤون المادية والتقنيّة وإن كانت هي مطلوبة، إلّا أننا نقصد الحالة المعنوية التي هي أساس القوة في المواجهة بالاعتماد على حُسْن الإعداد التقني، المتوّج بإمدادات الغيب الإلهي في دعم المؤمنين.

إن من أبرز أسس التفكير الواقعي والوضوح، أن يبتعد المسلمون عن طريقة التمنّي، وحالة الآمال الخيالية، والحسابات العاطفية، وتكهنات المنجمّين والمتطلعين، وهم ينشدون تطبيق تلك الشعارات؛ وتنفيذ قرارات الإصلاح والجهاد. وذلك لأن هذه الحالات السلبية تعني الهروب من تحمل المسؤولية، والأدهى من ذلك إنها

ستقضي على إبداع الإنسان، وتحوُّل دون نموّه في الحياة. بينما التفكير الواقعي يوفر للإنسان وعياً خلّاقاً في معنوياته، وبصراً متعمقاً في إمكانياته، ليحقق الإنجازات المطلوبة. قال الإمام علي عليه السلام: «واعلموا أن الأمل يُسهي العقل، ويُنسي الذكر. فأكذبوا الأمل فإنّه غُرور، وصاحبه مغرور»(١).

يقول العلامة البحراني في شرحه مبيّناً مضار الأمل للدنيا: «أنه يوجب سهو العقل: أي عمّا هو الأوْلى بالإنسان في معاشه ومعاده وهو ظاهر، فإن الآمِل أبداً مشغول الفكر بما يأمله ويرجوه.. يستلزم إعراضه عن غيره إذْ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

... وأما تكذيبه فبذكر الموت ودوام إحضاره بالبال، وملاحظة المرجع والمعاد، وإنما سمّي ردّ الأمل تكذيباً له لأن النفس حال توقعها للمأمول تكون حاكمة حكماً وهمياً ببلوغه ونيله فإذا رجعت إلى صِرف العقل وملاحظة الموت وجواز الانقطاع به عن بلوغ ما رجته، كان تجويزها ذلك مكذّبا لما جزم به الوهم من الأحكام ورادّاً له»(٢).

«ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج، وقد قال له: إن سرت يا أمير المؤمنين، في هذا الوقت، خشيت ألا تظفر بمرادك، من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام: أتزعمُ أنّك تهدي إلى الساعة التي مَنْ سارَ فيها صُرف عنه السّوءُ؟ وتُخوّفُ مِنَ الساعة التي من سارَ فيها حاقَ به الضُرُّ؟ فمن صَدَّقك بهذا فقد كذّب

(١) باب الخطب، رقم ٨٦، نهاية الخطبة.

(٢) البحراني، العلامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٩٨.

القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيْل المحبوب ودفع المكروه، وتبتغي في قولك للعامل بأمرك أنَ يوليَك الحمدَ دونَ ربّه، لأنّك - بزعمك - أنت هديْتَه إلى الساعة التي نالَ فيها النفع، وأمنَ الضّرَّ!!

ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال: أيّها الناس، إيّاكم وتعلّمَ النجوم، إلّا ما يُهتدَى به في بَرّ أو بحرٍ، فإنها تدعو إلى الكهانة، والمُنَجّمُ كالكاهن، والكاهنُ كالسّاحر، والساحر كالكافر! والكافر في النار! سيروا على اسم الله»[١].

وفي هذه الخطبة يذكر الشارحون كلاماً كثيراً منهم ابن أبي الحديد، فبعد شرحه الطويل يخلص بالنتيجة التالية، فيقول: «إلّا أن المعلوم ضرورةً من دين رسول الله صلى الله عليه وآله إبطال حكم النجوم وتحريم الاعتقاد بها، والنهي والزجر عن تصديق المنجمين، وهذا معنى قول أمير المؤمنين في هذا الفصل: «فمن صدقك بهذا فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله». ثم أردف ذلك وأكده بقوله: كان يجب أن يحمد المنجم دون الباري تعالى، لأن المنجّم هو الذي هدى الإنسان إلى الساعة التي ينجح فيها.. فهو المحسن إليه إذاً، والمحسن يستحق الحمد والشكر، وليس للباري سبحانه إلى الإنسان في هذا الإحسان المخصوص، فوجب ألّا يستحق الحمد على ظفر الإنسان بطلبه، لكنّ القول بذلك والتزامه كفر محض»[٢].

وقال الإمام عليه السلام ضمن وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام:

---

(١) باب الخطب، رقم ٧٩. حاق به الضر: أحاط به. الكاهن: من يدّعي كشف الغيب. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٥٨٨، رقم ٦٩٨و٦٩٩.

(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة مج٣، ج ٦، ص٣١٨-٣١٩.

«. . وإياك والاتكال على المُنى فإنّها بضائعُ النّوكى»[١]. إن الاعتماد على أسلوب التمنّي للوصول إلى الأهداف، يشبه الاستغراق في أحلام اليقظة، غير الواقعية. وبالفعل «لا فرق بين التأوه على ما فات، وتمني الخيرات، كلاهما سخف وضعف. . ولا راحة إلّا بالكدّ والتعب، وقال قائل: لا يزال المرء مقروناً بالتواني ما دام مقيماً على وعد الأماني»[٢].

وهكذا تركزت أقوال الإمام في الناس نحو تقوية الجانب المعنوي في الشخصية بالتفكير الواقعي لا الخيالي.

● **استنهاض الهمم وأخذ الدروس والعبر من التجارب:**

من المعلوم أن الإنسان يمتلك قدرات ذاتية كامنة في ذاته، إذا تمّ تنميتها وتوجيهها إيجابياً فستأخذ طريقها في الإنماء والعطاء.

هذا التوجيه المعنوي بحاجة إلى أسلوب استنهاضي عام يهزّ الوجدان من الأعماق، كي تتساقط شوائب الخوف والحرص، والتعلق بالدنيا، واللامبالاة والشعور بالضعف واللّاثقة بالذات، وذلك لأداء الأدوار المهمة في الحياة. كما وأن هذا الاستنهاض يستلزم التذكير بالتجارب الأخرى لأخذ العبر والدروس منها، لغرض استثمار الفرص الزمنية للمزيد من الطاعة، والعبادة،

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. ضمن مقطع عنوانه (وصايا شتّى). المُنى ـ جمع مُنية ـ بضم فسكون: ما يتمناه الشخص لنفسه ويعلل نفسه باحتمال الوصول إليه. النّوكى: جمع أنوك، وهو كالأحمق وزناً ومعنى. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٤٩.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص٥١٨.

والانطلاق نحو التضحية، قبل انقضاء العمر وضياع الفرص. يقول الإمام في إحدى خطبه وهو يعظ الناس: «فليعمل العاملُ منكم في أيام مَهَلِهِ، قبل إرهاق أجَلِهِ، وفي فراغه قبل أوان شُغُلِهِ. وفي متنفَّسه قبلَ أن يؤخذ بكَظمِهِ، وَلْيُمهّدْ لنفسِهِ وقدَمه، وَلْيتزوّدْ من دار ظعْنِهِ لدار إقامته. فاللهَ اللهَ أيّها الناس، فيما اسْتحفَظَكَم من كتابه، واستودَعَكم من حقوقه، فإنّ الله سُبحانه لم يخلُقْكم عَبَثاً، ولم يترُكْكُمْ سُدىً. ولم يَدَعْكُمْ في جَهالة ولا عَميٍّ، قد سمّى آثارَكم، وعلم أعمالكم، وكتب آجالكم.. فاستدركوا بقيّة أيّامكم، وأصبروا لها أنفسكم... والسعيد من وُعظ بغيره، والشقي مَن انْخدَعَ لهواهُ وغرورهِ..»[1]. فالسعيد في حياته «من اعتبر حال غيره، فشاهد بعين بصيرته مصير الظالمين، فخاف عاقبتهم فعدل عن طريقهم، وتذكّر حال المتقين فمالَ إلى جادّتهم وسلك مسالكهم، ورغّب في الأتّعاظ بالغير بذكر استلزامه للسعادة»[2]. وعلى نقيضه الشقي المخدوع باتباع أهوائه.

مبادرة التوجيه والتربية منذ الصغر:

وهنا لا بد أن نشير إلى أهمية المبادرة للتوجيه الإيجابي لقدرات الإنسان الذاتية، ولتكن البداية في صغر السنّ، لأن الإنسان في صغره كالصفحة البيضاء، وكالأرض الخصبة. فالنفس - آنذاك - مستعدة

---

(١) باب الخطب، رقم ٨٦، مقطع (عظة الناس). إرهاق الأجل: أن يُعْجلَ المفرّط عن تدارك ما فاته من العمل، أي: يحول بينه وبينه. الكَظَم _ بالتحريك _ الحلق، أو مخرج النّفَس، والأخذ بالكظم: كناية عن التضييق عند مداركة الأجل. سمّى آثاركم: بيّن لكم أعمالكم وحدّدها. أو بمعنى: قد رفع منازلكم إن أطعتم. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٨٨-١٨٩.

(٢) البحراني، العلامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٩٥.

لقبول التوجيه، وإنها لتستنهض بالتذكير بتجارب الآخرين وعاقبة الدنيا، لذلك قال الإمام عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «. . .وإنّما قلبُ الحدث كالأرض الخالية ما أُلقي فيها من شيء قبلتْهُ. فبادَرْتُك بالأدَب قبلَ أن يْقسُوَ قلبُك، ويشتغلُ لُبُّك، لتستقبلَ بجدّ رأيك من الأمر ما قد كفاك أهلُ التجارب بُغْيَتَهُ وتجربتَهُ، فتكونَ قد كُفيتَ مؤونةَ الطّلَب، وعُوفيتَ من علاج التجربة. . . أي بُني، إني وإن لم أكنْ عُمّرتُ عُمُرَ منْ كان قبلَي، فقد نظرتُ في أعمالهم، وفكرّتُ في أخبارهم، وسرْتُ في آثارهم. . فعرفْتُ صفوَ ذلك من كَدَره، ونفعَهُ من ضرره، . . . واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأن الخالق هو المميت. . وان الدنيا لم تكن لتستقرّ إلّا على ما جعلها الله عليه من النعماء، والابتلاء، والجزاء في المعاد. .»[١].

نلاحظ في هذا المقطع تشبيهاً بين قلب الإنسان في مرحلة الصبا وبين الأرض الخالية من الزرع، يشير في ذلك إلى دلالات تربوية في غاية الأهمية، فمن ناحية تمنح المربي الثقة بدوره ليسرع ويبادر بعمله التوجيهي والتعليمي، ومن ناحية ثانية تبين أهمية مرحلة الطفولة والشباب لكسب المعارف والأخلاق، وبالفعل «إن التعلم إنما هو في الصّبا، وفي المثل: الغلام كالطين يقبل الختم ما دام رطباً. . . وكان يقال: التعلّم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلّم في الكبر كالخطّ في الماء»[٢]. «وذلك أن قلب الحدث لمّا كان خالياً من

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. من مقطع بدايته (أيْ بُني، إنّي لمّا رأيتُني قد بلغتُ سنّاً). جدّ رأيك: أي محققّه وثابته. كفاه بغية الشيء: أغناه عن طلبه. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ص٦٨٤، رقم ٣٦١٣،٣٦١٤.

(٢) المعتزلي، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، مج٨،ج ١٦، ص ٢٤٨.

الانتقاش بالعقائد وغيرها مع كونه قابلاً لما يلقى إليه من خير أو شر فينتقش به، أشبهَ الأرض الخالية من النبات والزرع القابلة لما يلقى فيها من البذر، وتقدير الكبرى: وكل قلب كان كذلك فيجب أن يسبق إليه ببذر الآداب وغرس الحكمة»[١].

● **الالتفاف حول العلماء الربّانيين والتزوّد منهم:**

فهم الذين يمنحون الناس فكراً صافياً، وعلماً نافعاً، لا يجاملون أحداً على حساب المبادئ، ولا يهادنون سلطةً على حساب تعاليم الإسلام، يؤدون واجباتهم الشرعية من دون أن تأخذهم في الله لومة لائم. إن الالتفاف حول هذه النخبة الصالحة من علماء الدين، والتزوّد المستمر منهم علمياً وفقهياً وسلوكياً وأخلاقياً، دليل على اليقظة العامة لدى الناس، واستعدادهم لاستلهام معاني الحياة الإسلامية، والتربية الصالحة من المنابع الأصيلة. قال الإمام في عهده لمالك الأشتر: «وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء»[٢].

وبالفعل يأمر الإمام بالتوجّه إلى العلماء وتوجيه الأسئلة إليهم للاستفادة من علومهم لحلّ المعضلات الفكرية والشرعية، لا لأغراض جدلية تعنتيه، لذلك قال عليه السلام لسائل سأله عن معضلة: «سَلْ تفقّهاً، ولا تسأل تعنُّتاً، فإن الجاهل المتعلّم شبيهٌ بالعالم، وإن العالم المتعسّف شبيهٌ بالجاهل المتعنّت»[٣].

وهذه الدعوة للمتعلّم والعالِم من قبل الإمام علي عليه السلام للتخلص

---

(١) البحراني، كمال الدين بن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٥.

(٢) باب الرسائل، رقم ٥٣، بداية مقطع.

(٣) باب الحكم، رقم ٣٢٠.

من آفات الطريق، تأتي ضمن محاولات كشف علماء السوء الذين يجاملون ذوي النفوذ على حساب الإسلام، ويجرّؤون أهل المعاصي في انحرافهم بتجميل أعمالهم، وعدم تخويفهم من عواقب تلك الآثام والذنوب، وهذه الطبقة من العلماء - إن صحّ التعبير - هي عادة في متناول الساسة المتسلطين على الناس، فهم وعاظ السلاطين، يجاملونهم ويزيّنون أعمالهم مهما كانت، ويؤمّنون العاصين منهم. بل يخدّرونهم بأقوالهم وتصرفاتهم ليبقوا دون تزوّدٍ في العلم والتقوى، وبالنتيجة ليزداد الناس بعداً عن النمو الإيماني والتوجيه المعنوي، في هذا الصدد يقول الإمام عليه السلام: «. . وآخرُ قد تَسمّى عالِماً وليس به، فاقتبسَ جهائِلَ من جُهّال، وأضاليلَ من ضُلّال، . . قد حَمَلَ الكتاب على آرائه، وعطَفَ الحقّ على أهوائه، يُؤْمِنُ الناسَ من العظائِم، ويُهَوّنُ كبيرَ الجرائم، يقول: أقفُ عند الشُبهات، وفيها وقع، ويقول: أعتزلُ البِدَع، وبينَها اضطَجع، فالصورةُ صورة إنسان، والقلبُ قلب حيوان، لا يعرف بابَ الهدى فيتّبعَهُ، ولا بابَ العَمَى فيصُدَّ عنه، وذلك ميّتُ الأحياء»[1].

بينما يشير الإمام في الخطبة ذاتها إلى مصدر العلوم الإسلامية ومنابع الثقافة القرآنية وأدلة الإيمان الواعي وهم عترة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فيقول: «. . فأين يتاهُ بكم! وكيف تَعْمَهُون وبينكم عترةُ نبيّكم! وهم أزمّة الحقّ، وأعلامُ الدين، وألسنةُ الصدق! فأنْزِلوهم بأحسن منازل القرآن، وَرِدُوهم وُرُودَ الهيم العِطاش»[2]. فهل يصدق

(١) باب الخطب، رقم ٨٧، مقطع (صفات الفسّاق).

(٢) الخطبة ذاتها، مقطع (عترة النبي صلى الله عليه وآله). تعمهون: تتحيّرون. أنزلوهم بأحسن منازل القرآن، أي: أحلوا عترة النبي من قلوبكم محل القرآن، من التعظيم والاحترام. وان =

ما وصل إليه المسلمون من الضياع والفُرقة والضعف، وفيهم القرآن الكريم والعترة الطاهرة؟ يتساءل الإمام على سبيل الإنكار لحالهم وما وصلوا إليه، لذلك خاطبهم وجهاً لوجهٍ بذلك، ومراده إلى أين تذهبون؟ ولماذا تتحيّرون؟ وفيكم عترة الرسول، أي أهل بيته عليهم السلام، فقد قال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وانهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[1]. هذا وقد «استعار لهم لفظ الأزمّة،

= القلب هو أحسن منازل القرآن. رِدوهم ورود الهيم العِطاش: أي هَلُمّوا إلى بحار علومهم مسرعين كما تسرع الهيم ـ أي الإبل العطشى ـ إلى الماء. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٥٤.

(١) ابن حنبل، الإمام أحمد: المسند ٢٢/٢٢٦/١٠٦٨١ عن أبي سعيد الخدري. وبزيادة قليلة في ص٢٥٢ رقم ١٠٧٠٧ عن أبي سعيد أيضاً. والطوسي، محمد بن الحسن: الأمالي ١/٢٥٥/٤٦-٥٢ عن أبي سعيد الخدري. وذكره بطوله الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين ٣/١١٨/٤٥٧٦ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بطوله. وأخرجه عن طريق أخر عن زيد ابن أرقم في مستدركه ٣/٦١٣/٦٢٧٢ ثم قال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه. وقد أورده الذهبي في (تلخيصه) مؤكداً صحته. راجع الطبراني في المعجم الكبير ٥/١٦٧/٤٩٧٠ عن زيد بن أرقم. == == وفي المعجم الصغير ١/١٣١ عن أبي سعيد. والنسائي في خصائص أمير المؤمنين ص٩٣ عن زيد بن أرقم في حجة الوداع بغدير خم، ورواه ابن حنبل والطبراني عن زيد بن ثابت: قال الهيثمي: رجاله موثوقون. ورواه أيضاً أبو يعلى بسند لا بأس به والحافظ عبد العزيز الأخضر وزاد أنه قال في حجة الوداع. وقال المناوي: ووهم من زعم وضعه كابن الجوزي. قال السمهودي: وفي الباب ما يزيد على عشرين من الصحابة. راجع: فيض القدير للمناوي ٣/١٩/٢٦٣١. ونشير إلى ضرورة توجيه قوله ﷺ: «أحدهما أكبر من الآخر». ففي تقديري إن القرآن الكريم أكبر من العترة الطاهرة باعتباره الحبل الممدود من السماء إلى الأرض كما في تكملة النص الكريم، فهو الثقل الالهي =

ووجه المشابهة كونهم قادة للخلق إلى طريق الحق، كما يقود الزمام الناقة إلى الطريق، وكذلك استعار لهم لفظ الألسنة، ووجه المشابهة كونهم تراجمة الوحي الصادق، كما أنّ اللسان ترجمان النفس، ويحتمل أن يريد بكونهم ألسنة الصدق أنهم لا يقولون إلّا صدقاً»[١]. فلا يجاملون أهل المعاصي بل يحذّرونهم من مغبة أعمالهم، وفي الوقت ذاته يفتحون أمامهم طرق التوبة الخالصة لوجه الله، فالعلماء الرّبانيون لا تجد في قواميسهم التوجيهية معنىً للقنوط واليأس ولا معنىً للاطمئنان من عذاب الله، فيصف أحدهم الإمام عليه السلام بقوله: «الفقيه كل الفقيه مَنْ لم يُقنّطِ الناسَ من رحمة الله، ولم يُؤْيسْهُمْ من رَوْحِ الله، ولم يُؤْمِنْهُمْ من مكرِ الله»[٢]. فالفقيه المرشد هو الذي يسلك بالناس طريق الخوف والرجاء.

= الأكبر من العترة في هذه الناحية. واما العترة فهي الثقل الأكبر من القرآن الكريم باعتبار الجانب التطبيقي في حياة الناس.

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٣١٢.

(٢) باب الحكم، رقم ٩٠. رَوْح الله ـ بفتح الراء ـ لطفه ورأفته. مكر الله: أخذه للعبد بالعقاب من حيث لا يشعر. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٤٥٢٦، ٤٥٢٧.

المطلب الثاني

بناء الإيمان والعقيدة في القلوب

إن القلوب هي موقع الإيمان بالله سبحانه وتعالى، الواحد العادل الخالق المهيمن والقادر الرّازق، وبرسوله خاتم الأنبياء والرسل الحبيب المصطفى ﷺ، وبكتابه الكريم، وهو منطلق الصدق والطاعة والاستقامة والإخلاص قال الله جلّ وعلا في كتابه العزيز: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[1] فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى، أنزله إلى النبي الأكرم ﷺ الروح الأمين «يعني جبرائيل عليه السلام وهو أمين الله لا يغيّره ولا يبدله وسمّاه روحاً لأنه يحيي به الأرواح بما ينزل من البركات، وقيل لأنه جسم روحاني (على قلبك) يا محمد، ويقرأه عليه فيعيه ويحفظه بقلبه، فكأنه نزل به على قلبه، وقيل معناه لقّنك الله حتى تلقّنتهُ وثبّتَه على قلبك وجعل قلبك وعاءً له»[2] نعم إن مصدر سلامة النوايا وصفاء الأخلاق وإخلاص

---

(١) سورة الشعراء، ٢٦/ الآيات ١٩١-١٩٥.

(٢) الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل: مجمع البيان، المجلد الخامس، ج١٩ ص١٨٣-١٨٤.

الأعمال من القلب يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[١].

فحينما تتلقّى القلوب مبادئ الإسلام الحقّة، تقترب نحو دوائر الرحمة الإلهية، حيث النجاة من أزمات الدنيا وعقبات الآخرة، وكلما يزداد الإنسان إيماناً، يزداد يقيناً بعقيدته، واخلاصاً في طاعته، وبذلك يستسلم الإنسان المؤمن بتمام قواه ومشاعره ونواياه لإرادة الله سبحانه، ويتجلى ذلك الاستسلام بالطاعة التامة لأوامره تعالى في العبادات والسلوكيات، ومن أبرز مظاهرها الدالة على صدق المؤمن، الاستجابة لنداء الجهاد. فإذاً ببناء الإيمان والعقيدة في القلوب، سيكون الإنسان صلباً في جهاده وتضحياته، من هنا يقول الإمام عليه السلام: «الإسلامُ هو التسليمُ، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداءُ هو العمل»[٢]. وله عليه السلام عدة أقوال في هذا المجال، نذكر منها: «. . الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، وأصفاه خِيَرَةَ خلقه، وأقام دعائمه على محبّته. .»[٣]. «الحمد لله الذي شرَع الإسلام. . فجعله أمناً لمن عَلِقَهُ، وسِلْماً لمن دخله. . ونجاةً لمن صدّقَ، وثقةً لمن توكّلَ، وراحةً لمن فوّضَ، وجُنّةً لمن صَبَر. فهو أبلجُ المناهج، وأوضح الولائج. .»[٤]. ويقول عليه السلام عن

---

(١) سورة الشعراء، ٢٦/ الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٢) باب الحكم، رقم ١٢٥.

(٣) باب الخطب، رقم ١٩٨، بداية مقطع (فضل الإسلام).

(٤) باب الخطب، رقم ١٠٦. ضمن المقطع الأول (دين الإسلام). عَلِقه _ كَعَلِمَهُ _ تعلّق به. الجُنّة _ بضم الجيم _: الوقاية والصّون. أبلج المناهج: أشد الطرق وضوحاً =

الإيمان: «الإيمان معرفةٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان»[١]. «إن الإيمان يبدو لُمْظةً في القلب، كلّما ازداد الإيمانُ ازدادت اللُّمظة»[٢]. فهو يبدأ كبصيص من نور الهدى، ثم يزداد ويتوسع ليملأ القلب، بمعنى: «إن الإيمان وهو التصديق بوجود الخالق تعالى أول ما يكون في النفس يكون حالةً، ثم لا يزال يتأكد بالبراهين والأعمال الصالحة إلى أن يصير ملكة تامة»[٣].

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• اللجوء الدائم إلى الله سبحانه وتعالى.

٢• القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٣• أئمة أهل البيت عليهم السلام حجج الله على الخلق.

٤• الآخرة هدف المجاهدين الأكبر.

= وأنورها. الولائج: جمع وليجة، وهي الدخيلة المذهب.التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٢٦١.

(١) باب الحكم، رقم ٢٢٧.

(٢) باب غريب كلامه، رقم ٥. قال الرضي: «اللُّمْظة مثل النُّكتة أو نحوها من البياض [كالنقطة الواضحة]، ومنه قيل: فرسٌ ألْمظُ إذا كان بجحْفلتِهِ شيءٌ من البياض». وقوله هذا بعد ذكره لحديث الإمام. والجحفلة: للخيل والبغال والحمير بمنزلة الشفّة للإنسان. واللمْظ «من لمَظ_ لَمْظاً: أخرج لسانه بعد الأكل أو الشرب فمسح به شفتيه، وهو مأخوذ من اللُّمْظة. أي: نكتة البياض، لأن الذي يبدو من اللسان عند إخراجه يسير كاللُّمْظة». معلوف، لويس: المنجد في اللغة، حرف اللام، ص٧٣٤.

(٣) البحراني، كمال الدين بن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٣٤٧.

● **اللجوء الدائم إلى الله سبحانه وتعالى:**

وذلك بالتوكل عليه وإطاعته في السرّاء والضراء، وعبادته بإخلاص، والتوبة والاستغفار له، والدعاء له والتضرّع إليه في الملمّات والأزمات خصوصاً. سأكتفي بذكر بعض الجمل من وصيّة الإمام عليه السلام لولده الحسن عليه السلام بما يتناسب مع المقام، فقد قال: «..أحْيِ قلبَك بالموعظة، وأمِتْهُ بالزّهادة، وقوّه باليقين، ونوّره بالحكمة... وألْجِئْ نفسَك في أمورِكَ كلّها إلى إلهك، فإنّك تُلجئها إلى كهفٍ حريزٍ، ومانعٍ عزيز، وأخلصْ في المسألة لربّك، فإنّ بيده العطاء والحرمان.. فاعتصمْ بالذي خلقَكَ ورزقَكَ وسوّاكَ، ولْيكُنْ له تعبّدُك، وإليه رغبتُك، ومنهُ شفقتُك.. واعلم يا بُني أنه لو كان لربّك شريكٌ لأتَتْكَ رُسُلَهُ، ولرأيت آثارَ ملكه وسُلطانه، ولعرفتَ أفعاله وصفاته، ولكنّه إلهٌ واحدٌ كما وصف نفسَه.. فإذا عرفتَ ذلك فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعلَهُ في صغَر خَطَرِهِ، وقلّةِ مقدرتِهِ، وكثرةِ عجْزه، وعظيم حاجتِهِ إلى ربّه، في طلبِ طاعته، والخشيةِ من عقوبتِهِ، والشّفقَةِ من سُخْطِهِ، فإنّه لم يأمُرْكَ إلّا بِحَسَنٍ، ولم يَنْهك إلّا عن قبيح... اطرَحْ عنك وارداتِ الهُمُوم بعزائم الصَبَر وحُسنِ اليقين..»[1].

فإذاً، اللجوء الدائم وفي كل الأحوال وتقلبات الحياة إلى الله سبحانه يبني الإيمان في القلب بناءً يقينياً صلباً، يرشح للإقدام إلى

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. من المقاطع التالية التي تبدأ بـ (أحْيِ قلبك بالموعظة)، و(فتفهّم يا بُني وصيتي، واعلم أن مالك الموت..)، و(واعْلم يا بُني أنه لو كان لربّك شريك..)، التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٤٠.

التضحية والفداء في سبيل الله. يقول العلّامة البحراني في شرحه: «أن يخلص في دعائه ومسألته لربّه. إذ كان ذلك من شرائط الإجابة، واستدرجه إلى الإخلاص بقوله: فإن بيده العطاء والحرمان ليشتد الانجذاب إليه والإعراض عن غيره»[١]. هذا وإن اللجوء الدائم إلى الله سبحانه بالطاعة والدعاء والمسألة، يمنح المؤمن قوةً هائلة على الصبر وتحمّل المشاق، لأنه يعلم يقيناً بارتباطه القلبي بالقدرة العظمى في هذا الوجود، لذلك يطالب الإمام بقوله: «اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحُسن اليقين»، والمعنى «أن يحذف عن نفسه ما يرد عليها من الغموم والهموم ومصائب الدنيا بالصبر الجازم الثابت عن حُسن اليقين بالله تعالى وبأسرار حكمته وقضائه وقدَره، وذلك أن يعلم يقيناً أنّ كلّ أمر صدر عن الله وابتلى به عباده من ضيق رزق أوسعته، وكل أمرٍ مرهوبٍ أو مرغوب فعلى وفق الحكمة والمصلحة بالذات»[٢]. وأرى من المفيد أن أشير إشارة عاجلة - في هذا الموقع - إلى أن مسألة التوسّل وطلب الشفاعة إلى الله ﷻ، من النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته والصالحين من العباد، لا تتعارض مع التوجه المباشر إليه سبحانه بالتوسل والدعاء، وذلك باعتبارهم شفعاء، ووسطاء، لهم كراماتهم الخاصة عند الله، فكما انهم طرق الله في التبليغ والهداية والصلاح، فهم -أيضاً- وسائل التوصل إلى الله، لغرض إنقاذ وخلاص العباد، العاصين منهم بالتحديد. فقد قال رسول الرحمة ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من

(١) البحراني، كمال الدين ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١١.

(٢) المرجع ذاته، ج٥، ص٥٨.

أُمتي»[١]. وفي حديث شريف آخر قال ﷺ: «ثلاثة يشفعون إلى الله ﷻ فيُشفّعون: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»[٢]. وقال ﷺ أيضاً: «. . في المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقل المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً»[٣]. وعن جابر بن عبد الله قال الحبيب المصطفى: «إن الله يُخرج قوماً من النار بالشفاعة»[٤]. ومن المؤكد -يقيناً- لا يقصد من الشفاعة - هذه- كونها تجري بشكلٍ مستقلٍ عن إرادة الله ورضاه - إطلاقاً-، وهذه المسألة جوهرية في سبيل تحقيق هدف التوسل والشفاعة. يقول العلّامة الطبرسي في تفسيره[٥] للآية المباركة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ

(١) ابن حنبل، أحمد: مسند الإمام أحمد: ج٤، ص٧٨، رقم الحديث ١٢٨١٠. وفي فتح القدير للشوكاني أورد الحديث الشريف في شرح الآية ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ سورة الأنبياء ٢١/ ٢٨. وأخرجه الفريابي وعبد بن حميد والحاكم وصححه البيهقي في الأسماء والصفات. فتح القدير ٣، ص٤٠٦، وكذلك الشيخ الطوسي في الأمالي ص٣٨٠، رقم ٨١٥/ ٦٦، عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «لكل نبيٍّ شفاعة وإني خبأت شفاعتي لأهل الكبائر من امتي يوم القيامة».

(٢) النوري الطبرسي، الشيخ حسين: مستدرك الوسائل ١١/ ٢٠/ ١٢٣١٩ عن الإمام الصادق عن آبائه عن علي. وأخرجه الصدوق في الخصال ص١٥٦-١٥٧ عن علي.

(٣) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار ٨/ ٥٨/ ٧٥ عن العقائد للشيخ الصدوق ص٨٥-٨٦ عن أئمة أهل البيت، باب «اعتقادنا في الشفاعة. .» وتكملة الحديث قوله ﷺ: «والشفاعة لا تكون لأهل الشك والشرك. . بل تكون للمؤمنين من أهل التوحيد».

(٤) النيسابوري، مسلم: صحيح مسلم: ج١، ص٤٤١ رقم ٢٨٠ باب: أدنى أهل الجنة منزلة عن جابر بن عبد الله.

(٥) الطبرسي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، مج١، ج٣، ص٢٩٧.

وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾(١)، «أي لغير المؤمنين مطلقاً، فأما المؤمنون فقد يشفع بعضهم لبعض، ويشفع لهم أنبياؤهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾(٢). فالهدف من التوسل بهم وتقديمهم شفعاء إلى الله سبحانه، هو نيل رضاه وعفوه، كما نقرأ في الدعاء المعروف بدعاء التوسّل بالنبي ﷺ وأهل بيته، «اَللّـهُمَّ إِنّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ مُحَمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، يا اَبَا الْقاسِمِ يا رَسُولَ اللهِ يا إِمامَ الرَّحْمَةِ يا سَيِّدَنا وَمَوْلانا إِنّا تَوَجَّهْنا وَاسْتَشْفَعْنا وَتَوَسَّلْنا بِكَ إِلَى اللهِ وَقَدَّمْناكَ بَيْنَ يَدَيْ حاجاتِنا يا وَجيهاً عِنْدَ اللهِ إِشْفَعْ لَنا عِنْدَ اللهِ. .»(٣).

● القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة:

لقد حفل كتاب نهج البلاغة بالكثير من المواقع في خطب ورسائل ووصايا وحِكم الإمام عليه السلام، حول بيان أهمية وفضل وقدسية القرآن الكريم، والسنة النبوية وذكر الرسول الأعظم ﷺ. ومما لا شك فيه أنّ الإيمان بالقرآن والسنة، من الأعمدة الأساسية للإسلام بعد

---

(١) الآية الكريمة من سورة البقرة، ٢/ ٢٥٤.

(٢) الآية المباركة من سورة الأنبياء، ٢١/ ٢٨.

(٣) القمي، الشيخ عباس: مفاتيح الجنان، طبع دار القارئ بيروت _لبنان، ص١٤٨-١٥٠. رواه محمد بن بابويه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام. فالنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وسيلتنا إلى الله سبحانه. يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين في دعائه يوم عرفة: «. .ربّ صلّ على أطائب أهل بيته الذين اخترتهم لأمرك، وجعلتهم خزنةَ علمك وحفظة دينك، وخلفاءك في أرضك، وحججك على عبادك، وطهّرتهم من الرجس والدّنس تطهيراً بإرادتك، وجعلتهم الوسيلة إليك والمسلك إلى جنتك». الصحيفة السجادية: دعاء رقم ٤٧ ص١٩٠.

الإيمان بوحدانيّة الله سبحانه، فلا يتكامل البناء الإيماني إلّا بهما. فلو تخلّفَ المسلمون عن معرفتهما حق المعرفة، ووعيهما حقّ الوعي، لضعف البناء الإيماني في القلوب، بل لانهارت قواعده الأساسية مما يترك الأجواء مفتوحة أمام عمليات الغزو الثقافي والفكري من قبل أعداء الإسلام، كما حدث لدى بعض أقسام المجتمع المسلم في مراحل معينة. وعليه من المفروض أن يتم توجيه الأمة بكاملها إلى هذا الوعي المتقدم لأنه أساس التحرك الجهادي والتضحوي، وعدم الاكتفاء بتلاوة القرآن ومطالعة السنة، بل من المفروض أن يجعل المسلمون الكتاب العزيز والسنة الطاهرة في مقام الاقتداء التام، كاقتداء المأموم بإمامه المنقذ له، واستلهام التلميذ دروسه العقدّية والإيمانية من المنابع الأساسية، فيقرؤها بوعي، ويتدبرها بعلم ودراية، ويُطبقها بإخلاص تام.

فقد قال الإمام في إحدى خطبه: «إنَّ أفضلَ ما توسّل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمانُ به وبرسوله. . . أفيضوا في ذكر الله فإنّه أحسنُ الذكر، وارْغبوا فيما وَعَدَ المتّقين فإنّ وَعْدَهُ أصدَقُ الوعد. واقتدوا بهَدْي نبيّكم فإنّه أفضلُ الهَدْيِ، واستنّوا بسُنّته فإنها أهدى السُّنَن. وتعلّموا القرآن فإنّه أحسنُ الحديث، وتفقّهوا فيه فإنه ربيعُ القلوب، واستشفوا بنوره فإنهُ شفاءُ الصدور، وأحسنوا تلاوتَهُ فإنّهُ أنفعُ القَصَص. وإنّ العالِمَ العامِلَ بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيقُ من جهله، بل الحجّةُ عليه أعظمُ، والحسرةُ لهُ ألزم، وهو عند الله ألوَم»[1].

(١) باب الخطب، رقم ١١٠.

وقال عليه السلام في خطبة أخرى وهو يعظ عموم الناس: «. . . فاللهَ اللهَ أيّها الناس، فيما استحفظكم من كتابه، واستودعكم من حقوقه، فإنّ الله لم يَخلُقْكم عبثاً، ولم يترُكْكم سُدىً، ولم يدعْكُم في جهالة ولا عمىً، . . . وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكلّ شيء، وعمّر فيكم نبيّهُ أزماناً، حتى أكمل له ولكم - فيما أنزل من كتابه- دينه الذي رَضيَ لنفسه، وأنهى إليكم - على لسانه - مَحابّهُ من الأعمال ومكارهَهُ، ونواهيه وأوامره»[١].

وقال عليه السلام في إحدى حكمه: «وفي القرآن نَبأ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكْمَ ما بينَكم»[٢]. وقال عليه السلام أيضاً: «. .وإنَّ القرآن ظاهرُهُ أنيقٌ، وباطنُهُ عميقٌ، لا تَفنى عجائبُهُ، ولا تنقضي غرائبُهُ، ولا تُكشفُ الظلماتُ إلّا به»[٣].

وقال في بيان فضل القرآن: «واعْلموا أنّ هذا القرآنَ هو الناصحُ الذي لا يغُشُّ، والهادِي الذي لا يُضلُّ، والمحدِّثُ الذي لا يكذِبُ. وما جالَسَ هذا القرآنَ أحدٌ إلّا قام عنه بزيادةٍ أو نقصانٍ: زيادةٍ في هدىً، أو نقصانٍ في عَمىً. . فإنَّ فيه شفاءً من أكبر الداء: وهو الكفر والنفاق، والغَيُّ والضَّلال، فاسْألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبّه، . . . واعلموا أنّه شافعٌ مشفَّع، وقائلٌ مصدَّقٌ، وأنّه من شَفَع له القرآنُ يوم القيامة شُفّعَ فيه، ومَنْ مَحَلَ به القرآنُ يوم القيامة صُدّقَ عليه، فإنّه يُنادي مُنادٍ يومَ القيامة: ألا إنّ كلّ حارثٍ مُبْتلى في

(١) باب الخطب، رقم ٨٦.
(٢) باب الحكم، رقم ٣١٣.
(٣) باب الخطب، رقم ١٨، في نهاية الخطبة.

حَرْثه وعاقبة عمله، غيرَ حَرَثةِ القرآن، فكونوا من حَرَثته وأتباعَه، واستدلّوهُ على ربّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتّهموا عليه آراءكم، واسْتغِشُّوا فيه أهواءكم.

. . . وإنّ الله سبحانه لم يعظْ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنّه حبلُ الله المتينُ، وسَبَبَه الأمينُ، وفيه ربيعُ القلب، وينابيعُ العلم، وما للقلب جِلاءٌ غيرهُ، مع أنّه قد ذهب المتذكّرون، وبقي النّاسون أو المتناسون. فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شرّاً فاذهبوا عنه، فإنّ رسول الله - ﷺ - كان يقول: «يا بْن آدم، اعمل الخير ودع الشّر، فإذا أنت جوادٌ قاصد»[١]. ومراده من قوله: «واستنصحوه على أنفسكم. .»، «أي إذا أشار عليكم بأمرٍ وأشارت عليكم أنفسكم بأمرٍ يخالفه فاقبلوا مشورة القرآن دون مشورة أنفسكم. [و] إذا خالفت آراؤكم القرآن فاتّهموها بالخطأ، واسْتغشّوا أهواءكم، أي ظنّوا فيها الغش، وارجعوا إلى القرآن»[٢].

ومن كلام له عليه السلام قبل موته: «أيها الناس، . . . أما وصيّتي: فاللهَ لا تُشركوا به شيئاً، ومحمّداً ﷺ، فلا تُضيّعوا سنّته. أقيموا هذيْن العموديْن، وأوْقدوا هذيْن المصباحيْن، وخلاكُم ذمٌّ ما لم تشْرُدُوا. .»[٣].

---

(١) باب الخطب، رقم ١٧٦. من مقطع (فضل القرآن)، ومقطع (القرآن). مَحَلَ به: كاده بتبيين سيئاته عند السلطان، كناية عن مباينة أحكامه لما أتاه العبد من أعماله. جواد قاصد: أي مستقيم أو قريب من الله والسعادة. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٢٢٣٩، ٢٢٢٤. والحديث الشريف أورده المجلسي في بحار الأنوار، ٧٢/ ٣٢١/ ٤٩ عن علي.

(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٤١٥.

(٣) باب الخطب، رقم ١٤٩.

فالإسلام قائم على الإيمان و«الإخلاص لله وحده في الأقوال والأفعال، والالتزام بما جاء محمد ﷺ في السلوك لا بمجرد النية والقول والمظهر والشعائر... أما قوله «ما لم تشردوا» فمعناه ما لم تنحرفوا عن خط الإخلاص لله، والعمل بسنة رسول الله»[١].

أي: ليس عليكم ذمّ ولا ينالكم سوء، ما دمتم متمسكين بتوحيد الله وبنبوة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وغير فارّين أو معرضين عنهما.

● **أئمة أهل البيت عليهم السلام حجج الله على الخلق:**

فهم استمرار لنهج النبي ﷺ في سيرته وأخلاقه وعلومه وعموم سنته الشريفة، وعليه فإن الإيمان بهم، والاقتداء بهديهم والسير على نهجهم، من مستلزمات بناء الإيمان والعقيدة في القلوب، وذلك لأن منهجهم هو إحياء لمنهج الرسول المصطفى ﷺ، وسيرتهم هي امتداد لسيرته المباركة. وفي هذا المنحى نلاحظ الكثير من التأكيدات في كتاب نهج البلاغة، فمثلاً قال الإمام عليه السلام في صفة أهل البيت عليهم السلام: «هم موضعُ سرّه، ولَجَأ أمره، وَعَيْبَةُ علمه، ومَوْئلُ حُكمه، وكهوفُ كتبه، وجبالُ دينه، بهم أقامَ انحناء ظهره، وأذهب ارتعاد فرائصه... لا يُقاس بآل محمد ﷺ من هذه الأمة أحدٌ، ولا يُسوَّى بهم من جَرَتْ نعمتُهُم عليه أبداً: هم أساسُ الدين، وعمادُ اليقين. إليهْمْ يفيءُ الغالي، وبهمْ يُلحقُ التالي. ولهمْ خصائصُ حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة..»[٢].

---

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص٣٥١.

(٢) باب الخطب، رقم ٢.

قال الشيخ محمد عبده في شرحه: «اللّجَأ محركة الملاذ وما تلتجئ إليه.. العيبة.. بالفتح: الوعاء. والمؤمل: المرجع. أي أن حكمه وشرعه [النبي الأعظم ﷺ] يرجع إليهم، وهم حفّاظ كتبه يحوونها كما تحوي الكهوف والغيران ما يكون فيها. والكتب: القرآن، وجَمَعه لأنه فيما حواه كجملة ما تقدمه من الكتب ويزيد عليها ما خصّ الله به هذه الأمة. كنّى بانحناء الظهر عن الضعف وبإقامته عن القوة، وبهم آمنه من الخوف الذي ترتعد منه الفرائص. [حتى قال] يريد أن سيرتهم صراط الدين المستقيم، فمن غلا في دينه وتجاوز بالإفراط حدود الجادة فإنما نجاته بالرجوع إلى سيرة آل النبي وتفيّءَ ظلال أعلامهم، وقوله «وبهم يلحق التالي»: يقصد به أن المقصّر في عمله المتباطئ في سيره الذي أصبح وقد سبقه السابقون إنما يتسنّى له الخلاص بالنهوض ليلحق بآل النبي ويحذو حذوهم»[١].

وكذلك نفهم من قول الإمام عليه السلام: «ولهم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة»، إن إمامة أئمة أهل البيت عليهم السلام -الاثني عشر- قائمة على وصيّة النبي الأعظم ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٢]. وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الصدد منها قوله ﷺ: «إنّ وصيي وموضع سرّي.. علي بن أبي طالب»[٣].

---

(١) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ص ٣٣،٣٤.

(٢) سورة النجم ٥٣/ ٣-٤.

(٣) الهيثمي، الحافظ نور الدين: مجمع الزوائد ٩/ ١١٣-١١٤ عن سلمان الفارسي وقال: رواه الطبراني وفيه ناصح بن عبد الله وهو متروك. وأورد الشيخ الصدوق في كتابه: «من لا يحضره الفقيه» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله ﷺ: «إن علياً وصيي وخليفتي وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين ابنتي، والحسن والحسين =

وقوله ﷺ: «لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة..»[١].

يقول الشارح المعتزلي: «أما الوصية فلا ريب عندنا أنّ علياً عليه السلام كان وصيّ رسول الله ﷺ.. ولسنا نعني بالوصية النص والخلافة، ولكن أموراً أخرى لعلها - إذا لُمحت - اشرف وأجل، [حتى يقول].. إنه عليه السلام كان أولى بالأمر وأحقّ، لا على وجه النص [كما تذهب الامامية]، بل على وجه الأفضلية، فإنه أفضل البشر بعد رسول الله ﷺ، وأحقّ بالخلافة من جميع المسلمين»[٢]. بينما يقول الشارح البحراني في قوله عليه السلام: «ولهم خصائص حق الولاية»: إشارة إلى أن ولاية أمور المسلمين وخلافة رسول الله ﷺ لها خصائص هي موجودة فيهم.. وقوله: «وفيهم الوصية والوراثة»، إشارة إلى اختصاصه عليه السلام بوصية رسول الله ﷺ [بالخلافة]»[٣].

= سيدا شباب أهل الجنة ولداي، من والاهم فقد والاني ومن عاداهم فقد عاداني..». ج٤ ص ٤٢٠ رقم ٥٩٢٠. راجع صفحة الاهداء رقم ٣، هامش رقم ٢.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الامارة باب (الناس تبع لقريش) ج٦ ص٤ رقم ١٨٢٢ عن جابر بن سمرة. وقريب منه ص٣ من المصدر ذاته. وصحيح البخاري ٢٢/ ١٧٠/ ٦٦٨٢ عن جابر بن سمرة. وكذلك الإمام أحمد في مسنده ٤٢/ ٣٥٤/ ١٩٩٢٠. للوقوف على الأحاديث الشريفة في هذا المعنى بمختلف الأسانيد والمتون، راجع الصدوق، ابن بابويه القمي: الخصال، أبواب الاثني عشر، الخلفاء والأئمة بعد النبي ﷺ اثنا عشر، ص٤٦٦-٤٨٠، الأحاديث من رقم ٦-٥١.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج١، ص١١٠-١١٢.

(٣) البحراني، كمال الدين ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج١، ص٣٠٧.

من هو حجّة الله في زمن غيبة الإمام؟

إن هذا السؤال -في تقديري - يُعدّ مصيرياً في حياة المسلمين اليوم، وبالفعل من يمثّل خلافة النبي ﷺ، بعد أئمة أهل البيت عليهم السلام؟ ومن يمتلك صلاحية قيادة الأمة في جهادها وقتالها ضد الأعداء؟ أهي الحكومات المتعاقبة في إدارة شؤون المسلمين!؟ أم هي الحركات الإسلامية التي تنظّم مجاميع شبابية في برامج سياسية وتربوية خاصة؟ هذا السؤال - بتفريعاته- يبقى ضمن مسؤولية الواعين في الأمة والحريصين على هويتها المبدئية ومصالحها العامة.

والذي نلاحظه من خلال تأكيدات الإمام عليه السلام على الالتزام بنهج الامامة، يبدو لي ان المسلمين الشيعة الإمامية لديهم الوضوح التام لهذه المسألة الخطيرة، فهم باختصار يعتبرون الأئمة الاثني عشر من أهل البيت -بعد رسول الله ﷺ- هم حجج الله على العباد، فالتراث المهم الذي خلّفوه للمسلمين -بالرغم ممّا تعرضوا إليه من مظالم- قد منح الفقهاء منهم القدرة الكافية في المحافظة على الموازين الشرعية لاستنباط الأحكام والفتاوى في اطار العبادات بتفاصيلها، ولمواكبة التطورات العصرية وضبطها شرعياً في المعاملات أيضاً. إن هؤلاء الفقهاء المراجع هم الذين يملكون صلاحيات النيابة العامة للإمام في عصر الغيبة في شأن المسائل الشرعية كما في الشأن السياسي والجهادي أيضاً، وبذلك يضمن المسلمون الشيعة -الاثنا عشرية - بقاءهم في خط الامامة، من خلال تمسكهم بعلمائهم المراجع، باعتبارهم الامتداد الشرعي لولاية الإمام الثاني عشر المنتظر، فقد قال رسول الله ﷺ: «لو لم يبق من الدهر إلا يومٌ لبعث الله تعالى رجلاً

من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»[١]. ولكي يبقى هذا الارتباط حيوياً مع النيابة العامة للإمام، اشترط العلماء تقليد المرجع الحي ابتداءً، ولا يحق للمقلِّد -بالكسر- البقاء على تقليد ومتابعة فتاوى المرجع الميّت، إلّا بإجازة المرجع الحي، وذلك ليعود إليه في المسائل المستجدة خصوصاً على المستوى الحركي والجهادي[٢]. يقول الإمام السيد محسن الحكيم: «..لا يجوز تقليد الميت ابتداءً»[٣]. «إذا بقي على تقليد [المجتهد] الميت فاستجدت له بعض المسائل التي لا يستطيع معرفة فتوى الميت فيها، وجب الرجوع فيها للحي..»[٤]. ان هذا الحل العملي ساري المفعول على المستوى الفردي الشخصي، والمستوى الجمعي الحزبي - أيضاً-. إنه -كما يبدو لي- الحلّ الذي يمنح الأمة حيويّة متجددّة في حركتها، ويصونها من الاختراقات المحتملة، وينقذها من حالات التطرّف والعنف والجمود بكل ما تعنيه هذه الحالات من ابتلاءات تعاني منها الأمة الإسلامية اليوم.. يقول الدكتور محمد حسين الصغير: «وكانت المرجعية الدينية.. تؤدي مهمتها بأمانة وإخلاص في كل الاتجاهات وعلى أعلى المستويات، ولم تتحكم في تعيينها العوامل السياسية

---

(١) ابن حنبل، الإمام أحمد: المسند ٢/ ٢٤٠/ ٧٣٤ عن علي بن أبي طالب. ورمز السيوطي لحسنه، قال المناوي: قال ابن الجوزي فيه ياسين العجلي، قال البخاري وفيه نظر. فيض القدير ٥/ ٣٣٢/ ٧٤٨٩.

(٢) يتفق العلماء المراجع على هذه المسألة، راجع عموم الرسائل العملية لهم، في الفصل الأول _التقليد_

(٣) الحكيم، الإمام السيد محسن: منهاج الصالحين، قسم العبادات، ص٦، مسألة ٥.

(٤) الحكيم، السيد محمد سعيد: منهاج الصالحين، قسم العبادات، ص١٤، مسألة ٩.

وإرادة السلطان، ولم تتفاعل مع الحكومات الزمنية بإيحاء أو توجيه، وإنما تتحقق مرجعية الأعلم والأمثل تلقائياً من قبل أهل الخبرة العلمية، وتتلقى قرارها الأمة بالرضا والغبطة والقبول. ولم يتفق ولو لمرّةٍ واحدةٍ أن نجح أعداء الفكر الإمامي، أو طواغيت السياسة الحاكمة، في أن يفرضوا مرجعاً واحداً في خلال اثني عشر قرناً من الزمان، ولو خيّل لهم ذلك في استقطاب أحدهم آنياً..، فإن ذلك سرعان ما ينحطّ ويسقط عن الاعتبار والانظار»[١].

● **الآخرة هدف المجاهدين الأكبر:**

قال الإمام عليه السلام في إحدى مواعظه وهو يحمد الله سبحانه: «نَحْمَدُه على ما أخذ وأعطى، وعلى ما أبلى وابتلى، الباطنُ لكلّ خفيّة، والحاضرُ لكلّ سريرة، العالمُ بما تُكنّ الصّدور، وما تخونُ العيون..»[٢]. ومعنى أبلى: يعني أحسنَ، وابتلى: امتحن واختبر، «والحمد على النعمة يعبّر عن شكر المنعم، أما الحمد على الابتلاء فهو دليل الرضا بقضائه تعالى، والصبر على بلائه.. المراد بالباطن العالِم،.. والحاضر الشاهد، وعطف بعض هذه الجمل على بعض من باب عطف التفسير، ومعناها مجتمعة ومتفرقة أن اللهَ يعلمُ السّرَ وأخفى»[٣].

إن الذين يؤمنون بقلوبهم وبصيرتهم - حقّاً وصدقاً - بالمعاد يوم

---

(١) الصغير، د.محمد حسين: الفكر الإمامي، من النص إلى المرجعية، ص١٨.

(٢) باب الخطب، رقم ١٣٢. الإبلاء: الإحسان والإنعام. والابتلاء: الامتحان. الصالح، د. صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ١٧٢٢.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢ص٢٧٥.

القيامة، وبأن نتائج أعمالهم في الدنيا ستُعلِن يوم الحساب عن مصيرهم، يجدّون بإخلاص واستقامة وتضحية تامة، لتحقيق الهدف الأكبر والطموح الأسمى في الحياة، وهو نيل رضى الله سبحانه والفوز في الآخرة بالجنان حيث السعادة الأبدية. قال الإمام علي عليه السلام: «طوبى لمنْ ذَكَرَ المعاد، وعَمِلَ للحساب، وقَنِعَ بالكَفَاف، وَرَضيَ عن الله»[١]. وقال أيضاً: «نفَسُ المرء خُطاه إلى أجله»[٢]. «فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل»[٣].

هكذا يفكر المؤمنون حقاً، فالإنسان يعيش تجربته الحياتية ثم يموت، بل والدنيا بأكملها ستنتهي بما فيها. فالذي يفكر ويعمل فيها وهو يعلم فعلاً إنها زائلة، وانّه ميّت لا محالة، ومن ورائه محاسبة دقيقة لكل أعماله وتصرفاته وأقواله، هذا الإيمان الراسخ في القلب يزيد المؤمن قدرة في وعيه وبصيرته، لكي يعدّ العدّة لاستقبال هذه النهاية الحتمية، وذلك الحساب الدقيق الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله وتصرفاته إلّا أحصاها، وإنها في موضع المساءلة. لذلك يفكر بدّقةٍ في الدنيا ونهايتها، وحتمية موته ومفارقته لهذه الدنيا، ومعاده يوم القيامة، وخضوعه للحساب الدقيق.

عندها ستتبلور الرؤية الإيمانية التي يدعو إليها الإمام عليه السلام، بأن يتعامل المؤمن مع الدنيا بأنها مرحلة انتقالية، فهي ليست نهاية التاريخ، مع كونها مرحلة مصيرية، فهي كقاعة امتحان واختبار وابتلاء للمؤمن، مصيره في الآخرة على ضوء نتائج الاختبار

(١) باب الحكم، رقم ٤٤.
(٢) باب الحكم، رقم ٧٤.
(٣) باب الخطب، رقم ١١٤.

الدنيوي. فلذلك تنصب أنظاره وتطلعاته بسعي حثيث لتحقيق الهدف الأكبر في الآخرة. قال الإمام عليه السلام: «وَصَحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى»[١]. ومن هذا البناء الإيماني المتين في القلوب تنطلق مسيرة الاستقامة والعطاء والجهاد في سبيل الله، بصبرٍ وثبات، خوفاً من عقاب الله في حالة خذلان الحق، ورجاءً لمغفرة الله في حالة التوبة، وطمعاً بالسعادة في الآخرة، أي الجنة وهي الهدف الأكبر. قال الإمام عليه السلام: «. . فمنْ أشعرَ التقوى قلبَهُ بَرّزَ مَهَلُهُ، وفازَ عملُهُ. فاهْتبلوا هَبَلها، واعملوا للجنّة عَمَلَها: فإنّ الدنيا لم تُخْلَقْ لكم دارَ مُقام، بل خُلقتْ لكم مجازاً لتَزوّدوا منها الأعمال إلى دار القرار. فكونوا على أوْفازٍ. وقرّبوا الظّهور للزّيال»[٢]. قال ابن ابي الحديد في شرحه: «وأشعر فلانٌ التقوى قلبَه: جعله كالشعار له، أي يلازمهُ ملازمة شعار الجسد. وبرّز مَهَلُهُ. . أي مَنْ فاق شوطَه برز الرجل على أقرانه، أي فاقهم، والمهلُ شوط الفرس، واهتبلت غرّة زيد، أي اغتنمتها، والهبّال: الصياد الذي يهتبل الصيد أن يغرّه، وذئبٌ هبَلٌ أي محتال. . [والمعنى] أي اغتنموا وانتهزوا الفرصة، الانتهاز الذي يصلح لهذه الحال، أي ليكن هذا الاهتبال. بجدّ وهمّةٍ عظيمة. . «واعملوا للجنّة عملها»، أي العمل الذي يصلح أنْ يكون ثمرته الجنّة. . والأوفاز: جمع وفْز بسكون الفاء، وهو العجلة، والظهور: الرّكاب، جمع ظهرْ. وبنو فلان مظهرون، أي لهم ظهور ينقلون عليها الأثقال، . . والزّيال: المفارقة، زايله مزايلة، وزيالاً، أي فارقه»[٣].

---

(١) باب الحكم، رقم ١٤٧.

(٢) باب الخطب، رقم ١٣٢.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزالدين: شرح نهج البلاغة، مج٤، ج٨، ص٣٨٥.

فالذين ينظرون إلى الآخرة بأنها محطة الاستقرار في الحياة، يمهّدون بأعمالهم سبل الوصول العاجل ويهيئون الرواحل للرحيل والمفارقة عن دار الفناء، لينالوا هدفهم الأكبر، قال الإمام عليه السلام لولده الحسن: «..واعلم يا بُنيّ أنك إنّما خُلقتَ للآخرة لا للدنيا، وللفناء لا للبقاء، وللموت لا للحياة..»[١].

اقتران الإيمان بالعمل الصالح:

لقد وضّح الإمام أسس بناء الإيمان والعقيدة في القلوب، وأردف توضيحه بما ينعكس في شخصيّة المؤمن، على جوارحه وهَدْيه وأنفاسه، من مظاهر خيريّة واصلاحيّة في الوسط الاجتماعي العام. فيكون محضره محضر صلاحٍ وخير، ومجرد وجوده بين الناس يذكّرهم بالله سبحانه والآخرة، يدعو إلى الفضيلة، وينشر المحبة، ويطفئ الفتن، ويقرّب وجهات النظر. قال الإمام عليه السلام وهو يصف المتقين: «فمن علامة أحدهم.. الخيرُ منه مأمولٌ، والشرُّ منه مأمون..»[٢].

وقد احتوى كتاب نهج البلاغة نصوصاً كثيرة تظهر ضرورة الاقتران بين الحالة النظرية والتطبيق العملي، بين الادّعاء اللساني والأثر الميداني، أي بين الإيمان والعمل الصالح. فقد قال الإمام علي عليه السلام: «لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير العمل.. يَنْهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يُحبُّ الصالحين ولا يعَملُ عملَهم، ويُبغض المذنبين وهو أحدُهم..»[٣].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. بداية المقطع.

(٢) باب الخطب، رقم ١٩٣.

(٣) باب الحكم، رقم ١٥٠. من البداية.

وقال عليه السلام: «لا تجعلوا علْمَكم جَهْلاً، ويقينَكمْ شكّاً. إذا عَلِمْتُمْ فاعْمَلوا، وإذا تيقّنتُمْ فأقدْموا»(١).

فالإمام عليه السلام يطالب المسلمين بأن لا يستجهلوا علمهم بعدم العمل به، لأن العالم الذي لا يعمل بعلمه، هو جاهل عملاً، «ومن لم يَظهر أثر عمله فكأنه جاهل وعلمه لم يزد على الجهل، ومن لم يظهر أثر يقينه في عزيمته وفعله فكأنه شاكٌّ متردّد، إذ لو صحّ اليقين ما مرض العزم»(٢).

وقال الإمام عليه السلام: «أوْضَعُ العلمْ ما وُقفَ على اللّسان، وأرفَعُهُ ما ظَهَرَ في الجوارح والأركان»(٣). يقول ميرزا حبيب الله الخوئي في منهاجه: «العلم صورة حاصلة في الذهن، ونور يشعُّ على القلب فيكشف به الأشياء فينطلق العالم ببيانه، ويؤثر في جوارحه وأركانه، وله درجات ومنازل، فأوضع درجاته أن يقف على لسان العالم فيقول به ولا يعمل عليه، فهو حينئذ كالشجر بلا ثمر. فإذا عمل العالِم بعمله وظهر علمه في جوارحه وأركانه فقد بلغ إلى أعلى درجاته»(٤).

---

(١) باب الحكم، رقم ٢٧٤.

(٢) التميمي: أركان، صفوة شروح نهج البلاغة، ص٨٢٢-٨٢٣.

(٣) باب الحكم، رقم ٩٢. أوضع العلم: أي أدناه. ما وُقف على اللسان: أي لم يظهر أثره في الأخلاق والأعمال. أركان البدن: أعضاؤه الرئيسية، كالقلب والمخ. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٤٥٢٩-٤٥٣١.

(٤) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٢١، ص١٣٧.

المطلب الثالث

الأخلاق العامة

تلقّت الأمة الإسلامية الكثير من توجيهات الإمام عليه السلام في الشأن الأخلاقي العام، فقد عالج الإمام أزمات الحياة، ومسائل العيش المشترك، ودفَع إشكاليات العلائق الاجتماعية بتفتيت عقباتها وآجتثاث جذور الفرقة والمخاصمة والنزاع فيما بين المسلمين، بل في الاتجاه الإنساني العام. كل ذلك في زمن التلقي، في عصره عليه السلام، فكلما استفحلت ظاهرة سلبية بين الناس، أو نشأت في الوسط الاجتماعي حالات سيئة تنذر عن وقوع كوارث في المستقبل، سارع في معالجتها، فكان يقوّي العزائم الخيِّرة والمبادرات الإيجابيَّة، ويوفِّر لها مناخاً مناسباً لتنميتها واتساعها. ممّا فتح الآفاق أمام تلك التوجيهات العامة لتتجاوز عصرها، وبالفعل إن مفاعيلها أصبحت دائمية وضرورية للحياة الإنسانية عموماً، والإسلامية بالخصوص، وذلك لأن الأخلاق العامة هي الثوابت الرئيسة للضوابط السلوكية الصالحة لكل زمانٍ ومكان. ففي واقع المسلمين - اليوم - أزمات متعدّدة، قد تبلغ في تهديدها مستويات خطيرة، إلّا أن أشدّ تلك الأزمات ضراوةً هي أزمة الخُلق السامي، والتعامل الرفيع، والقدرة

على قبول الطرف الآخر، واستيعاب الرأي المقابل، والتعاون على أُسس البرّ والتقوى والمحبة، وتقاسم الأدوار لغرض البناء الحياتي، والابتعاد كليّاً عن أساليب التفكيك الاجتماعي، والسعي لتنقية النفوس من استعدادات العدوى، وقبول الأمراض الفتاكة، التي لو استفحلت لمزّقت الأواصر الإنسانية، وحوّلت المجتمع إلى كتلٍ متناحرةٍ وأشلاءٍ متناثرةٍ، في عودةٍ مؤلمةٍ إلى جاهليةٍ ماكرةٍ بأثوابٍ جديدة، بينما يريدنا الإسلام أن نتعاون ونتكاتف، انطلاقاً من المشتركات الإيجابيّة، من أجل الإنسان وبناء الحياة، فقد قال سبحانه وتعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[١].

وللإمام علي عليه السلام عدة أقوال في هذا الاتجاه منها: «فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شرّاً فاذهبوا عنه..»[٢]. بالتعاون على الخير، وحسن الخلق ونشر الفضيلة وقال عليه السلام: «وأكْرَمَ الحَسَبِ حُسنُ الخُلُق»[٣]. «ولا قرين كحُسن الخلق، ولا ميراث كالأدب»[٤]. «كفى بالقناعة مُلْكاً وبحُسن الخُلُق نعَيماً»[٥]. «مقاربةُ الناس في أخلاقهم أمْنٌ مِنْ غوائلهم»[٦]. «فالمقاربة في الأخلاق توجب الأنس والألفة،

---

(١) سورة آل عمران، ٣/ ١٠٣.

(٢) باب الخطب، رقم ١٧٦. ضمن مقطع عنوانه (القرآن).

(٣) باب الحكم، رقم ٣٨.

(٤) باب الحكم، رقم ١١٣.

(٥) باب الحكم، رقم ٢٢٩.

(٦) باب الحكم، رقم ٤٠١. غوائلهم: جمع غائلة، وهي العدواة والشرّ والحقد الباطن. الغوائل: الدواهي. معلوف، لويس: المنجد في اللغة، حرف الغين، ص٥٦٤.

وتصير سبباً للوداد والمحبة، وإذا تباعد الناس عن أحدٍ، يضمرون له الحقد ويكيدون له المكائد»[١].

أهمية الأخلاق وأهدافها:

ترتكز أهداف الأخلاق العامة في أقوال الإمام عليه السلام حول أهمية معرفة عظمة الشريعة الإسلامية، التي ترعى حقوق الإنسان وكرامته في الحياة، وتهدف إلى بيان حرمة الإنسان المسلم - نفساً وعرضاً ومالاً - وحمايته من الاعتداءات الخارجية المحتملة، والانتهاكات الشخصية الداخلية، بتثبيت حقوقه المشروعة، وواجباته المفروضة، وبذلك تسود لغة المساواة أمام القانون الإسلامي، وتنتزع صواعق التفرقة والتمييز والخلاف بين المسلمين. قال الإمام في إحدى خطبه: «. . وإنّما أنتم إخوانٌ على دين الله، ما فرّق بينكم إلّا خُبْثُ السّرائر، وسوءُ الضَّمائر. .»[٢]. وقال في خطبته القاصعة: «. . فإنّ الله سبحانه قد امْتنّ على جماعة هذه الأمّة فيما عقد بينهم من حَبْلِ هذه الألفةِ التي ينتقلون في ظلّها، ويأوونَ إلى كَنَفِها، بنعمةٍ لا يعرفُ أحدٌ من المخلوقين لها قيمةً، لأنها أرجحُ من كلّ ثَمَنٍ، وأجلُّ من كُلّ خطرٍ»[٣].

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• مبدئية الأخلاق العامة.

٢• معرفة هدفية حواسّ الإنسان، والاشتغال بإصلاح الذات.

٣• الأخلاق العامة للروابط والعلاقات الاجتماعية.

---

(١) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٢١، ص ٤٨٣.

(٢) باب الخطب، رقم ١١٣.

(٣) باب الخطب، رقم ١٩٢. ضمن مقطع (لوم العصاة).

● **مبدئية الأخلاق العامة:**

إن الأخلاق العامة، هي قواعد سلوكية، يدعو إليها الدين الإسلامي مبدئياً ويأمر بها، ليتحلّى بها الإنسان المسلم، والمجتمع الإسلامي. وليست المسألة خاضعة لحالات استرحامية مزاجيّة أو ذوقيّة مؤقتة في حالات محدودة. وإنما هي مجموعة قيم أصيلة وضوابط مبدئية، من أساسيات الإسلام، سواء أكانت في إطار التنفيذ والأداء، وجوباً أو استحباباً، أم في إطار الإعراض والابتعاد، حرمةً أو كراهةً. كل ذلك لتجتمع القلوب في ظل الإسلام على المحبة والوداد، وتتعاون الأمة فيما بينها على البرّ والتقوى.

إذن، فالإسلام هو دين المحبة والسلام، وحسن الخلق والمعاملة والوئام، قد خصّ الله سبحانه وتعالى هذه الأمة به، قال الإمام علي عليه السلام: «إنّ الله تعالى خصّكم بالإسلام، واستخلصكم له، وذلك لأنه اسْمُ سلامةٍ، وجِماعُ كرامةٍ. اصطفى الله تعالى منهجَهُ، وبيّن حُجَجَهُ، من ظاهر علمٍ، وباطن حِكَم..»[1].

إن الإمام عليه السلام يخاطب المسلمين في كل زمان ومكان في هذا الخطاب، «لأن الغرض منه التذكير بفضل الإسلام والحث على التمسّك بعروته، وأنه نعمة كبرى من الله سبحانه على كل من اهتدى بهدْيه، «وذلك لأنه اسم سلامة وجِماع كرامة». وحدّ الإسلام بهاتين الكلمتين هو الحدّ السليم والتعريف المستقيم على كتاب الله وسنة نبيّه، لأنه من مصدر الإسلام ومعدنه، من [الباب نفسه] الذي أمرنا

(١) باب الخطب، رقم ١٥٢. من مقطع (أئمة الدين).

الله أن ندخل منه إلى مدينة علمه وعلم رسوله.. كلمتان فقط هو الإسلام: سلامة وكرامة، وما عداهما بدعة وضلالة.

ويدخل في مفهوم السلامة العيش بلا مشكلات أي بلا تخاصم وتصادم، بل مع التعاون والتراحم، وبلا فوضى وفساد، بل مع الصلاح والنّظام، وبلا عصبية وتفرقة، بل مع العدالة والمساواة. ولا غش ورياء، ولا خيانة وأهواء..

أما الكرامة فكلمة جامعة تصدق على كل خير، على مبدأ المساواة بين الناس فلا فضل لأبيض على أسودٍ إلّا بالتقوى.. لأن الإنسان بما هو إنسان، من أيّ دين كان، في حَرَم محرم إلّا أن ينتهِك هو حرمة نفسه بالخروج على القانون والنظام..»[1].

فالمسألة إذن مبدئية من أصول الإسلام لذلك قال الإمام عليه السلام في أوائل خلافته: «إنّ الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّنَ فيه الخيرَ والشّرَ، فخُذوا نَهْجَ الخير تهتدوا، واصْدِفوا عن سَمْتِ الشّر تَقْصدوا.

الفرائضَ الفرائض! أدُّوها إلى الله تُؤَدّكُمْ إلى الجنّة. إنّ اللهَ حَرّمَ حراماً غير مجهول، وأحَلّ حلالاً غيرَ مَدْخول، وفضّلَ حُرمةَ المسلم على الحُرَم كُلّها، وشَدَّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها، «فالمسلمُ مَنْ سَلمَ المسلمون من لسانه ويده». إلّا بالحقّ، ولا يَحِلُّ أذى المُسْلم إلّا بما يَجبُ»[2].

---

(١) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص ٣٧٥.

(٢) باب الخطب، رقم ١٦٧. صَدَفَ: أعْرَض. والسّمت: الجهة. وتَقْصدوا: تعدلوا وتستقيموا. مدخول: معيب. مَعاقد الحقوق: مواضعها من الذّمم، بمعنى جعلها مرتبطة بالإخلاص والتوحيد لا تنفك عنه. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج =

فالقرآن الكريم بيّن طريق الخير والهدى، وأمر باتباعه، وميّزه عن طريق الشرّ، وأمر بالإعراض عنه. ثم أمر بأداء الفرائض الإسلامية، بالنيّة الخالصة لله سبحانه، وهي التي توصل إلى الجنة، بما تحمل من مشروع الإطاعة لله، وبما تعكس من صفاء وأخلاق وسلوك في الحياة. «ثم بيّن أن الله حرّم حراماً غير مجهول بل هو غاية الوضوح، وكذلك أحلّ حلالاً غير مدخول: أي لا عيب فيه ولا شبهة فلا عذر لمن تركه، وفضّل حرمة المسلم على الحُرَم كلّها، وهذا لفظ الخبر النبوي: حرمة المسلم فوق كلٍّ، حرمة دمه وعرضه وماله[١]. «وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها»: أي ربطها بهما، وأوجب على المخلصين المعترفين بوحدانيّته المحافظة على حقوق المسلمين ومراعات مواضعها، وقرن توحيده بذلك حتى صار فضله كفضل التوحيد. ثم عرّف المسلم ببعض صفات المسلم الحق، وهو من سلم المسلمون من يده ولسانه إلّا أن تكون يدُ حقّ أو لسانُ حقّ»[٢]. فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دم امرئٍ مسلمٍ إلّا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتلَ نفساً فيقتل بها»[٣].

= البلاغة، ص٣٩٩-٤٠٠. والحديث النبوي الشريف رواه البخاري في صحيحه ج١، كتاب الإيمان ٣- باب المسلم من سلم المسلمون.. رقم ١٠- عن عبد الله بن عمر.

(١) قال الرسول الأكرم ﷺ: «المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله..». ابن حنبل، الإمام أحمد: المسند، ج٤، ص٥٤٦، ١٥٥٨٩. عن واثلة بن الأسقع الليثي.

(٢) البحراني، العلامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٣) ابن حنبل، الإمام أحمد: المسند، ج١، ص٩٩، رقم ٤٣٩. عن أبي أمامه بن سهل عن الخليفة عثمان عن الرسول الأكرم.

وهكذا تنطلق الأخلاق الإسلامية من صميم القرآن الكريم والسُّنة الشريفة، من خلال ميدان الصراع المصيري في ذات الإنسان بين قوى الخير والصلاح من جانب، وقوى الشرّ والفساد من جانب آخر.

وكلما ازداد المسلم وعياً بدينه ازدادت أخلاقُهُ حسناً، لأنه سينتصر في نهاية المعركة لقوى الخير والالتزام في ذاته بنهي النفس عن الهوى والشهوات والتعلق بحبّ الدنيا. وإن هذا الانتصار الداخلي هو بمثابة الانطلاقة نحو الخُلُق السامي وحبّ الآخرين واشاعة السلام.

لذلك عاتب الإمام عليه السلام شريح بن الحارث قاضيه، حينما اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، وقال له في آخر كلامه: «شهد على ذلك العقلُ إذا خرجَ من أسر الهوى، وسَلمَ من علائق الدنيا»(١). وللإمام عليه السلام عدة أقوال وحكم في هذا الاتجاه، نذكر منها: «الحلْمُ غطاءٌ ساترٌ، والعقلُ حُسامٌ قاطعٌ، فاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقكَ بحلْمك، وقاتلْ هواك بعقلك»(٢). هنا يشبّه الإمام الحِلْمَ بالغطاء، وهو تشبيه في محلّه، لأنه يستر العيوب، فالإنسان الحليم الصبور لا تظهر حالة الغضب عليه، فيفقد توازنه، وربما «يتكلّم بما لا ينبغي من السب، ولا يرتكب عملاً من الضرب.. [وكذلك] يُسكت الجاهل تجاه حلمه فلا يصيبه بأكثر مما سفه في حقّه، فيستر -أيضاً- عيوبه بسكوته.

والهوى يصول على ما يوافقه كالسّبع الضاري، ولا يمكن قتله

(١) باب الرسائل، رقم ٣.
(٢) باب الحكم، رقم ٤٢٤.

إلا بسيف العقل الذي يردّه ويمنعه»[١]. وفي خطبة له محذّراً من متابعة الهوى قال عليه السلام: «العملَ العمل، ثم النهايةَ النهاية، والاستقامةَ الاستقامة ثم الصّبر الصّبرَ، والوَرعَ الوَرَعَ، إنّ لكم نهايةً فانتهوا إلى نهايتكم، وإن لكم عَلَماً فاهْتدوا بعَلَمكُمْ، وإنّ للإسلام غايةً فانْتهوا إلى غايته، واخْرُجُوا إلى الله بما افْتَرَضَ عليكم من حقّه، وبيّن لكم من وظائفه. أنا شاهِدٌ لكم، وحجيجٌ يوم القيامة عنكم»[٢].

إن الاستمرار على العمل الصالح والاستقامة إلى نهاية المطاف هو ضمان النجاح والفوز، «..ثم أمر بالاستقامة: أي على العمل. ثم بالصبر عليه، وحقيقته مقاومة الهوى لئلا ينقاد إلى قبائح اللذّات فيخرج عن الصراط. ثم بالورع، وهو لزوم الأعمال الجميلة.. ثم أشار إلى أن تلك النهاية.. وهي الأمر الذي خلقوا لأجله أعني الوصول إلى الله طاهرين عن رجس الشيطان»[٣].

- **معرفة هدفيّة حواسّ الإنسان، والاشتغال بإصلاح الذات:**

لقد زوّد اللهُ سبحانه وتعالى الإنسان بالحواسّ المعروفة، لتكون المنافذ الطبيعية لتلقّي المؤثرات اللفظية والصورية والسلوكية والنفسية. وهي - بالفعل - بوّابات مفتوحة لاستقبال التيارات الإيجابية والسلبيّة معاً. وهي - بالتأكيد - تعكس آثارها على مستوى العقيدة والأخلاق حسب استعدادات النفوس المتلقيّة لتلك التيارات، في حالتي القبول أو الرفض. وهذه المسألة بالغة الخطورة في هذا

(١) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٢١، ص٥٠٣.
(٢) باب الخطب، رقم ١٧٦، مقطع (الحثّ على العمل).
(٣) البحراني، العلامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة ج٣، ص ٣٣١.

العصر، وذلك لتزايد وتطوّر وسائل الاتصال بين أبناء البشر، وسهولتها على مستوى السمع والبصر بالتحديد. لذلك اعتنت أقوال الإمام عليه السلام لعموم الأمة الإسلامية على مرّ العصور، بهذه المسألة عناية فائقة، لضبط هذه الحواس وتهذيبها، عند أبوابها بالذات، عبر تربية النفس على ذلك، لغرض التمييز بين الصالح والطالح على ضوء الشريعة الإسلامية، فتفتح بوابة الحاسة لما يصلح النفس وينميها باتجاه التقوى والصلاح وخير الأمة، وتغلق أمام تيارات الهوى والاغراءات ومطالب النفس الأمارة بالسوء. وبذلك ينمو الإنسان في مدارج النضوج والتكامل الفكري والتهذيب الأخلاقي.

سنذكر بعض أقوال الإمام حول توجيه الحواس، والقلب، واللسان، لترقية الإنسان والأمة أخلاقياً، فقد قال عليه السلام في بيان عصيان الناس بالتوجيه الخاطئ لحواسّهم ومشاعرهم، وتوضيح نهايتهم المأساوية: «. . ومن عَشِقَ شيئاً أعْشى بَصَرَهُ، وأمرضَ قلبَه، فهو ينظُرُ بعينٍ غير صحيحةٍ، ويسمعُ بأُذُنٍ غيرِ سميعةٍ، قد خرقتْ الشهواتُ عقله، وأماتتِ الدنيا قلبَهُ، وولهتْ عليها نفسُهُ، فهو عبْدٌ لها، . . كيف نَزَلَ بهم ما كانوا يجهلون، وجاءهم من فراق الدنيا ما كانوا يأمنَون، وقدِموا من الآخرة ما كانوا يوعدون، فغيرُ موصوفٍ ما نَزَلَ بهم: اجتمعت عليهم سكرةُ الموت وحسرةُ الفوت. . ويتذكر أموالاً جَمعَها. . قد لزمتْهُ تبعاتُ جمعها، واشرف على فراقها، تبقى لمنْ وراءَه ينعمون فيها. .»[1].

---

(١) باب الخطب، رقم ١٠٩، من مقطع (عصيان الخلق). أعشاه: أعماه وأظلم بصره، من العشا وهو سوء البصر بالليل والنهار. وَلَهَتْ: حزنت وتحيّرت، من الوَلَه وهو الحزن، وقيل: هو ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد أو الحزن أو الخوف. ابن =

فالذي يعشق الدنيا والمال والهوى عطّل بصره وسمعه إلّا نحوها، فلا يرى سواها ولا يسمع من غيرها، وحقاً «لا منهج للمحب العاشق ولا قيم ولا عواقب في تصوّره وتفكيره إلّا المعشوق، فهو وحده عقله وسمعه وبصره.. «فهو عبد لها»، وإذن فالعبادة للمال لا لصاحبه وخُلقه وعلمه»[١].

بالرغم من أنه يرى الموت وهو يختطف أعمار الناس بغتةً، ويرى ويسمع حقيقة هذه النهاية المؤلمة حيث يترك ما جمع لأبنائه وهو سيسأل عنها ويحاسب عليها، ومع كل ذلك لا يعتبر ولا ينزجر لأن سمعه مغلق على الباطل وبصره لا يرى بعين البصيرة والعبرة. قال الإمام عليه السلام: «جَعَل لكم أسْماعاً لتعيَ ما عَنَاها، وأبصاراً لتجْلُوَ عنْ عَشاها.. فالقلوبُ قاسيةٌ عن حظّها، لاهيةٌ عن رُشدها، سالكةٌ في غير مضمارها! كأنّ المعْنيّ سواها، وكأنَّ الرّشدَ في إحراز دُنياها»[٢]. ومراده من قوله: «فالقلوب قاسيةٌ عن حظّها»، «أي أنها صلبت فلا يدخلها الحظ، وهذا كناية عن عدم العمل بما يوجب إسعادها. «لاهيةٌ عن رُشدها» فإنها مشغولة باللهو ذاهلة عن الرّشد. «سالكةٌ في غير مضمارها» المضمار هو المحل الذي يضمر فيه الخيل لتتهيأ للسباق، وإذا سلكت في غير ذلك المضمار فاتها السبق، وهكذا الإنسان الذي لا يعمل بما يُسعده.. «وكأن الرشد في إحراز دنياها» أي جَمْعها وحفظها لا في إحراز الآخرة، ولذا لا

= منظور، جمال الدين: لسان العرب، باب العين ٩/ ٢٢٥. وباب الواو ١٥/ ٣٩٩.

(١) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص ١٤٧.

(٢) باب الخطب، رقم ٨٣. وهي الخطبة العجيبة وتسمى (الغرّاء)، من مقطع (التذكير بضروب النعم)، من بداية المقطع ونهايته.

تهتم إلّا بالدنيا»[١].

وقد تناول الإمام عليه السلام الكثير من الطرق والوسائل المؤديّة إلى تهذيب الحواس، نطقاً وسمعاً ونظراً وقلباً، وذلك لتتكامل القيم الأخلاقية والسلوكية في الإنسان والمجتمع، ودعا الإنسان للاشتغال بعيوبه لغرض إصلاحها، وعدم التعرّض للآخرين من دون هدف الإصلاح. وسنتناول مجموعة من أقوال الإمام عليه السلام في هذا الاتجاه. فقد قال عليه السلام: «. . أيها الناس، تولّوْا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها»[٢]. «أكبرُ العيب أن تعيب ما فيك مثلُهُ»[٣]. «من نظَرَ في عيب نفسه اشتغَلَ عن عيب غيره. . ومن نظر في عيوب الناس، فأنكرها، ثم رضَيها لنفسه، فذلك الأحمقُ بعيْنه. .»[٤]. وقال في وصف المتقين: «. . فالمتقون فيها هم أهلُ الفضائل: منطقُهُمُ الصّوابُ، وملبَسُهُم الاقتصاد، ومشيُهُمُ التواضع. غَضّوا أبصارهم عمّا حرّم الله عليهم، ووَقَفُوا أسماعَهُمْ على العلْمْ النافع لهم. .»[٥].

● **الأخلاق العامة للروابط والعلاقات الاجتماعية:**

إن الإنسان محيط بدوائر وحلقات اجتماعية، يتقاطع معها ويتداخل فيما بينها، من الأرحام والأصدقاء والجوار. يحدّد الإسلام

---

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص ٣٤٩.
(٢) باب الحكم، رقم ٣٥٩.
(٣) باب الحكم، رقم ٣٥٣.
(٤) باب الحكم، رقم ٣٤٩.
(٥) باب الخطب، رقم ١٩٣.

هذه العلائق من الناحية الشرعية، بجملة من القيم الأخلاقية، التي تجعل تلك الروابط نزيهة ومخلصة في أهدافها، تسعى لجمع الأمة وتماسكها وتنميتها على أُسس البر والتقوى، حسب إرشادات الشريعة. وعلى ذلك فقد احتل الوالدان منزلة رفيعة من الاهتمام والرعاية، ومن ثمّ الزوجة والأولاد والإخوة والجيران وطبقات الأرحام المتتالية، وعموم الناس. فوضع الإسلام ضوابط سلوكية تضمن سلامة الاحتكاك الاجتماعي والمصالح المشتركة في الحياة. وكرّس الإمام في أقواله ومواقفه تلك الضوابط الأخلاقية في كثير من المواطن، منطلقاً من أسس المحبة للآخرين وحسن التعامل معهم، فقد قال عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «يا بُني اجْعَل نفسَك ميزاناً فيما بينَك وبينَ غيرِكَ، فأحْبِبْ لغيرك ما تُحبُّ لنفسك، واكْرَهْ له ما تكره لها، ولا تَظلِم كما لا تُحبّ أن تُظلَمَ. وأحسِنْ كما تُحبّ أن يحُسنَ إليك، واستقبحْ من نفسك ما تسْتقبحُهُ من غيرك، وارْضَ من الناس بما ترضاهُ لهم من نفسك. ولا تَقُلْ ما لا تعلم وإنْ قلَّ ما تعلمُ، ولا تقل ما لا تُحبّ أن يقال لك. .

احْمِلْ نفسَك من أخيكَ عند صَرْمِهِ على الصِّلة، وعنْدَ صُدُودِهِ على اللُّطْف والمقاربة، وعنْد جُمُوده على البَذْلِ، وعند تباعُدِه على الدّنُوّ، وعنْد شدّتِهِ على اللّين، وعنْدَ جُرْمه على العُذر، حتى كأنّك له عبْدٌ، وكأنّهُ ذو نعمة عليك. وإيّاك أن تَضَعَ ذلك في غير موضعه، أو أن تفعلَهُ بغير أهله. لا تتخذَنّ عدوَّ صديقك صديقاً فتُعادي صديقَك، وامْحَضْ أخاك النصيحةَ، حَسَنَةً كانت أوْ قبيحةً، وتجرّع الغيظ فإنّي لم أرَ جُرْعةً أحْلى منها عاقبةً، ولا ألذّ مَغبّةً. وَلِنْ لمَنْ غالظَكَ، فإنّهُ يوشكُ أنْ يلينَ لك، وَخُذْ على عدوّك بالفضْل فإنّهُ أحلى الظّفَرين. وإنْ

أردْتَ قطيعةَ أخيك فاسْتَبْقِ لهُ من نفسك بقيةً يرجعُ إليها إنْ بدا له ذلك يوماً مّا. ومن ظنّ بك خيراً فصدّقْ ظنّه، ولا تُضيعَنّ حقَّ أخيك اتّكالاً على ما بينك وبينَهُ. فإنّه ليس لك بأخٍ من أضَعْتَ حقّه. ولا يكن أهلُك أشقى الخلقِ بك، ولا ترْغَبَنّ فيمنْ زَهِدَ عنك، ولا يكوننّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلتِهِ، ولا تكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان..»[١].

يريد الإمام أن نحبّ الآخرين ونتعاطف معهم ونُحسن إليهم، كما نحبّ أن يقابلونا بالحبّ والعطف والإحسان. وذلك «لأن الحبّ معناه الأخوة والإنسانية والتكافُل والتضامن والقوة والنجاح، وبالحب تستقيم الحياة، ولا معنى لحياة بلا حب..»[٢]. قال الشيخ محمد عبده في شرحه لقوله عليه السلام: «احمل نفسك من أخيك عند صَرْمه على الصّلة..»: «صرمه: قطيعته، أي: الزم نفسك بصلة صديقك إذا قطعك.. المغبّة.. بمعنى العاقبة وكظم الغيظ وإن صعب على النفس في وقته إلّا أنها تجد لذته عند الإفاقة من الغيظ، فللعفو لذة إن كان في محلّه، وللخلاص من الضرر المعقب لفعل الغضب لذة أخرى. [وقال في قوله عليه السلام]: «وخذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحلى الظّفرين»: «ظفر الانتقام وظفر التملك بالإحسان، والثاني أحلى وأربحُ فائدة». [وفي شرحه لقوله: «ولا يكوننّ أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته»، قال: «مراده إذا أتى أخوك بأسباب القطيعة فقابلها بموجبات الصلة حتى تغلبه، ولا يصحّ أن يكون أقدر على ما

(١) باب الرسائل، رقم ٣١. بداية مقطع، وكذلك من مقطع (وصايا شتّى).
(٢) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص ٥٠٢.

يوجب القطيعة منك على ما يوجب الصلة، [وهنا يختم شرحه بقوله]، وهذا أبلغ قول في لزوم حفظ الصداقة»[١].

وقال عليه السلام في الحقوق المتبادلة بين الوالد والولد: «إنّ للولد على الوالد حقاً، وإنّ للوالد على الوَلدَ حقّاً. فحقّ الوالدِ على الوَلَدِ أنْ يُطيعَهُ في كلّ شيءٍ إلّا في معصية الله سبحانه، وحقّ الوَلدِ على الوالد أن يُحَسّنَ اسَمهُ، ويُحَسّن أدَبَهُ، ويُعلّمُهُ القرآن»[٢].

وقد حذّر الإمام عليه السلام من مصاحبة الحمقى وأهل الهوى والعاصين وذوي الأخلاق السيئة فقال عليه السلام لابْنه الحسن: «يا بُني، إيّاك ومصادقَةَ الأحمقِ، فإنّهُ يريدُ أن ينفَعَك فيضُرَّك، وإيّاك ومصادَقَةَ البخيلِ، فإنّهُ يَقْعُدُ عنك أحْوَجَ ما تكونُ إليه، وإيّاك ومصادقَةَ الفاجرِ، فإنّهُ يَبيعُك بالتّافِهِ، وإياك ومصادقَةَ الكذّاب، فإنّهُ كالسّراب: يقرّبُ عليك البعيدَ، ويُبعّدُ عليك القريب»[٣]. وقال في إحدى خطبه: «..ومجالسة أهل الهوى منْساةٌ للإيمان، ومحْضَرَةٌ للشيطان»[٤]. فيتأثر الإنسان بأخلاقهم وغشهم وكذبهم، بينما المؤمن يكون صادقاً واضحاً على طول مسيرته لذلك قال عليه السلام: «الإيمانُ أن تُؤْثِرَ الصّدْقَ حيثُ يضرُّك، على الكذب حيثُ ينفعُك، وألّا يكون في حديثك فضْلٌ عن عَمَلك، وأنْ تتّقي اللهَ في حديث

(١) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص٥٣-٥٤.

(٢) باب الحكم، رقم ٣٩٩.

(٣) باب الحكم، رقم ٣٨.

(٤) باب الخطب، رقم ٨٦. مَنْساةٌ للإيمان: موضع لنسيانه، وداعية للذهول عنه. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٩٣٩.

غيرك»[١]. فالإمام بحكمته هذه يؤكد على الحالة المبدئية في التعامل على أساس الصدق والوضوح، مع النفس وكذلك مع الآخرين، فيجعل ميزان الإيمان -لدى المؤمن - هو ترجيح الصدق في القول انتصاراً للحق، مع إلحاق الضرر الشخصي به على الكذب الذي ينفعه شخصياً. يقول السيد الشيرازي: «إن معنى طلب الجنّة هذا، فإن في الصّدق الجنّة، وهي أعظم من كل منفعة دنيوية يوجب الصدق تفويتها»[٢].

ويقدم الإمام عليه السلام في هذا المجال، قاعدة ذهبيّة في الأخلاق العامة مع مختلف الدوائر المحيطة به، وأختم هذه الفقرة بذكر هذه القاعدة، التي تبدأ من ذات الإنسان في معالجة جذرية للحالات المتشنّجة والمتضادة في العلاقات والروابط الاجتماعية، حيث يقول عليه السلام: «أحْصُدِ الشّرَّ من صدر غيرك بقلْعه منْ صدرك»[٣]. وبالفعل «أنه يريد: لا تُضمر لأخيك سوءاً، فإنك لا تُضمر ذاك إلّا يضمر هُوَ لَكَ سوءاً، لأنّ القلوب يشعر بعضها ببعض، فإذا صفوتَ لواحد صفا لك»[٤]. قال العلامة البحراني: «واستعار لفظ الحصد لإزالته ملاحظة لشبهه بالزرع في زيادته بسقي تلك الإمارات من عدوّه وتواترها، ونقصانه وعدمه بعدمها»[٥].

---

(١) باب الحكم، رقم ٤٥٨.
(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٧٨.
(٣) باب الحكم، رقم ١٧٨.
(٤) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزالدين: شرح نهج البلاغة، مج ٩، ج١٨، ص٤٣٤.
(٥) البحراني، العلامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٣١٥.

المبحث الثاني

الجيش الإسلامي

وفيه أربعة مطالب:

* المطلب الأول : تطبيق فرض الجهاد من التوفيق الإلهي لخاصة أوليائه *

* المطلب الثاني : الإطاعة والإنضباط لأوامر القيادة *

* المطلب الثالث : الإلتزام بالنظام *

* المطلب الرابع : قتال الأهل والأرحام بتسليم وصبر وثبات *

أهمية الجيش الإسلامي ومهامّه

لقد حظي الجيش الإسلامي بعناية تربويَّة فائقة عند الإمام عليه السلام، نظراً لأهمية أدواره في حياة المسلمين، وخطورة مهامّه الجهادية في سبيل حفظ الأمن والدفاع والمقاومة وقتال العدو، فمن المعروف إن الجيش هو السّور الحامي للأمة والدولة، بكافة المؤسسات والرموز فيهما. وعليه، فإن تشكيل القوة العسكرية - أي الجيش - يعدّ ضرورةً لحياة الأمة والنظام، فبالجيش يَتمّ الدفاع عن الولاية، بل عن عموم بلاد المسلمين، وبقوته تظهر العزّة والهيبة للإسلام. إن تشكيل هذا الجيش، بأهدافه السامية، يستوجب التزامه تربوياً وأخلاقياً ومادياً أيضاً. وذلك لمواكبة التطورات المستجدّة في شأن الأسلحة والتدريبات وفنون القتال.

فإذاً، إنّ موضوع تشكيل الجيش ضرورة حياتيّة، لتحقيق حماية البلاد من العدوان الخارجي، وكذلك لحفظ الأمن الداخلي. قال الإمام علي عليه السلام في عهده للأشتر: «واعلم أن الرعيّةَ طبقاتٌ لا يصلُحُ بعضُها إلّا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض: فمنها جنودُ

الله. . فالجنودُ، بإذن الله، حُصُونُ الرعيّة، وزَيْنُ الوُلاة، وعزُّ الدين، وسُبُلُ الأمن، وليس تقوم الرعيّة إلّا بهم. .»[١].

وعلى ما تقدم، إنّ طبقة العسكريين في وجودها ضرورةٌ لحياة الناس، وضمان النظام، إلّا أنّ هذه الضرورة لتشكيل الجيش، تقابلها - في الوقت ذاته - خطورةٌ من نوع خاص، وذلك عند استفحاله وسيطرته على الساحة السياسية والاجتماعية، وهذه الخطورة تنمو في الجيش عند فقدان أو ضعف تربيته، على أُسس الأخلاق الفاضلة، والقيم النبيلة، لحماية ضعفاء الناس، وأخذ حقوق المظلوم من الظالم. والإمام في نصّه المتقدّم يحدّد تلك المهام التي أشرنا إليها، والتي منها «زين الولاة»، «فإن الوالي بلا جند كأحد الرعية لا يبالى به، ولا يطاع له أمر»[٢]. وبهذه المهمّة يدفع الإمام تلك الخطورة المحتملة من الجيش. وعلاوة على ذلك يعتبرهم جنود الله، بأخلاقهم ومواقفهم وعطائهم، وقوله: «بإذن الله»، «لينبّه على أنه أراد جنود الحق الذين هم مقتضى الحكمة، لا مطلق الجنود»[٣]. هذا، ولم يجعل لتشكيل القوة العسكرية، امتيازات فوقيّة على الناس، ولم يحدّد ارتباط العسكريين بالسلطة السياسية، والوالي أو الخليفة، على أسس وظيفيّة ومصلحيّة، وإنما أراده جيشاً عقديّاً لخدمة المسلمين، ولحماية البلاد بكلّ ما أوتي من قوة وبسالة وتضحية، فهو يؤدي واجبه الشرعي ويتقرّب بذلك إلى الله سبحانه، ويُرضي الوالي الحاكم بإطاعته له وتنفيذ أوامره لتحقيق مصالح الأمة.

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. بداية مقطع.

(٢) البحراني، كمال الدين بن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٤٨.

(٣) المرجع ذاته، وبالصفحة ذاتها.

«وبما أن (العسكر) هم الحفّاظ على وحدة الأمة، وسيادتها، وكرامتها، فهي الطبقة الأكثر استحقاقاً للرعاية والأكثر خطورة، والأهم مسؤولية»[١].

وعليه كان الإمام يتابع جنده - كبيرهم وصغيرهم - خطوة خطوةً، ويأمر بالعناية بهم ورعايتهم، وذلك ليتكامل بناؤهم الإيماني والأخلاقي، جنباً لجنب مع بنائهم التقني العسكري، حتى يكون العسكريون - كما يريدهم الإمام - ملاذ الأمة وكهفها الحصين، ومنقذها من الأخطار المحدقة داخلياً، وهجمات الأعداء خارجياً، قال الشيخ شمس الدين: «وهم ضرورة لأن وجودهم يحفظ الأمن ويصون الدولة، ويردع السفيه ويضرب على يد المعتدي»[٢].

ان العملية التربوية للعسكريين بشكل عام تتمحور حول بث الوعي الإيماني والأخلاقي في نفوسهم، ليتم سحب صواعق الغرور والعُجْب وحب الهيمنة على الآخرين بالسلاح، ومصادرة حقوقهم. فلو ارتكب العسكريون خطأ المواجهة مع الأمة، وإخضاعها بالقوة، فإنهم سيواجهون مسلسلاً من الاعتراضات والمواجهات، وهذا يعني الوقوع في الفتن والكوارث السياسية والاجتماعية، ممّا يؤدي إلى ضعف الأمة، وزوال الدولة، لذلك شدّد على شروط اختيار الجند، خُصوصاً القادة - وهذا ما سنعالجه في المبحث الثالث - أما في هذا المبحث فسنتناول المطالب المحددة التالية:

---

(١) المرتضى، السيد: نهج الكفاح، ص ١٢٢.

(٢) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ١٨٠.

المطلب الأول: تطبيق فرض الجهاد من التوفيق الإلهي لخاصّة أوليائه.

المطلب الثاني: الإطاعة والانضباط لأوامر القيادة.

المطلب الثالث: الالتزام بالنظام.

المطلب الرابع: قتال الأهل والأرحام، بتسليم وصبر وثبات.

المطلب الأول

تطبيق فرض الجهاد
من التوفيق الإلهي لخاصة أوليائه

فالمؤمنون الواعون لمسؤولياتهم، هم الصابرون على ابتلاءات مسيرتهم، نتيجة إخلاصهم وحسن سريرتهم، وانّ الله - سبحانه وتعالى - يرتّب لهم الأسباب والعلل، بما يتناسب مع نواياهم المخلصة، فيدعمها باتجاه النمو والتكامل نحو الصلاح والمقاومة والجهاد. هذا هو التوفيق الإلهي، قال الله تعالى في بيان جهاد النبي شعيب عليه السلام وتربيته الإصلاحية لمجتمعه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1] ومعنى ذلك: «إن الذي يترشح من إرادتي باستطاعة مني، من تدبير أمور مجتمعكم، وتوفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجة لسعادته، إنما هو بالله سبحانه لا غنىً عنه، ولا مخرج من إحاطته، ولا استقلال في أمرٍ دونه، فهو الذي أعطاني ما هو عندي من الاستطاعة، وهو الذي يوفق الأسباب من طريق استطاعتي، فاستطاعتي منه وتوفيقي به»[2] وقال الإمام علي عليه السلام: «أيّها الناس،

---

(١) سورة هود، ١١/٨٨.

(٢) الطباطبائي، العلّامة السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، مج١٠، ص٣٦٩.

إنّه من استنْصَحَ اللهَ وُفّق، ومن اتّخذَ قولَهُ دليلاً هُديَ ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾»[١]. فالذي يتخذه ناصحاً له، فيسمع ويطيع ويتّبع مناهجه، فسيهديه إلى تحقيق مصالحه وسعادته ونجاته. يقول ابن أبي الحديد في شرحه: «من أطاع أوامره وعلم أنه يهديه إلى مصالحه، ويردّه عن مفاسده إلى ما فيه نجاته، ويصرفه عمّا فيه عطبُه»[٢].

فإذن لا ينال شرف الجهاد، وفضيلة الشهادة في سبيل الله إلّا أولياء الله وأحباؤه، وهي ليست متاحة لكل إنسان وإن بدأ حياته بالجهاد، أو كان من جملة المجاهدين في مرحلة من مراحل حياته، فالجهاد في سبيل الله والاستمرار في المسيرة الجهادية حتى الشهادة، من خصوصيات الأولياء لذلك قال الإمام عليه السلام: «. . وفقنا الله وإيّاكم لمحابّه»[٣]. أي للأعمال الصالحة التي هي مواضع محبته ورضاه.

سنتناول هذا المطلب في ثلاثة محاور وهي:

١ • الجهاد باب من أبواب الجنّة، خاصٌّ بأولياء الله.

٢ • الجهاد في سبيل الله عنوان صدق الإيمان.

٣ • الجهادُ حتى الشهادة أكرمُ نهاية للإنسان.

---

(١) باب الخطب، رقم ١٤٧، بداية مقطع (عظة الناس). والآية الكريمة من سورة الاسراء، ١٧/ ٩.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٥، ج٩، ص٧٥.

(٣) باب الرسائل، رقم ٦٧، في آخرها.

● **الجهاد باب من أبواب الجنّة، خاصٌّ بأولياء الله:**

قال الإمام علي عليه السلام، وهو يستنهض الناس إلى الجهاد، ويبيّن فضله، وذلك حين ورد خبر غزو الأنبار من قبل جيش معاوية، فلم ينهضوا لمقاومته: «أمّا بعدُ، فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنّة، فتحهُ اللهُ لخاصّةِ أوليائه، وهو لباسُ التقوى، ودرْعُ الله الحصينةُ، وجُنّتُهُ الوثيقةُ. فمن تركه رغبةً عنه ألْبسه اللهُ ثوبَ الذُلّ، وشمِلَهُ البلاءُ، ودُيّثَ بالصَّغار والقَماءة، وضُرِبَ على قلبه بالإسهاب، وأُديلَ الحقُّ منه بتضييع الجهاد، وسيمَ الخَسْفَ، ومُنعَ النّصَفَ»(١).

يبيّن الإمام من خلال هذه المقدمة لخطبته الاستنهاضيّة، منزلة المجاهدين عند الله، والتي هي منزلة الأولياء المقرّبين، لينبّه المتلقين إلى إمكانية دخولهم ضمن هذه الصفوة المتقدمة في موقعها عند الله، وبذلك يثير حماسة في نفوسهم للانطلاق إلى الجهاد والمبادرة للدفاع عن حرمات الإسلام والمسلمين، ويوضّح كذلك مصير المتقاعسين عن أداء هذه الفريضة، الذي سينتهي بهم إلى الذل والهوان، ولأهمية هذه المقدمة من الخطبة، نقف عندها قليلاً، مستكشفين بعض دلالاتها المهمة، فهي تنبض بالحيويّة - حقاً -، وتستنهض

---

(١) باب الخطب، رقم ٢٧. المقطع الأول (فضل الجهاد). جُنّتُهُ _ بالضم _: وقايته، والجُنّة: كل ما استترت به. رغبةً عنه: زهداً فيه، دُيّث، مبني للمجهول من ديّثَهُ، أي: ذلّله. القماءة: الصّغار والذل، والفعل منه قمُؤَ من باب كرُم. الاسهاب: ذهاب العقل أو كثرة الكلام. أُديل الحق منه: صارت الدولة للحّق بَدَله. سيم الخسف، أي: أولي وكُلّف الذّل والمشقة أيضاً. النّصف: العدل، أي حُرم العدل، بأن يسلّط الله عليه من يغلبه على أمره فيظلمه. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة رقم ٣٢٢-٣٢٩.

النفوس للمقاومة والجهاد والشهادة كخيار استراتيجي للأمة، ومصيري لحياتها وحياة أبنائها. وذلك عبر النقاط التالية:

أ • إن الجهاد بشقيه الرئيسيين، هو باب من أبواب الجنّة، جهاد العدو أي صدّه وقتاله، وجهاد النفس الأمّارة بالسوء، والجهاد الأول ضد العدو الخارجي يستند على الجهاد الثاني ضد هوى النفس. وكما مرّ معنا، إنّ جهاد العدو هو الجهاد الأصغر، بينما الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، وذلك لأن النفس هي المنطلق الأساس، والميدان الرئيسي للمعركة، فالذي يُهزم في ساحة القتال ويفرّ أمام العدو، إنما هو مهزوم نفسياً من قبل. وكذلك ان النفس الأمارة بالسوء، في الحقيقة، عدّوٌ ملازم للإنسان، متداخل في تفاصيله، له بريقه الخادع، بينما العدو الظاهري يكون واضح المعالم، والمعركة ضدّه محددّة زماناً ومكاناً، فهي الجزء العنيف من الصراع الدائم بين الحق والباطل، وبذلك يكون جهاد النفس أكثر صعوبة ودقة وحذراً. قال العلّامة البحراني: «فإنّ مضرة العدو الظاهر، مضرة دنيويَّة فانية، ومضرة الشيطان مضرّة أخروية باقية. ومن كانت مضرته أعظم كان جهاده أكبر وأهم»[١].

ب• إن الجهاد - كما هو معلوم - فرض من الفرائض الشرعيّة في الإسلام، وأداؤه تحت راية الإمام العادل وبأمره، مع

(١) البحراني، العلّامة ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٣٤.

وجود النيّة القلبية الخالصة لله من قبل الجند، فإنّ هذا السبيل سيوصل المجاهد إلى الجنّة الموعودة، عبر بوّابة المجاهدين في سبيل الله. فإذن يكون الجهاد الشرعي باباً مفتوحاً إلى الجنّة، يدخله المجاهدون المخلصون.

ج • يدرك المجاهدون - وبعمق - العناية الإلهيّة لتضحياتهم وشهادتهم، وذلك عبر فتح الله سبحانه وتعالى لهذا الباب لخواصّ أوليائه، وهم المخلصون لله، المتفانون بجهادهم وعبادتهم وسلوكهم في سبيل الله وحده، لا لأهداف أخرى تشوب نواياهم، فالذين ينالون شرف أداء فريضة الجهاد، ويختمون حياتهم بالشهادة، إنّما هم من خواصّ أولياء الله. قال الإمام عليه السلام في وصف المجاهدين من أهل البصرة، الذين سيقاومون ويقاتلون أعداء الله. عند وقوع الفتن: «يجاهدُهم في سبيل الله قومٌ أذلّةٌ عند المتكبّرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون..»[1]. أي إنّهم «ليسوا من أبناء الدنيا المشهورين بنعيمها، وكونهم معروفين في السماء هو إشارة إلى كونهم من أهل العلم والإيمان، يعرفهم ربّهم بطاعتهم، وتعرفهم ملائكته بعبادة ربّهم»[2].

د • بيّن الإمام عليه السلام - في هذا المقطع من خطبته - أهمية الجهاد، وآثاره في الدنيا والآخرة، بقوله: «وهو لباس

(١) باب الخطب، رقم ١٠٢.

(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٥.

التقوى، ودرعُ الله الحصينة، وجُنّتُهُ الوثيقة». «أي به يتّقي في الدنيا من غلبة الأعادي، وفي الآخرة من حرّ النار، كما يتّقي بالثوب من الحرّ والبرد..»[١]. ثمّ عرّج الإمام عليه السلام، على مصير من تركه بلا عذرٍ مشروع، بوعيد مرهبٍ سيصيبهم من الله سبحانه، نتيجةً لتركهم أداء هذه الفريضة. «فمن تركه رغبةً عنه ألبسه اللهُ ثوبَ الذّل، وشمله البلاء». فسيرتدي لباس الذل يشمله تماماً، وكذلك يشمله بلاء الأعداء. «ودُيّثَ بالصّغار والقماءة»، أي سيذلّلُهُ العدو ويهينه بالصّغار والقماءة، أي الحقارة. «وضُرب على قلبه بالإسهاب»، أي «يذهب وجه عقله العملي في تدبير مصالحه»[٢]. يقول ابن أبي الحديد: «فالإسهاب هاهنا هو ذهاب العقل، ويمكن أن يكون من الإسهاب الذي هو كثرة الكلام، كأنه عوقب بأنْ يكثر كلامه فيما لا فائدة تحته»[٣]. وقوله عليه السلام: «وأديل الحقُّ منه بتضييع الجهاد»، «أي من ضيّع الجهاد ورغب عنه، اقتص الحق منه بالإذلال ومرض القلب. «وسيم الخسف»، ابتلى بالمذّلة والنقيصة»[٤]. «ومنع النّصف» أي الإنصاف، «بمعنى العدل، أي لم يعدل الأعداء فيه، بل يظلمونه ويجورون عليه»[٥].

---

(١) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٣، ص٣٩٥.

(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ٣٥.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج١، ج٢، ص ٣١٠-٣١١.

(٤) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص ١٨٨.

(٥) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص ١٦٣.

● **الجهاد في سبيل الله، عنوان صدق الإيمان:**

لا يتضح الفارق بين الصدق وعدمه إلّا بالتنفيذ العملي على أرض الواقع. ولا يتحقق صدق ادّعاء الجهاد والقتال إلّا بممارسة الاقتتال في ساحة المعركة، بثباتٍ وإخلاص من دون تراجع أو فرار. والذي يفرّ من ساحة الحرب إنما يعكس عن حالته الإيمانية الضعيفة والمتردّدة والمصلحيّة، بينما الذي يثبت ويقاتل ويصارع العدو ببسالةٍ وعزم إنما يدلّ على صدق إيمانه وإخلاصه. كما وإنّ لكلا الأمرين – الفرار والثبات – منطلقاتهما وأسبابهما، وكذلك آثارهما الدنيوية والأخروية أيضاً. ولا بد من الإشارة هنا إلى مسألة في غاية الأهمية، وهي إنّ القتال في الإسلام ليس هدفاً بحدّ ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق العدالة في الأمة، وسيادة القانون، وذلك بمخاصمة الظالمين، والدفاع عن حقوق المظلومين، وإنقاذ بلاد المسلمين من المعتدين والغازين. ولا يحقق الجيش الإسلامي هذه المطالب بشكلها الدقيق إلّا خلف الراية الشرعية التي تتحمل مسؤولية إراقة الدماء، وتبعات الحروب أمام الله سبحانه وتعالى والأمة، فهي صمّام الأمان لوحدة الأمة وحماية مصالحها. وعند توافر هذه الشرائط بنيّاتٍ صادقةٍ، ينزل الله نصره لجيش المؤمنين المجاهدين، وبالعدو الهزيمة والانكسار. لقد قال الإمام عليه السلام لجيشه يوم صفين، وهو يصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله: «..ولقد كان الرّجُلُ منّا والآخرُ من عَدُوّنا يتصاولان تصاوُلَ الفَحْلَيْن، يتخالسان أنفسَهما: أيّهُما يَسقي صاحِبَهُ كأسَ المنون، فَمَرّةً لنا من عدوّنا، ومرّةً لعدوّنا منّا، فلمّا رأى اللهُ صدْقَنا أنْزَلَ بعدوّنا الكبْتَ، وأنزلَ علينا النَّصْرَ، حتى استقرّ الإسلام مُلقياً جِرانَهُ، ومُتَبَوّئاً

أوطانَه»[١]. ومعنى يتصاولان «أي: يطلب كل واحد منهما إزهاق روح الآخر.. تصاول الفحلين من الشاة»[٢]. «والتخالس: التسالُب والانتهاب. والكبت: الإذلال، وجِران البعير: مقدم عنقه. وتبوّأتُ المنزل: نزلتُه... وهذه الفاظ مجازية من باب الاستعارة، وهي: قوله: «استقر الإسلام ملقياً جرانه»، أي ثابتاً متمكّناً، كالبعير يلقي جرانه على الأرض. وقوله: «متبوئاً أوطانه»، جعله كالجسم المستقر في وطنه ومكانه»[٣]. وهكذا لما رأى الله صدق المجاهدين في مثابرتهم وإقدامهم على الجهاد، سواءً غَلبوا أو غُلبوا في أرض المعركة، سدّدهم الله بالنصر وهزم أعداءهم وأذلهم. ولذلك جعل الإمام وضوح البصائر باليقين، وصدق النيّات، من شرائط جهاد العدو، بقوله: «فانفذوا على بصائركم، ولتصدقْ نيّاتكم في جهاد عدوّكم»[٤].

فمنهجية الإمام عليه السلام في تربيته الجهادية، قائمة على الحق، ونابعة من صدق الإيمان، لا تقبل إطلاقاً المداهنة والمصانعة في أمور الجهاد، فلا جبن ولا خوف ولا تراجع أمام الأعداء. وبهذه الطريقة يتلقى الجيش تعاليمه وتربيته عليه السلام.

هذا، ووضَّح عليه السلام انعكاسات ظاهرة الفرار على حياة الفارّين ومستقبلهم، لذلك دعاهم إلى معاودة الكرّ، لأنّ الفرار عارٌ في الدنيا، ونارٌ في الآخرة، حيث قال عليه السلام: «.. فعاودوا الكرّ،

---

(١) باب الخطب، رقم ٥٦.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٢٥٣.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٢، ج٤، ص٢٦٢.

(٤) باب الخطب، رقم ١٩٧.

واستحيُوا من الفرّ، فإنّهُ عارٌ في الأعقاب، ونارٌ يومَ الحساب..». فالأولاد يعيّرون بسبب فرار آبائهم، وهذا أثر دنيوي، وأما الأثر الأخروي الذي ينتظرهم فالنار، لذلك قال: «..وايْمَ الله لئن فررْتُم من سيف العاجلة، لا تَسْلَموا من سيف الآخرة».

● **الجهاد حتى الشهادة أكرم نهاية للإنسان:**

فالشهادة في سبيل الله تشكل أسمى طموح المؤمنين في الدنيا، وإنّ أسعد المؤمنين حظاً وتوفيقاً هو الذي يختم مسيرته الجهادية بالشهادة في سبيل الله، لأنه من السهولة بمكان أن يبدأ الإنسان في مسيرة الجهاد، ولكن أن يستمر إلى النهاية وينال شرف الشهادة، هذا هو الطموح الأرقى في الحياة. لذلك يعلّمنا الإمام عليه السلام، كيف نتمنّاها وننتظرها؟ بخالص النوايا وتمام الاستعدادات للقاء الله والفوز في الاختبار، وعندها يدخل باب الله المختص بأوليائه. قال الإمام عليه السلام لأصحابه المقاتلين في ساحة الحرب بصفين: «..إن أكرم الموت القتلُ! والذي نفسُ ابْن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهونُ عليّ من ميتة على الفراش في غير طاعة الله!»[1]. فإذا شَخَّصت طاعة الله سبحانه المسؤولية الشرعية في الجهاد، كان لا بدّ من قتال العدو المعتدي قتالاً مستميتاً. فالإمام بقَسَمه المتقدّم، وتفضيله للشهادة بألف ضربةٍ بالسيف في سبيل الله، إنما يوضح للأمة مسؤوليتها الشرعية، ويحثها على الصبر والاستقامة في طريق الجهاد حتى الشهادة، لنيل الفوز عند الله، لذلك قال عليه السلام: «..لقد حمَلتُكم على الطريق الواضح التي لا يَهلكُ عليها إلّا هالكٌ، من استقام فإلى الجنّةِ، ومن

(١) باب الخطب، رقم ١٢٣.

زلَّ فإلى النار»[١]. وذلك لأنه «أتمّ الحجّة عليهم، وأراهم طريق الرشاد، فإن لم يستقيموا كان ذلك من أنفسهم [وطبعهم الفاسد] بعد إتمام الحجّة»[٢].

وفي نهاية عهده لمالك الأشتر يدعو الله سبحانه بقوله عليه السلام: «وأنا أسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته.. أن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا إليه راجعون»[٣]. وعلى رواية «إنا اليه راغبون»[٤]. قال الشارح البحراني: «ونبّه بقوله [إنا إليه راغبون] على صدق نيته في سؤاله»[٥].

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه، ونال شرف الشهادة في محراب صلاته بجامع الكوفة - كما هو معروف -.

---

(١) باب الخطب، رقم ١١٩.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص٢٤٧.

(٣) باب الرسائل، رقم ٥٣، في نهاية عهده للأشتر.

(٤) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٧١٥. مشيراً إلى رواية النويري في (نهاية الأرب) ج٦، ص١٩، والقاضي النعمان في (دعائم الإسلام) ج١ ص٣٥٠.

(٥) البحراني، كمال الدين بن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٧٦.

المطلب الثاني

الإطاعة والانضباط لأوامر القيادة العسكرية

إن قيادة الجيش مهما بلغت من الحكمة والدقة في اتخاذ أوامرها الحاسمة في ميادين القتال والمواجهة، لا يكتب لها النجاح ما لم تتوافر الإطاعة التامة، وحالة الانضباط، وسرعة التنفيذ من قبل عموم الجيش المتلقي لتلك القرارات والأوامر. قال الإمام: «. . وأمّا حقي عليكم فالوفاء بالبيعة. . والطاعة حين آمركم»[1]. على ان تكون هذه الطاعة مخلصة في سبيل الله، لا تشوبها مصالح دنيوية، وتطلعات شخصية. لذلك كتب الإمام عليه السلام إلى طلحة والزبير، حينما أعلنا المعارضة له بعد البيعة، كاشفاً عن حالتهم المصلحية من بيعتهما له. ومشيراً إلى أن بيعة العامة وطاعتهم له كانت عن حسن نيّةٍ، وصدق. ومما جاء في كتابه عليه السلام لهما: «أما بعد، فقد عَلِمْتُما، وإنْ كتمتُما، أنّي لم أردِ الناسَ حتى أرادوني، ولم أبايعْهُم حتّى بايعوني، وإنكما ممّن أرادني وبايعني، وإنّ العامّة لم تُبايعْني لسلطانٍ غالبٍ، ولا لعَرَضٍ حاضرٍ، فإن كنتُما بايعتُماني طائعيْن، فارْجعا وتوبا إلى الله من قريب، وإن كنْتما بايعتُماني كارهيْن، فقد جعلتُما لي عليكما

---

(١) باب الخطب، رقم ٣٤.

السبيل بإظهاركما الطاعة، وإسراركما المعصية، ولعمري ما كنتما بأحقِّ المهاجرين بالتقيّة والكتمان..»[١]. يبين الإمام في هذا المقطع من رسالته، بأنهما -في البداية- أرادا البيعة له، وقد بايعاه طائعيْن غير مكرهيْن، وهكذا كانت بيعة عامة الناس له برغبةٍ ورضا، من دون ترهيب وتخويف، ولا ترغيب وتشويق على متاعٍ دنيوي أو طمعٍ مالي. وقوله «وإن كتمتما»، فيه «إشارة إلى انهما بعدَ نكث بيعته كتماً إرادتهما لبيعته وإرادة كثير من الناس، وزعما أنه إنما حملهما عليها كرهاً»[٢]. وهنا يفصّل الإمام أساس بيعتهما، كأنه يقول لهما، إن كانت بيعتكما عن طاعة صادقة، فيلزم عودتكما إليها، وذلك بالتوبة إلى الله سبحانه عن معصية نقض البيعة، لأنه لا وجه شرعي له. واما إن كانت بيعتكما عن إكراه وضغوط، وقد أضمرتما خلافها، فهذا ادّعاء بلا دليل، لأن «الإكراه له صورة، وهو أن يجرّد السيف ويمدّ العنق، ولم يكن قد وقع ذلك، ولا يمكنكما أن تدّعياه.. فالأمور الشرعية إنما تبنى على الظاهر، وقد جعلتما لي على أنفسكما السبيل بإظهاركما الطاعة والدخول فيما دخل فيه الناس، ولا اعتبار بما أسررتما من كراهية ذلك»[٣]. ومن ثمّ لماذا قرّرتما نكث البيعة على انفراد، من دون بقية الصحابة الكرام؟ فإن كان للتقية والكتمان، فإنّ بقية المهاجرين المبايعين أوْلى منكما في اتخاذ هذا الموقف، لأنكما

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٤. العَرَض ـ بفتح فسكون، أو بالتحريك ـ: هو المتاع، وما سوى النقديْن من المال. السبيل: الحجّة. عبده، محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١١١.

(٢) البحراني، كمال الدين بن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٧٧.

(٣) ابن ابي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٩، ج١٧، ص٩٦.

في موقع القوة، «فلا مجال لكما بأن تقولا إنّا خفنا منك، واتقيْنا الناس، إذْ أنتما في قوة ومنعة.. وسائر المهاجرين مع أنهم لم يكونوا بمثل قوتكما لم يتّقوا ولم يخافوا»[١]. وبهذا الاحتجاج المتين يقطع الإمام الطريق أمام المواقف المتراجعة عن البيعة دون مسوّغ شرعي، لأنها مسألة مصيرية ترتكز عليها الاطاعة والانضباط لأوامر القيادة. والحال ان هنالك بعض المهاجرين من الصحابة لم يبايع علياً، مثل: سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومن الانصار -أيضاً- مثل: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وأبو سعيد الخدري وغيرهم، فلم يلزمهم الإمام بالبيعة، بل أصبح كفيل بعضهم أمام رجاله من الأصحاب الكرام، فتُركوا على رأيهم، ولم يتعرضوا لسوء[٢].

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• أهمية الإطاعة للأوامر، والانضباط أمام القيادة.

٢• معرفة خلفيات الجنود، للتمكن من استيعابهم وصياغتهم نفسياً.

٣• من نتائج عدم الإطاعة والانضباط.

• أهمية الإطاعة للأوامر، والانضباط أمام القيادة:

إن العمود الفقري لتنظيم القوات المسلحة يعتمد على الإطاعة والانضباط في تطبيق أوامر القيادة، وبالطاعة تستقيم أمور الجيش،

---

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص٢٠٧.

(٢) ابن الاثير، العلّامة عزّ الدين: الكامل في التاريخ، مج٣، ص١٩٠-١٩٢.

وتمضي طاقاته قُدُماً نحو تحقيق الأهداف المرسومة، وأيّ خلل في الإطاعة والانضباط سيؤدي إلى تمزيق وحدة الجيش، وظُهور بوادر التمرّد والانشقاق، والفتن الداخلية، وبالتالي ستضعف قوّته، وسيتراجع عن أهدافه الكبرى. لذلك كان الإمام عليه السلام يلقّن الجيش الإسلامي دروس الطاعة والالتزام بقرار القائد، ضمن تربيته الجهادية لعامّة الجيش، فمثلاً كتب إلى أهل مصر بولاية مالك الأشتر وأمرهم بإطاعته في الحرب والسلم، وبيّن لهم أنّ سلسلة القرار تنتهي إليه، فلا بد من الإطاعة والالتزام. حيث قال عليه السلام: «. . فاسْمَعُوا له وأطيعوا أمره فيما طابقَ الحقَّ، فإنّهُ سيفٌ من سيوف الله. . . فإنْ أمرَكُمْ أنْ تَنْفِروا فانْفروا، وإنْ أمرَكم أن تُقيموا فأقيموا، فإنّهُ لا يُقْدِمُ ولا يُحْجمُ ولا يؤخّرُ ولا يقدّم إلّا عن أمْري، وقد آثرْتُكُم به على نفسي لنصيحته لكم، وشدَّةِ شكيمته على عدوّكم»[1].

لقد كان الإمام في منهجه التربوي لا يكرّس الحالة العسكرية الوظيفية كما نلاحظها في الجيوش المعاصرة، لأجل الإطاعة للأوامر وظيفيّاً، وإنما كان يدعو إلى القناعة الإيمانية والنفسية لتفهم القرارات القيادية، التي تصبّ لصالح الإنسان والمجتمع. وإنها أوامر شرعية واجبة التنفيذ في ساحة المعركة - بالخصوص -، لأن أسلوب الإكراه في التنفيذ بعيد عن روح الإسلام وكرامة الإنسان، وإن الأمة الواعية بمسؤولياتها تأتي طائعةً مستبشرة لقرارات إمامها وقادتها مهما صعبت.

---

(١) باب الرسائل، رقم ٣٨. الشكيمة في اللجام: الحديدة المعترضة في فم الفرس، والجمع شكائم. وفلان شديد الشكيمة: إذا كان لا ينقاد لأحد، لما فيه من الصلابة والصعوبة على العدو وغيره. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب: محمود عادل، مج١، الربع الثاني، حرف الشين، مادة (ش ك م)، ص٥٣٨.

- **معرفة خلفيات الجنود، للتمكن من استيعابهم وصياغتهم نفسياً:**

لأن صياغة المقاتلين المطيعين، والاقتحاميين الشجعان، إنما تكون ناجحة ومثمرة إذا تناولت الخلفيات الثقافية والسلوكية عندهم، وذلك ليسهل الوقوف عند عوامل ارتباط الظواهر الاجتماعية والفتن والاضطرابات وعدم الإطاعة للشرعية الحاكمة بعد البيعة، بتلك الخلفيات، ومن ثمّ الشروع بمعالجة الحالات النفسية والسلوكية - الفردية والاجتماعية - لدى الجنود، ليتسنى للقائد إخماد الفتن وتهدئة الأوضاع عبر الجيش المطيع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ليتم اجتثاث جذور الانحراف والنفاق من الأساس. وهذه المسألة جوهرية في منهج التربية الجهادية عند الإمام عليه السلام، طالما حرص على معالجتها، وعانى من تبعاتها. فاضطر إلى جانب توجيهاته التربوية أن يخوض حروباً دامية لمواجهة الفتن التي هدّدت حياة المسلمين بعد استلامه للخلافة. «وقد واجه الإمام الفتنة بجهاز عسكري كفوء من الناحية العسكرية المحضة، ولكنه يتأثر بقيادات محلية وقبلية كانت متورطة أو تورطت في مواقف سياسية خاطئة أو خيانية»[1]. وهذا ما يفسّر خروج بعضهم، أو تباطأهم في الاستجابة لنداءات الإمام القتالية، إلى جانب عدم اكتمالهم تربوياً بالشكل المطلوب، وذلك للظروف المحدودة في زمنٍ تواترت فيه الفتن، فتحدّاها عملياً بقوّة، لذلك تركّزت اهتماماته عليه السلام باتجاه تغذية جنده بالمعارف والعلوم الإسلامية، والفضائل الأخلاقية، لتنميتهم إيمانياً، جنباً لجنب مع

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ٧١.

تنمية الوعي السياسي والجهادي لديهم، ليكونوا الفئة المتلقية للتعاليم والأوامر عن وعي وبصيرة، والمطيعة عن إيمان وإخلاص في ساحات القتال، «فجمهور المقاتلين الفقراء من أفراد القبائل، كان لا يتمتع بالوعي الكافي للقضية السياسية - الاجتماعية، ولبعدها العقيدي الإيماني.. هذه القضية التي كان يحملها الإمام علي عليه السلام ويقاتل في سبيلها قوى الفتنة.

وقد حاول جاهداً أن ينمّي الوعي السياسي الإيماني في نفوس وعقول الناس العاديين ليحررهم من علاقاتهم القبلية، ويحررهم بالتالي من تبعيتهم لزعماء القبائل الذين كان أكثرهم - أو الكثير منهم - يقف في الحقيقة في صفوف الفتنة ضد قضية الأمة»[1]. وهذا ما سنبحثه في الفصل القادم، حينما نتناول حروب الإمام.

الإمام يحذّر المتلقين لتربيته من خديعة الشعارات المضلّلة:

إنّ العلاج المنقذ لحالة الضياع والخداع، هو الالتزام التام والإطاعة الكاملة للقيادة الشرعية، وبالفعل حينما يمنح المقاتلون ثقتهم الكاملة بالقائد فيتبعونه تماماً، ولا يلتفتون إلى أصوات تعلو في الطريق، تحاول أن توقف مسيرتهم المستقيمة، بل وتثبّط عزائمهم. وتحولهم إلى عقبات في مسيرة جهاد الإمام والأمة. وذلك لأن هذه الأصوات ما هي إلّا أبواق الشياطين، تبحث لأصحابها عن مكتسبات دنيوية بأية وسيلة ممكنة، فالغاية لديها تبرّر الوسيلة. نعم، إن «كل من أحب السلطة، وتمسك بكرسي الحكم فإنه يحتال ويغتال، ويغدر ويمكر، ولو واجه موقفاً يفرض عليه أن يضحي بالمنصب

(١) المرجع ذاته، ص ٧١-٧٢.

لمصلحة الوطن، أو يضحّي بالوطن لمصلحة الكرسي لآثر هذه على تلك.. ومعظم زعماء العالم من هذا النوع، وسيدّهم معاوية، وإذن فلا بدع أن ينشر على المنبر، حيلة ومكراً، قميص عثمان وأصابع زوجته نائلة، وأن يرفع المصاحف في صفين غيلةً وخديعةً، وان يدسّ السّم في العسل للإمام الحسن، والأشتر، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ثم يقول: إن لله جنوداً من عَسل»[١].

لذلك حذّر الإمام عليه السلام من شعار رفع المصاحف في صفين، بأنها خديعة تهدف إلى إنقاذ معاوية وجيشه من الانهيار والهزيمة - كما سنرى ذلك لاحقاً -[٢].

- **من نتائج عدم الإطاعة والانضباط:**

ظهور ونمو وضع غير طبيعي في الجيش والأمة، مؤدّاه خذلان القيادة من قبل عموم الجيش والأمة، وكذلك ضياع هذا العموم في توجيهات مادية وعصبية ومصلحية، وإذا بنا نلاحظ الإمام عليه السلام وهو يمثل الحالة القيادية الشرعية، يقود قضايا الأمة بوعي المسؤولية، ويديرها بنجاح الجدير المقتدر، ولكن من دون أن نرى المستوى المطلوب لدى المتلقين من عموم الجيش والأمة. وبالنتيجة ضعفت شوكة المؤمنين المجاهدين، في بعض المراحل من عهده، وأخذت تتسع طبقة الساسة المصلحيين، وهم يحملون شعارات إسلامية ولكن بروح جاهلية.

---

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٢٢.ويقدّم أدلة عديدة من كتب التاريخ المعتبرة كشواهد على سياسة معاوية في سبيل التمسك بكرسي الحكم وجعله وراثة في بني أُميّة.

(٢) راجع باب الخطب، رقم ١٢٢.

وعليه، فقد وضع الإمام عليه السلام أسس تربيته الجهادية لمشروعه الإسلامي، وتلقّى المخلصون من جنده وأصحابه تفاصيل تعاليمه وتربيته، كما وسجّل معاناته من عموم الجيش والأمة لخذلانهم لموقفه الحق، فقد قال عليه السلام: «ووالله إنْ جئتُها إنّي لَلْمُحقُّ الذي يُتّبعُ، وإن الكتاب لمعي، ما فارقْتُهُ مُذْ صَحْبْتُهُ..»[١]. يقول العلّامة الخوئي في منهاج البراعة: «إنه إمام مفترض الطاعة، وأن الأمر إليه وهو وليّ الأمر،.. واللازم عليهم التسليم والانقياد، لا الإنكار والاعتراض، والاقتدار والمتابعة لا الرّد والامتناع.. «وان الكتاب لمعي»، إشارة إلى أنه لا يرد ولا يصدر في شيء. إلّا بحكم الكتاب»[٢]. فقد قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[٣]. وكانت له شكوى وانتقاد لمواقفهم التراجعية، وسلوكهم المتخاذل، كل ذلك - أيضاً - ضمن تلقي تربيته الجهادية في سبيل تقويمهم واصلاحهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. فلنقف أمام نموذج من معاناته في هذا الصدد:

قال الإمام عليه السلام في خطبة له، عند علمه بغزوة النّعمان بن بشير صاحب معاوية لبلدة عين التمر[٤]: «مُنيتُ بمن لا يطيعُ إذا أمرْتُ، ولا

---

(١) باب الخطب، رقم ١٢٢.

(٢) الخوئي، العلامة ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٨، ص ١٤٦.

(٣) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ج٣، ص١٢٤. عن أم سلمة وقال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه. والحافظ الذهبي أكّد صحته.

(٤) عين التمر: هي بلدة معروفة تقع غربي الكوفة ما بين الأنبار وكربلاء، بقربها بلدة شَفَاثا، المشهورة ببساتين النخيل، حيث يجلب منها التمر إلى سائر البلاد. وهي بلدة =

يُجيبُ إذا دعوْتُ، لا أبا لكم! ما تنتظرون بنصركم ربّكم؟ أما دينٌ يجَمعُكم، ولا حميّةَ تُحمشُكم! أقومُ فيكم مستصرخاً، وأناديكم متغوّثاً، فلا تسمعون لي قوْلاً، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تكشَّفَ الأمورُ عن عواقب المَسَاءة، . . دعوتُكم إلى نصر إخوانكم، فجرْجَرْتُمْ جرجرةَ الجمل الأسَرِّ، وتثاقلتم تثاقُلَ النّضْو الأدْبَرِ، ثم خرج إليّ منكم جُنيْدٌ متذائبٌ ضعيفٌ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾»[١].

ومعنى «منيت: ابتليت. وتُحمشكم: تغضبكم. والتغوّث: طلب النصرة بالنداء»[٢]. وقوله عليه السلام: «حتى تكشّف الأمورُ عن عواقب المَسَاءة». «أي انكم لا تزالون تخالفونني وتخذلوني حتى تنجلي الأمور والأحوال عن العواقب التي تسوؤنا ولا تسرنا»[٣]. «والجرجرة: ترديد صوت البعير عند عسفه، والسّرر: داء يأخذ البعير في سرّته. والنّضو: البالي من تعب السير. واستعار لهم وصف الجرجرة: باعتبار تضجرهم من دعوتهم إلى الحرب. .»[٤].

وهكذا يصوّر الإمام حالة عدم الطاعة ونتائجها الوخيمة. حيث

= قديمة افتتحها المسلمون عنوةً أيام الخلافة الأولى سنة ١٢ للهجرة. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص١٧٦.

(١) باب الخطب، رقم ٣٩. والآية الكريمة من سورة الأنفال ٨/ ٦. قال السيد الشريف في معنى «متذائب»، «أي، مضطرب من قولهم: تذاءبت الريح، أي اضطرب هبوبها. ومنه سمي الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته». تعليقه هذا بعد ذكره للخطبة.

(٢) البحراني، ابن ميثم: اختيار مصباح السالكين، ص١٤٧.

(٣) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١١٢.

(٤) البحراني، ابن ميثم: اختيار مصباح السالكين، ص١٤٨.

الضعف والعجز نحو حركة الجهاد، والتثاقل والاضطراب والتخوّف والكسل، إنه الجُنيد المتذائب، أي المضطرب، يا لدقة التصوير وروعة التعبير عن حالة الهزيمة والتقهقر، بعد كل ذلك الاستصراخ والاستغاثة. أتدري لماذا؟ لأن الإمام عليه السلام يريد من عموم جيشه أن يتحمّل المسؤولية الشرعية من دون إكراه، وأن يخوض المعركة في سبيل الله لا بدوافع المال والاغراءات الدنيوية، بل أراد أن ينصروه عن قناعة وإيمان، أراد أن يبني جيشاً عقدياً مطيعاً، على أساس الاندفاع الذاتي، فواجه واقعهم المتخاذل بشجاعة وحكمة، كاشفاً عن تخاذلهم في نصرة الحق ساعة الشدّة، انها المواجهة الجادّة لتلك الحالة الخطيرة، والتي «هي عبارة عن الانفصال بين النظرية والتطبيق، . . ويبرز طلبهم التريّث في التصدي لهذه الحرب الخاطفة التي يشنها عليهم معاوية، وهذا الطلب يكشف عن تخاذلهم، وشبّههم بموقف المدين المطول الذي يملك القدرة على الوفاء، ولكنه يفتقر إلى خلق الوفاء. ثم واجههم بأن هذا الموقف لا يؤدي بهم إلى خير. . إنه يؤدي إلى الخسران والضياع»[1]. بهذه الجدّية يرسم لهم مصيرهم المنتظر، وذلك لكي يستفزّ مشاعرهم ويستنهضهم لنصرة الحق، بروح ايمانية تنطلق تلقائياً نحو الاطاعة والانضباط تحت رايات الجهاد.

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص٧٤-٧٥.

المطلب الثالث

الالتزام بالنظام

يتلقى الجيش من الإمام عليه السلام تربيته وتعاليمه في دعوته المستمرة للالتزام بضوابط النظام الاجتماعي والقانوني في الإسلام. وذلك في مختلف الظروف المحيطة به، أي في ظروف القهر والضعف أو في حالات الغلبة والانتصار.

إنّ الالتزام بأخلاقيات الإسلام دليل على وعي المتلقين داخل المؤسسة العسكرية للقيم والثوابت الإسلامية، في مجال التعامل الانساني. وعليه فإن الجيش المنهزم لا بد أن يعالج هزيمته بطرق تكفل تطوره، ليعيد الكَرَّةَ في جولة أخرى، ولا يعالج انكساره بحالات ثأرية عصبية حاقدة، بعيدة عن روح الإسلام. وهكذا بالنسبة للجيش المنتصر، ففي ساعات الزهو والافتخار يدعوه الإمام إلى عدم فقدان توازنه الطبيعي، باهتزاز قيمه الأخلاقية، بل عليه أن يسيطر على نفسه، وذلك بكبح جماح الغرور والعجب في ذاته، ليبقى ملتزماً بمناقبيّات الشهامة والسموّ والنبل والشرف في الأخلاق والتوجهات الإنسانية. فالانتصارات الفعلية، والبطولات الحقيقية ليست بكسب المعركة عسكريّاً فقط، وإنما بالفوز في صراع الهوى ومتطلبات النفس الأمارة بالسوء.

فإذن سرّ النجاح المتكامل يكمن في القدرة على المحافظة على روح القيم الإسلامية في إطارها الانساني الرّاقي، بعد تحقيق الانتصار على أرض المعركة، فقد قال الإمام عليه السلام لمّا عزم على لقاء القوم بصفين: «اللهمّ ربَّ السّقْف المرفوع.. وربَّ الجبال الروّاسي التي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخَلْق اعتماداً، إن أظْهَرْتَنا على عدوِّنا، فجنّبْنا البغيَ وسدّدْنا للحقِّ، وإنْ أظْهَرْتَهُمْ، علينا فارزقْنا الشهادةَ، واعْصِمْنا من الفتنة»(١).

بهذا الدعاء المبارك، وفي الظرف الحسّاس، حيث عزم الإمام على خوض المعركة، يطلب من الله سبحانه لجيشه أن يلتزم بالنظام الأخلاقي والإنساني في حالتيْ النصر أو الشهادة. فقوله عليه السلام: «إن أظهرتنا على عدوّنا»، «أي جعلت النصر لنا، «فجنّبنا البغي» أي الظلم، فإنّ العسكر الظافر غالباً يظلم المغلوبين. «وسدّدنا للحق» أي لأن نعمل به. «وإن أظهرتهم علينا» بأن غُلبْنا وكان النصر لهم، «فارزقنا الشهادة» أي الموت في سبيلك، «واعْصمْنا» أي احفظنا، «من الفتنة» بمعنى الانحراف عن سنن الإسلام، فإنّ الأمة المغلوبة غالباً تتّبع الأمة الغالبة في آدابها وملوكها، بل ودينها»(٢).

نتناول هذا المطلب ضمن المحاور التالية:

١• الالتزام بالنظام قبيل المعركة وفي حالة الانتصار.

---

(١) باب الخطب، رقم ١٧١. السقف المرفوع: السماء. اعتماداً: أي معتمداً، أي ملجأ يعتصم به. عبده، محمد: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص٨٤.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٣، ص٤١.

٢• ظاهرة تعظيم الخليفة أو القائد.

٣• من نتائج عدم الالتزام بالنظام.

● **الالتزام بالنظام قبيل المعركة وفي حالة الانتصار:**

إن حركة الجيش الإسلامي تعتمد -بعد التوكل على الله، والإعداد التّقني- على الالتزام بنظام الحرب، من السرّية في التحرك والتخطيط، وإلى أساليب المباغتة في الدفاع والهجوم، كل ذلك ضمن الوسائل المشروعة في العرف العسكري النزيه، أي أن تكون ضمن موازين الشرف الإنساني والقيم الخلقية، التي تحتويها الشريعة الإسلامية، وذلك من أجل تحقيق الغلبة والانتصار، بعيداً كل البعد عن أساليب الغدر والمكر والجوْر، التي يتّبعها مَنْ يحمل روحاً جاهليةً عدوانيةً، فهو يتوسل بشتى الطرق لنيل الغلبة العسكرية في الميدان على حساب القيم والنبل والشرف الإنساني. وهنا رُبّ سائل يسأل: كيف يتوافق هذا الالتزام مع المقولة المعروفة «إن الحرب خدعة»[1]؟

في الحقيقة لا يوجد تعارض بين المنهجين، وإنما هنالك حالة من التكاملية بينهما. فليس معنى الحرب خدعة أن تُستخدم أساليب الغدر والقتل للنّاس الأبرياء، لغرض إثارة الفتن والقلاقل، وبالنتيجة لكسب المعركة، وإنما تكون أساليب الحرب خدعة في إطارها الحربي والقتالي بين جيشين متحاربين، على المستوى الأمني

(١) «الحرب خدعة»، وردت هذه الكلمة على لسان النبي المصطفى ﷺ في اكثر من واقعة حربية، انظر: الريشهري، محمد: ميزان الحكمة، مج٢، ص٥٦٦، رقم ٣٥٠١-٣٥٠٧.

الاستخباري، أو الاعلامي الاستعراضي، أو الحركي كالمباغتة في الهجوم وما شابه ذلك، وقد تستخدم اثناء المبارزات الفردية أيضاً. ففي تقديري لا يمكن -إطلاقاً - احتساب شن غارات عسكرية على مسلمين آمنين في ديارهم، وإراقة دماء بعضهم، وسلب عوائلهم، وانتهاك حرماتهم من باب «الحرب خدعة». وهذا -بالضبط - ما فعلته غارات معاوية الحربية التي شنّت على أطراف بلاد المسلمين، وسنسلط الأضواء عليها في الفصل القادم، لذلك قال الإمام علي عليه السلام: «واللهِ ما مُعاويةُ بأدْهى منّي، ولكنّهُ يَغْدرُ ويَفْجُرُ. ولولا كراهيَةُ الغَدْر لكنتُ من أدهى الناس، ولكنْ كُلّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ. ولكُلّ غادرٍ لواءٌ يُعْرَفُ به يومَ القيامة. واللهِ ما أُسْتَغْفَلُ بالمكيدة، ولا أُسْتَغْمَزُ بالشَّديدة»[1]. وهنا يقسم الإمام عليه السلام: «والله ما أُستغفَل بالمكيدة»، «أي لا تجوز المكيدةُ عليّ كما تجوز على ذوي الغفلة. «ولا أُستغمز» - مبني للمجهول -: أي لا أُستَضعف بالقوة الشديدة. والمعنى: لا يستضعفني شديد القوة»[2].

فالإمام عليه السلام في كل حركته السياسية والجهادية كان ملتزماً بالنظام الإسلامي بتمام أخلاقياته العامة، فقد «كان ملازماً في جميع حركاته قوانين الشريعة مدفوعاً إلى اتّباعها، ورفْض ما العادة أن يستعمل في الحروب. فالتدابير من الدهاء والخبث والمكر والحيلة.. كان غيره يعتمد جميع ذلك، سواء وافق الشريعة أو لم يوافق.. وذلك أن علياً عليه السلام كان لا يستعمل في حروبه إلّا ما يوافق الكتاب والسُّنّة، وكان معاوية يستعمل ما يخالفهما كاستعماله ما

(١) باب الخطب، رقم ٢٠٠.

(٢) التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٥١٦.

يوافقهما، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى»[١]. لأنه يريد تحقيق سلطانه بأية وسيلة كانت، بينما يبقى الإمام ملتزماً بالنظام الشرعي، مصححاً ما في أذهان العامة، في أن المكر والجور من أساليب السياسة الرابحة، فالإمام يرفض أسلوب الخداع والمكيدة، ولا يقبل أن يكون من الغافلين لها، كما ولا يضعف أمام الخطوب مهما اشتدت، لذلك يأمر جيشه بالالتزام بالنظام العام في كل الظروف، وذلك لأنه يحمل همَّ الانقاذ والاصلاح والهداية للناس، حتى المحاربين له، لذلك قال حينما استبطأ أصحابه إذنَه لهم في القتال بصفين: «أما قولكم كُلّ هذا كراهَيةَ الموت؟ فو الله ما أبالي، دخلتُ إلى الموت أو خرج الموتُ إليّ. وأما قولكم شكّاً في أهل الشام! فو الله ما دفعتُ الحَرْبَ يوماً إلّا وأنا أطمعُ أن تلحقَ بي طائفةٌ فتهتدي بي، وتَعشُوَ إلى ضوئي، وذلك أحبّ إليّ منْ أنْ أقتُلَها على ضَلالها، وإنْ كانتْ تبوءُ بآثامها»[٢].

يبين الإمام عليه السلام أنّ للمعركة نظاماً شرفياً، وانّ للقتال آداباً، وللانتصار أخلاقاً، لا بد من الالتزام بها، فكما أنّ للعدو الجريح حقوقه، وللنساء المقهورات رعاية خاصة، هنالك آداب إنسانية قبيل المعركة أيضاً، فصاحب الحق مطمئن في معركته لا يبدأ بالقتال، بل ويترك فرصاً للسّلم والتبصر مفتوحةً أمام الأعداء إلى آخر لحظة ممكنةٍ قبل اندلاع الحرب، لعلّ هنالك من بينهم من

---

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٤٠-٤٤١.

(٢) باب الخطب، رقم ٥٥. تعشو إلى ضوئي: تستدل عليه وتقصده، لأن من رأى ضوءاً، ولو بنظر ضعيف فربما قصده مهتدياً به. تبوء بآثامها: ترجع. مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص٢٩٩.

يضيء الله سبحانه في قلبه نور البصيرة فيتجنب القتال أو يحوّل جبهته إلى جانب الحق.

● **ظاهرة تعظيم الخليفة أو القائد، ومدحه والثناء عليه أمامه:**

هذه الظاهرة تعدّ في منهج عليّ خروجاً عن الالتزام بالنظام العام، لذلك دعا إلى تحمّل المسؤولية أمام الله سبحانه، وقطع دابر هذه الظاهرة التي لو قبلها الإمام واسترخى على آثارها، لسارت عَدْواها إلى طبقات الولاة وقيادات الجيش والمسؤولين في الدولة. ويعني ذلك إلغاء حالة المساواة أمام القانون في المواطنة الإسلامية، والعبودية إلى الله ﷻ. وبذلك ستشق طريقها هذه الظاهرة الشاذة، وتنمو في الأمة حالات من الترف الفكري والأدبي ما لا يُحمد عقباها.

إن هذه الظاهرة - في الحقيقة - هي موضع ابتلاء واضح الدلالة، تعيشه الأمة الإسلامية من قادتها السياسيين اليوم، فحفلات المدح والثناء والتمجيد بمناسبة أعياد ميلادهم أو لخطاب معيّن لهم أو أية مناسبة وطنية أو دينية تستغل لتعظيم حكّام المسلمين بما ليس فيهم، من صفات الإيمان والجهاد والإخلاص، وأبسط نظرة إلى صورهم وسلوكياتهم وأعمالهم وعوائلهم يستنتج المتلقي بُعدهم عن الإسلام والجهاد، وبعضهم يعلن اتجاهه العلماني في إدارة شؤون المسلمين من دون تردّد! فمن هنا وقف الإمام عليه السلام موقفاً صارماً أمام جنده وعسكره - بالتحديد - في ردع هذه الظاهرة، وأمرهم بتوجيه ثنائهم وتسبيحهم إلى الخالق المدبر المنعم سبحانه وتعالى، لقد خطب في جيشه بصفّين، ومن جملة ما قال لهم: «.. وأعظمُ ما

افترض - سبحانه - من تلك الحقوق حقُّ الوالي على الرعيّة، وحقُّ الرعيّة على الوالي، فريضةٌ فرضَها الله - سبحانه - لكُلّ على كُلّ، فجعلها نظاماً لألفتهم، وعزّاً لدينهم.. [فأجابه عليه السلام رجلٌ من أصحابه بكلام طويل، يكثر فيه الثناء عليه، ويذكر سمعه وطاعته له، فقال عليه السلام]: إنّ من حقّ مَنْ عَظُمَ جلالُ اللهِ سُبحانَهُ في نفسه، وجلَّ موضعُهُ منْ قَلْبِهِ، أن يَصْغُرَ عندهُ - لعِظَمِ ذلك - كلُّ ما سواهُ، وإنّ أحقَّ منْ كان كذلك لَمَنْ عظُمتْ نعمةُ الله عليه، ولطُفَ إحسانُهُ إليه، فإنّه لم تعْظُمْ نعمةُ الله على أحدٍ إلّا ازداد حقّ الله عليه عِظَماً. وإنّ منْ أسْخَفِ حالات الوُلاة عند صالح الناس، أنْ يُظنَّ بهم حُبُّ الفَخْر، ويوضعَ أمرُهُمْ على الكِبْر، وقد كرِهْتُ أنْ يكونَ جالَ في ظنّكم أنّي أُحبُّ الإطْراء، واسْتماعَ الثّناء، ولستُ - بحمد الله - كذلك، ولو كنتُ أحِبُّ أن يقالَ ذلك لتركتُهُ انحِطاطاً لله سبحانه عن تناوُل ما هو أحقُّ به من العظمة والكبرياء. وربّما اسْتحلى الناسُ الثَّناءَ بعد البَلاء، فلا تُثْنوا عليَّ بجميل ثناءٍ، لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم من التقيّة في حقوقٍ لمْ أفْرُغْ من أدائها، وفرائضَ لا بُدّ من إمضائها، فلا تكلِّموني بما تُكَلَّمُ به الجبابرةُ، ولا تتحفّظُوا منّي بما يُتحفّظُ به عند أهل البادرة، ولا تُخالطوني بالمُصانَعَة، ولا تظُنّوا بي اسْتثقالاً في حقٍّ قيل لي، ولا الْتماسَ إعظام لنفسي، فإنّه من اسْتثقَلَ الحقَّ أنْ يُقالَ له أو العدْلَ أنْ يُعْرَضَ عليهِ، كان العملُ بهما أثقلُ عليه. فلا تكُفّوا عن مقالةٍ بحقٍّ، أو مشُورَةٍ بعدْلٍ، فإنّي لستُ في نفسي بفوْق أن أخطئَ ولا آمَنُ ذلك من فعْلي، إلّا أنْ يَكفيَ اللهُ من نفسي ما هو أملَكُ به منّي، فإنّما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكونَ لربٍّ لا ربَّ غيْرهُ، يملكُ منّا ما لا نَمْلكُ من أنفسنا، وأخْرَجَنا ممّا كنّا فيه إلى ما

صَلَحْنا عليه، فأبْدَلَنا بعد الضَّلالة بالهُدى، وأعطانا البصيرةَ بعد العَمَى»[١].

«فالإمام يكره المديح، ولو افترض أن حدّثته نفسه لزجرها تأدباً مع الله ورسوله، فإنّهما أحقّ منه بذلك وأوْلى.. «فلا تثنوا عليّ..» لخيرٍ عملته، وجهدٍ بذلته، لأني ما عملت واجتهدت للثناء والإطراء بل «لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم..» أي إنما فعلت الذي فعلت لأحرّر نفسي من المسؤولية التي تحمّلتها بولايتي عليكم، وأصبح عليّ بموجبها حقوق وفرائض لله ولكم، وأعمل جاهداً للوفاء بها.. وهكذا العظيم يستقل من نفسه كل خير يفعله، وكل نوالٍ يبذله مهما غزر وكثر.

«ولا تخالطوني بالمصانعة» أي بالنفاق والرياء، بل بصراحة وعلى سجيّتكم.. «فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ»، أبداً لا ترى عظيماً، ولن تَرَهُ إلّا وهو متّهمٌ لنفسه، حتى ولو كان نبيّاً، فقد شهد شاهدٌ من أهلها ببراءة يوسف، ومع هذا قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ﴾[٢].

---

(١) باب الخطب، رقم ٢١٦. السخف: ضعف العقل. البلاء: هنا إجهاد النفس في إحسان العمل. التقية: الخوف، والمراد لازمه وهو العقاب. البادرة: الغضب. المصانعة: المداراة. أمَلكُ به منّي: أي أشدّ ملكاً مني. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٢٩٧٣-٢٩٧٨. والجدير بالذكر أن كلام الإمام هنا لا ينافي عصمته وإنما يجاري وعي الناس وعقولهم لأغراض تربوية على طريقة رسول الله ﷺ. ففي النص ذاته يقول: «فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى..». وهو لم يعبد صنماً لذلك يقال له كرم الله وجهه. وقد مرّ معنا قول النبي ﷺ: علي مع القرآن.. وحديث الثقلين.. وهكذا.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص ٢٧٥-٢٧٧. والآية من سورة يوسف ١٢/٥٣.

ثم يؤكد على مبدأ المساواة بين الجميع في العبودية لله سبحانه وتعالى. وقوله: «فأبدَلنا بعد الضلالة بالهدى..». يقول ابن أبي الحديد: «وليس هذا إشارة إلى خاصّ نفسه عليه السلام، لأنه لم يكن كافراً فأسْلم، ولكنه كلام يقوله ويشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفناء الناس، فيأتي بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسّعاً..»[١].

وهكذا كان ينهى عن مظاهر التعظيم للخليفة والوالي، ليبقى الجميع - بلا استثناء - في حالة الالتزام بالنظام العام، فقد «روي أنه عليه السلام، لما ورد الكوفة قادماً من صفيّن.. أقبل حرب [بن شُرَحْبيل الشّبامي، وكان من وجوه قومه] يمشي معه، وهو - عليه السلام - راكب فقال عليه السلام: «ارجعْ، فإنّ مَشْيَ مثلك مع مثْلي فتنةٌ للوالي، ومَذّلةٌ للمؤمن»[٢]. وهكذا، «كلما كان فتنة ومذّلة وجب تركه»[٣].

● **من نتائج عدم الالتزام بالنظام:**

الوقوع في فخّ الفوضى والاضطراب السلوكي، الذي يمتد إلى المسائل العقيدية أيضاً، فيفسدها في القلوب، وفي حينها تسود حالة الطبقية بين المسلمين، والتعامل الفوقي من قبل العسكريين، باعتبارهم أصحاب القوة والهيبة والنفوذ. وبالفعل قد يُبتلى من العسكريين بالكلام الزائد، والتبجح بذكر أمجادهم وبطولاتهم في الساحات والنوادي، فتراهم كثرة في أوقات السّلم، يتظاهرون بالبطولات الكلامية، إلّا أنهم يكونون قلةً حين ترتفع رايات الجهاد

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٦، ج١١، ص٧٥.
(٢) باب الحكم، رقم ٣٢٢.
(٣) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص ٣٧٥.

والمقاومة في ساحات الحرب، يتأثرون بإعلام العدو، فينهزمون إلى بيوتهم، عوضاً من الإقدام والاستبسال لصدّه والجهاد في سبيل الله، فقد قال الإمام عليه السلام في توبيخ بعض أصحابه: «كم أُداريكم كما تُدارى البِكارُ العَمِدةُ، والثيابُ المتداعيةُ! كلّما حيصتْ من جانب تهتّكتْ من آخر، كُلّما أطلّ عليكم مَنْسِرٌ من مناسر أهل الشام أغْلقَ كُلُّ رجلٍ منكم بابَه، وانْجحَرَ انْجحارَ الضَّبَّةِ في جُحرها، والضَّبُعِ في وِجارها. الذليلُ والله مَنْ نَصَرْتُمُوهُ! ومَنْ رُمِيَ بكم فقد رُمي بأفْوَقَ ناصلٍ. إنّكم والله لكثيرٌ في الباحات، قليلٌ تحت الرايات، وإنّي لعالِمٌ بما يُصلِحُكُمْ، ويقيمُ أوَدَكم، ولكنّي لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي..»[1]. إن الإمام -هنا- في معرض ذمّ بعض أصحابه المتقاعسين عن خوض الحرب، وقد شبههم بثلاث صور، وذلك نظراً لدقة تشخيصه لأوضاعهم وكل صورة تحملُ وجهاً من وجوه توبيخه لهم، فقد شبّههم بالإبل الفتيّة، وقد انشدخت أسنمتها من الداخل مع احتفاظها بظاهرٍ سليمٍ، وذلك من ثقل الحمل «ووجه الشبه.. قوة المداراة وكثرتها. وخصّ البِكار - جمع بكرة - لأنها أشدّ تضجّراً بالحمل عند ذلك الداء»[2]. ومراده

---

(١) باب الخطب، رقم ٦٩. البكار - ككتاب - جمع بِكْر: الفتيّ من الإبل. العَمِدة - بفتح فكسر -: التي انفضح داخل سنامها من الركوب. وظاهرُهُ سليم. الثياب المتداعية: الخَلَقَةُ المتخرّقة. ومداراتها: استعمالها بالرفق التام. حيصت: خيطت. تهتّكت: تخرّقتْ. المنْسِر - كمجلس ومنبر -: القطعة من الجيش تمرّ أمام الجيش الكثير. وأطلّ: أشرف. انجَحَرَ: دخل الجُحْر. الوجار: حُجْرُ الضبع وغيرها. الأفوق من السهام: ما كُسر فوقُه، أي موضع الوتر منه. والناصل: العاري من النصل، الباحات: الساحات. أوَدَكم - بالتحريك -: اعوجاجكم. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٦٢٥-٦٣٤.

(٢) البحراني، كمال الدين: اختيار مصباح السالكين، ص١٧٦.

إنهم يعانون من قلة الصبر، وعدم التحمل لتكليف الجهاد مرةً بعد أُخرى، كفرار العِمدة من معاودة الحمل. وشبّههم -أيضاً- بمداراة الثياب المتداعية، أي المتتابعة في التمزّق، وهي «الأسمال التي قد أخلقت، وإنما سميت متداعية لأن بعضها يتخرّق فيدعو بعضها إلى مثل حاله»[١]. ومراده انه كلما أصلح حال بعضهم، وجمعهم للقتال، فسد بعض آخر. هذا وقد شبّه تقاعسهم في بيوتهم بأنثى الضِّباب والضباع التي تفرّ من إشارات عدوانية، لتستقر في بيتها خوفاً ورعباً، فهم يخفون أنفسهم لكي لا يكلفوا بالجهاد في صدّ العدوان. «وإنما خصّ الإناث لأنها أولى بالمخافة من الذكران»[٢]. ثم وصفهم بقلة الانتفاع بهم وهم على هذه الحالة، كمن يرمي بالسهم الأفْوق وهو «ما كسر فوقه أي موضع الوَتَر منه، والناصل: العاري من النصل، وهو حديدة السهم. . ومن المعلوم أن السهم إذا كان مكسور الفوق، عارياً عن النصل لم يؤثر في الرمية»[٣]. كأنه يرمي عدوّه بسهمٍ محطّم لا يؤدّي غرضه، «وهذا مثل يضرب لمن استنجد بمن لا ينجده»[٤].

وهنا يستوقفنا اسلوب الإمام التربوي مع هذا النمط من أصحابه، فهل من الحكمة توبيخهم بهذه الطريقة الشديدة؟ وهل بلغ وضعهم إلى درجةٍ لا تطاق من الانهزامية اليائسة؟

لعلنا لا نجانب الحقيقة إن فرّقنا بين مهمة الإمام القائد الربّاني، وبين الملك الحاكم العسكري، فالأول يختلط مع الناس خصوصاً

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٣، ج٦، ص٢٤٤.

(٢) البحراني، كمال الدين: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص١٩٢.

(٣) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٢٩١.

(٤) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٣، ج٦، ص٢٤٥.

أصحابه وجيشه ليكشف عيوبهم وسلبياتهم بنفسه، فيتألم لحالهم، ومن خلال واجبه الشرعي -من موقعه - يسعى سعياً حثيثاً لإصلاحهم وتقويمهم على جادة الحق. على عكس الملك الذي يستخدم الشدة والقوة لتنفيذ أوامره، فلا يختلط مع الناس ولا يعيش آلامهم. فالإمام عليه السلام في تربيته لأصحابه يلزم نفسه على الاحاطة التامة بأحوالهم، ليسعى في تنقية نفوسهم من تلك السلبيات، بعرضها عليهم وجهاً لوجه من دون مجاملات، محاولاً قلعها من الجذور، وذلك لغرض تمكينهم من نفض غبار الكسل والخوف، ليؤدوا -بقناعة - أدوارهم الجهادية من دون طمع أو خداع أو إكراه. -وفي تقديري - ان الإمام بهذه الطريقة زرع بذور الثقافة الجهادية المسؤولة في نفوس المسلمين، ليس في عصره فحسب بل على مرّ العصور. هذا وقد صرح لهم عن علمه بالطريقة التي تصلح حالهم، وتقيم اعوجاجهم، ومراده الشّدة والسيف، ولكن بيّن خطورة هذه الطريقة المفسدة لنفسية الحاكم، وبهذا التصريح يجيب الإمام على تساؤلات كثيرة تدور حول سياسته مع جيشه في مواجهة أعدائه. فهو لا يريد إطاعة عمياء تأتي عن طريق القوة والعنف، أو الخداع والطمع، يقول طه حسين: «كان معاوية يشتري ضمائر كثير من أهل الكوفة والبصرة ليفُسدهم على عليّ، ثم ظل على ذلك بعد أن استقام له الأمر.. بمال المسلمين، لا يرى بذلك بأساً، ولا يرى فيه جناحاً.. [وبالمقابل] كان عليّ كثيراً ما يقول لأهل الكوفة: إني لأعرف ما يصلحكم، ولكني لا أفسد نفسي بإصلاحكم.. وما أشك في أنه -رضي الله عنه - كان يحسن السياسة كلّ الإحسان، وكان جديراً لو اصطنعها، أن يجمع إليه الناس، ويوحّد كلمتهم، ولكنه آثر الدين على الدنيا، وأبى أن

يصلح الناس ويفسد نفسه، فحرص على أن يهتدي، وبلغ من ذلك ما أراد، وفارق الدنيا راضياً مرضياً لم يحتمل خطيئةً، ولم يقترف إثْماً»[١]. وبذلك أراد الإمام عليه السلام ألّا يزدادوا مرضاً وانحرافاً، وسوءًا في نواياهم، لأنهم سيألفون الحالة السلبية المتمردة على الواقع، فلا يطيعون إمامهم وقياداتهم فحسب، بل وينتقدون المطيعين للحق، وبعضهم يتحمّل المسؤولية في البداية وإلى أن تصل مسيرتهم الجهادية إلى قرب النتائج يجهضون مشروعهم. فقد قال عليه السلام في إحدى خطبه: «. . أيتها الفرقةُ التي إذا أمرتُ لم تُطِعْ، وإذا دعوتُ لم تُجِبْ. . وإنِ اجتمعَ النّاسُ على إمامٍ طَعنتم. .»[٢]. أي: «ان ألجأتُكم إلى الحرب تخاذلتم وضعفتم، وإن رأيتم قلوب المسلمين معي شاغبتُمْ وتآمرتم»[٣].

وهكذا شدّد الإمام عليه السلام في تربيته الجهادية للجيش، ليبقى طاهراً نقياً من تلك الأمراض والحالات السلبية، يخدم الإسلام والمسلمين، بتطوّع ذاتي، وتواضع نفسي، يسعى بكل طاقته لحفظ الأمن الداخلي، وصدّ الهجوم العدواني من الخارج. وكان عليه السلام يصارحهم في خطبه وأقواله موضحاً تلك النتائج المؤلمة التي وصل إليها بعض العسكريين، معالجاً أمراضهم، واضعاً أصبعه على نقاط الضعف لديهم، ببعدهم عن روح الإيمان، وعمق الالتزام بالنظام.

---

(١) حسين، طه: مرآة الإسلام، من المجموعة الكاملة، مج٧ (إسلاميات)، ص٣٣٥.

(٢) باب الخطب، رقم ١٨٠.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص١٦.

المطلب الرابع

قتالُ الأهل والأرحام بتسليمٍ وصبرٍ وثبات

إن الجيش المتلقّي لتربية الإمام عليه السلام وتعاليمه الجهادية، يحمل همّ الإسلام فوق كلّ شيء في الحياة، فتكون الأولوية للإسلام ومصالح المسلمين في المسيرة الحياتية، في المنهج الفكري والسلوكي والعبادي، وكذلك للنظام الإداري والسياسي للأمة. فالجهود والطاقات - على ضوء هذه التربية - تتّجه نحو إحياء مبادئ الإسلام في الحياة بمختلف مظاهرها. وهذا الأمر يتطلب التضحية الكاملة بالغالي والنفيس من أجل العقيدة الحقة ومصالح الأمة. انطلاقاً من الإيمان المطلق بأن الإسلام هو دين الله القويم الذي أنزله على الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه وآله، وأنّ تشريعاته هي من أجل الإنسان وفي مصلحة الناس جميعاً، لأنه دين الرحمة والمحبة والسلام، قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1].

وحينما تكون التربية الجهادية للإمام عليه السلام باتجاه تحميل الجيش همّ الإسلام في تطبيقه وحمايته ونشره بين الناس، وكذلك حماية مصالح الأمة الإسلامية، حينها ترتكز التربية على حب التضحية

---

(١) سورة الأنبياء، ٢١/١٠٧.

والفداء من أجل الإسلام وقيادته الشرعية ودولته، وستخضع كل الدوائر الثانوية - بهذا الاعتبار - أي الدوائر الرحميّة والعلائق الاجتماعية، للدائرة الكبرى أي الإسلام ونظامه. ومهما كان الترابط الرحمي أو الاجتماعي وثيقاً، فإن الترابط الأخوي على أسس الإيمان، هو الترابط الأساس والمصيري، الذي يمتاز بالسمو والنبل والحب القلبي والتماسك الروحي، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[١]. هذا الحصر الواضح يكشف عن المعنى الحقيقي للاخوة وآثارها بين المؤمنين وهو «جعل تشريعي لنسبة الأخوة بين المؤمنين، لها آثار شرعية وحقوق مجعولة»[٢]. ويذكر العلّامة الطباطبائي في بحثه الروائي قول الإمام الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن، عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشّه ولا يَعِدُهُ عدّة فيخلفه»[٣].

إن هذا الفهم المتقدّم في الوعي الإسلامي لمعنى الاخوة على أسس الإيمان، لا يلغي الاخوة النسبيّة، والرضاعيّة، والعلائق الرحميّة والاجتماعية، في آثارها الشرعية والاعتبارية، وإنها في موضع الاهتمام في أقوال الإمام عليه السلام، إلّا أنها محدّدة في أطرها الشرعية، ما لم تتطوّر - بالإضافة إلى وجودها - إلى قمة الاخوة الإيمانية المنشودة، فقد قال الإمام عليه السلام، ضمن وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام: «وأكرم عشيرتك، فإنّهم جَناحُك الذي به تطير، وأصْلُك الذي إليه تصير، ويدُك التي بها تصول»[٤].

---

(١) سورة الحجرات ٤٩/ ١٠.

(٢) الطباطبائي، السيد محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن: مج ١٨، ص ٣١٥.

(٣) المرجع ذاته، ص ٣١٩.

(٤) باب الرسائل، رقم ٣١. آخر جملة من مقطع (الرأي في المرأة).

إن الإسلام يريدها علائق محدّدة بأطرها الإنسانية المشروعة، خالية من حالات التعطب الجاهلي للعشيرة من قبل أبنائها في جميع الظروف. وعليه لو اصطدمت المصلحة الرحمية والعرفية والعشائرية بالإسلام والإيمان، هنا على المؤمنين أن يبرزوا الأخوة الإيمانية، فهي فوق الميول والاتجاهات الاجتماعية، والجيش الإسلامي المتلقي من الإمام علي عليه السلام تربيته الجهادية، يتلخّص جهاده من أجل الإسلام ومصالح الأمة الإسلاميّة.

نتناول هذا المبحث ضمن المحاور التالية:

١• إطاعة الجيش وولاؤه لولي الأمر الخليفة الشرعي.

٢• قتال الأهل والأرحام في عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

٣• قتال الأهل والأرحام في منهج الإمام علي عليه السلام.

• إطاعة الجيش وولاؤه لولي الأمر، الخليفة الشرعي:

يتحرك الجيش العَقَدي ضمن دائرة الإطاعة التامة للإمام، أو لمن اختاره الإمام لقيادة الجيش أو قيادة حملة عسكرية محدّدة، أو إدارة ولاية معينة من ضمنها الجيش. فإنه يعرف حدوده وصلاحياته، التي هي ذات رباط وثيق بالقائد العام للأمة والجيش وهو الخليفة الشرعي.

ومن الطبيعي أن تكون هذه الإطاعة شاملة لمسألة قتال الأهل والأرحام، إذا اقتضى الأمر ذلك، لأنّ إطاعة الإمام أو ممثّله، هي إطاعة للإسلام، والإسلام لا يعلوه شيء. فخلف الراية الجهادية الشرعية، يطيع الجيش أوامر القيادة في قتال الأعداء حتى لو كانوا من الأهل والأرحام. وهذه خلاصة مفهوم الطاعة، لذلك نقرأ ممّا

كتب عليه السلام إلى أصحاب المسالح: «.. ولي عليكُمُ الطاعة، وألّا تَنْكُصُوا عن دعوة، .. وأن تخوضوا الغَمَرات إلى الحقّ..»[1].

معالجة الإمام عليه السلام للحالات الشاذة:

تظهر في الأمة حالات نفاقية شاذة، تناولها الإمام وعالجها بحكمة ورويّة، وبالفعل بعض الناس - ربما في كل زمان - لا يبايع إلّا عن مصلحة أو خوف أو نيّة سوء. وحينما تتكشف المواقف، تظهر الحالة الانهزاميّة والمصلحية لدى البعض. فكان الإمام يضع هذا النمط من البشر في إطار المراقبة والمحاسبة، خصوصاً في ظروف الحرب والشدّة. ويمهلهم في الظروف الاعتيادية، لأنهم لا يملكون إرادة الحياة الكريمة، وهذا الأسلوب بحد ذاته يعتبر موتاً سياسياً لهم، وإسقاطاً اجتماعياً أيضاً لانكشاف ضعفهم. فمن كلام له عليه السلام لمروان بن الحكم بالبصرة، فقد «قالوا: أخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل، فاستشفع الحسن والحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فكلّماه فيه، فخلّى سبيله، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام:

أوَلَمْ يُبايعْني بعد قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيعته! إنّها كفٌّ يهوديّة، لو يبايعني بكفّه لغَدَر بسُبّته..»[2].

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٠. المسالح - جمع مَسْلَحَة -: أي الثغور، لأنها موضع السلاح، وأصل المَسْلَحة: قومٌ ذوو سلاح. لا تنكُصُوا: لا تتأخروا ولا تتقاعسوا عن الجهاد إذا دعوتكم إليه. الغمرات: الشدائد. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٦٨٤-٦٨٥.

(٢) باب الخطب، رقم ٧٣.

فيرفض الإمام بيعته، ويصف كفه بأنها كفّ يهودية غادرة، وهذه الصفة ملازمة لليهود منذ القدم. يقول الأستاذ محمد عبده: «السبت - بالفتح - الأست.. وكنى به عن الغدر الخفي، واختاره لتحقير الغادر، وقد يكون ذلك إشارة إلى ما كان يفعله سفهاء العرب عند الغدر بعقد أو عهد..»[١].

● **قتال الأهل والأرحام في عهد النّبي الأكرم ﷺ:**

إننا حينما نقول أن التربية الجهادية لدى الإمام عليه السلام، لا نعني بذلك إلّا الامتداد الطبيعي للتربية النبويّة التي تلقّاها الإمام علي وخيرة الأصحاب الكرام، من شخص النبي المصطفى ﷺ مباشرةً، حتى أصبح عليّ باب مدينة الرسول ﷺ العلمية، حيث قال في حديثه الشريف: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب»[٢].

إن التربية الإسلامية - بشكل عام - تجعل الإسلام في قلوب المؤمنين، محور عزّتهم وكرامتهم، وسبيل إنقاذهم وخلاصهم من الأزمات والفتن والعقوبة الإلهية في الدنيا والآخرة، لذلك يكون الإسلام لدى المؤمنين هو أغلى شيء في حياتهم، وأعزّ أمر في دنياهم، فهو مصدر إيمانهم وعزّتهم وثقتهم بوجودهم، بل هو مصيرهم في حاضرهم ومستقبلهم، وعليه يكون الإسلام فوق كل الاعتبارات والروابط الاجتماعية مهما قربت، ويكون الجهاد في

---

(١) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٢٤.

(٢) النيسابوري، الحافظ أبو عبد الله: المستدرك على الصحيحين كتاب معرفة الصحابة، عن جابر بن عبد الله، وقال: اسناده صحيح، ٣/ ١٢٧.

سبيل الله، يمثّل الذروة والقمة في الوعي الإيماني الخالص الذي غرسه النبي الأكرم ﷺ والإمام عليه السلام من بعده في نفوس المؤمنين المقاتلين في سبيل إحياء الإسلام وحمايته، وبالفعل لا يمكن فهم الإسلام إلّا بالإيمان بالله والجهاد في سبيله.

قال الإمام علي عليه السلام: «لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عزّ أعزّ من التقوى»[١].

إن من أبرز مظاهر العمل بالإسلام والالتزام بهديه، الجهاد في سبيل الله بإمرة وليّ الله، فقد قال الإمام عليه السلام: «إن أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله، فإنه ذروة الإسلام»[٢]. وذلك لأن «من دونه لا يتحقق التحرّر من ربقة الجبت والطاغوت، ومن ثم لا يتحقق المجتمع العادل الذي يستطيع أن يؤدي وظائفه بروح إيجابية»[٣].

وبالجهاد يظهر أكبر مصاديق الطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر من بعده، لهذا كانت معارك النبي الأكرم ﷺ بالمطيعين له ضد العاصين. قال الإمام: «فإن الله سُبحانه بعث محمداً ﷺ، . . فقاتلَ بمنْ أطاعه مَنْ عصاه. .»[٤].

وإن كان مع العاصين بعض الأهل والأرحام شملهم القتال أيضاً. قال الإمام عليه السلام: «. . فلقد كُنّا مع رسول الله ﷺ، وإنّ القتلَ ليَدُور على

---

(١) باب الحكم، رقم ٣٧١.

(٢) باب الخطب، رقم ١١٠.

(٣) المرتضى، السيد: نهج الكفاح، ص١٤.

(٤) باب الخطب، رقم ١٠٤.

الآباء والأبناء والإخْوان والقرابات، فما نزدادُ على كُلّ مصيبةٍ وشدّةٍ إلّا إيماناً، ومُضيّاً على الحقّ، وتسليماً للأمر، وصبراً على مَضَض الجراح»[١].

في هذا المقطع من خطبته، يقدّم للمسلمين تجربة السلف الصالح بقيادة النبي الأكرم ﷺ، ليتأسى المسلمون بالماضين من خيار أصحاب الرسول ﷺ، المطيعين له والمجاهدين بين يديه في سبيل الله. بمعنى: «أنا إذا قاتلنا بين يدي رسول الله ﷺ، كنا له مسلّمين ولأمره مطيعين ومنقادين، ولا يزداد ما نَزَلَ بنا من المصائب إلّا نوراً وإيماناً، وتسليماً وإذعاناً، فلا بد لكم أن تكونوا كذلك، وأن تَردّوا الأمر إلى ولي الأمر، ولا تكونوا له مخالفين، وعن حكمه متمرّدين»[٢].

● **قتال الأهل والأرحام في منهج الإمام علي عليه السلام:**

إنه ذات المنهج الجهادي الذي سنّه الرسول الأكرم ﷺ، فالجهاد حقّ الجهاد، يتجسّد في خوض المعركة، وقتال الأعداء العاصين بكل شجاعة وثبات، وبصيرة وصدق، ووعي وإخلاص. من دون أن يتأثر المجاهد بمحاولات المثبطين لعزائم المسيرة الجهادية، لذلك قال الإمام عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «..وجاهدْ في الله حقّ جهاده، ولا تأخذُك في الله لومةُ لائم، وخُض الغمرات للحقّ حيثُ كان..»[٣]. فإذا اقتضى الأمر، سيتمّ قتال الأهل والأرحام، الذين

(١) باب الخطب، رقم ١٢٢.
(٢) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٨، ص ١٤٧.
(٣) باب الرسائل، رقم ٣١. من مقطع (أحْي قلبك بالموعظة).

اختاروا موقعهم في جبهة الباطل والمعتدين. فقد قال الإمام لجيشه يوم صفين: «ولقد كُنّا مع رسول الله ﷺ، نقتُلُ آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا: ما يزيدُنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً، ومُضيّاً على اللَّقَم، وصبراً على مَضَض الألم، وجدّاً في جهاد العدو.. فلمّا رأى اللهُ صدقنا أنزَل بعدوّنا الكَبْتَ، وأنْزَلَ علينا النصر، حتى استقرّ الإسلامُ..»[1].

فكان الإمام يبيّن الدرجة العليا من إطاعة أصحاب الرسول ﷺ وهو معهم، لأوامر الرسول الأكرم ﷺ، في القتال، لأجل الإسلام، وذلك ليعرف أصحاب الإمام، الذين أقرّوا بالصلح مع العدو، تقصيرهم في إطاعة أوامره التي كانت باتجاه مواصلة المعركة وهي في فصولها الأخيرة، وعدم الانجرار إلى خديعة الصلح والتحكيم. فذكر لأصحابه ذلك الموقف الشجاع من قبل أصحاب رسول الله، المجاهدين تحت ظلّ رايته الهادية، حيث «أن أحدهم كان يقتل أباه وولده طلباً لرضا الله، وذبّاً عن دينه، ثم لا يزيده ذلك إلّا إيماناً وتسليماً لقضائه، ومُضيّاً على واضح سبيله، وصبراً في طاعته على مضض الآلام المتواترة.. وقوله: «فلمّا رأى الله صدقنا..» فيه تنبيه على أن الجود الإلهي لا بُخْلَ فيه، ولا منع من جهته، وإنما هو عامّ الفيض على كل قابلٍ استعد لرحمته، وأشار برؤية الله صدقهم إلى علمه باستحقاقهم واستعدادهم بالصبر الذي أعدّهم به، وبإنزال النصر عليهم والكبت لعدوّهم إلى إفاضته على كلّ منهم ما استعدّ له.

---

(١) باب الخطب، رقم ٥٦. اللّقَم - بالتحريك -: معظم الطريق أو جادته. مضض الألم: لذعته وحرقته. الكبْت: الذل والخذلان. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٠٤-١٠٥.

وقوله: استقر الإسلام.. إشارة إلى حصول غايتهم التي قصدوها بجهاد العدو.. وهي استقرار الإسلام في قلوب عباد الله..»[١].

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٤٨-١٤٩.

المبحث الثالث:

قادة الجيش

وفيه أربعة مطالب:

★ المطلب الأول : الأوامر الخاصة بأسمائهم في شأن الدفاع والإقدام ★

★ المطلب الثاني : الوصايا الخاصة للتعبئة الذاتية والإنضباط ★

★ المطلب الثالث: الإستشارات معهم ودراسة ظروف المعركة ★

★ المطلب الرابع : الوصايا الخاصة بهم لرعاية جوانب الأخلاق، نحو الأسرى وضعاف المجتمع، والمدى في الطريق ★

تمهيد

إن قادة الجيش - بالتحديد - يملكون إجراءات القرار الميداني في المعركة، فبأيديهم طاقات الجنود والمراتب والأصناف العسكرية، من المشاة إلى الخيّالة والرماة والعيون الرقيبة على قدرات وحركة جيش العدو، وكذلك معرفة أحداث المعركة والحسابات التفصيلية لكفاءة الجنود عن خبرة ودراية، ليتمكنوا من توزيعهم على أرض المعركة حسب إمكاناتهم، هذا كله ضمن التخطيط الأوّلي للمعركة، وهنالك مهمة شديدة الأهمية للقادة الميدانيين، وتتلخص باستيعاب أحداث المعركة وصدماتها، والعودة السريعة عن الأخطاء إن ارتكبت ضمن (التكتيك) العسكري، وعدم استصغار تلك الأخطاء، لأن أحداث المعركة تسير في نظام دقيق، فقد يكلّف الخطأ البسيط كارثة غير متوقعة. وربما يكون الخطأ الأول هو الخطأ الأخير، الذي قد يحسم المعركة لصالح العدو.

«فيجب أن يكون القائد العسكري متصّفاً بصفة النفوذ والهيبة التي تجعله نافذ الأمر، وذلك لأن الصفة الأولى المطلوبة من

الجندي هي الطاعة وبدونها لا يمكن أن ينجح جيش على الإطلاق، وما لم يكن للقائد العسكري صفة النفوذ والهيبة بعُدت الطاعة عن منال يديه، وحينئذ لا ينجح في عمله العسكري.

. . . ويجب أن يكون واجداً للثقافة العسكرية، عارفاً بأساليب قيادة الجيش وحركاته، و(الاستراتيجية) العسكرية. ولما كان القائد هو المثل الأعلى للجندي، وجب أن يكون هذا القائد مثلاً يُحتذى لجنوده في الصبر على المكاره، والتفاني في القيام بالواجب، وهما من ألزم الصفات العسكرية في الجنود والقادة على السواء»[1].

هذا، ولكي لا يتطور الحسّ السلطوي لدى القادة، فيعاملون أفراد الجند كأنهم أدوات طيّعة في قبضة أيديهم، يستغلونهم لأغراض شخصية وأنانيّة، قد تحوّل المؤسسة العسكرية إلى مصدر قلاقل وإرهاب داخل الأمة. كان الإمام - على الدوام - يُسدي إلى القادة وصاياه وتعليماته ونصائحه وأوامره الخاصة، لغرض السيطرة على مفاصل الجيش، أي القادة روحياً وقلبياً أي إيمانياً، وكذلك بالهيبة والقوة والحكمة، التي تفرض الاحترام والطاعة والانصياع. كل ذلك بعد عمليات دقة الاختيار لعناصر الجيش وقادته بالتحديد، ومواصلة الرقابة والرعاية والاختبار لهم، وذلك لضمان استقامتهم على جادة الحق.

فإذن، ومما تقدم ندرك المهمة الرئيسية للجيش في الدفاع عن كرامة الأمة، والوقوف إلى جانب المظلومين، وخوض معارك الشرف لمقاتله الأعداء المعتدين. إلّا أن هذه المهمة الرئيسية، هي

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص ١٨١.

في الحقيقة ثمرة جهود مضنية يبذلها القادة العسكريون قبل الوصول إلى ساحة القتال وخوض المعركة، من اختيار عناصر الجيش، لا سيما القادة منهم، إلى استمرارية تربيتهم الإيمانية والعسكرية، ومنحهم الثقة النفسية العالية بأدوارهم المهنية، وتطويرها.

لذلك حينما سئل الإمام عن الإيمان، قال: «الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل والجهاد.. والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصّدق في المواطن، وشنآن الفاسقين: فمن أمر بالمعروف شدّ ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه..»[١]. فالصدق في المواطن القتالية يستلزم الصبر والثبات والشجاعة والتمكّن العسكري في قتال الأعداء. وإن «ثمرة الصدق في المواطن المكروهة، هي قضاء الواجب من أمر الله تعالى في دفع أعدائه والذبّ عن الحريم»[٢].

سنفصل هذا المبحث ضمن المطالب التالية:

المطلب الأول: الأوامر الخاصة بأسمائهم في شأن الدفاع والإقدام.

المطلب الثاني: الوصايا الخاصة للتعبئة الذاتية والانضباط.

المطلب الثالث: الاستشارات معهم ودراسة ظروف المعركة.

المطلب الرابع: الوصايا الخاصة بهم لرعاية جوانب الأخلاق، نحو الأسرى وضعاف المجتمع، والمدن في الطريق.

---

(١) باب الحكم، رقم ٣١.

(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص ٢٤١.

المطلب الأول

الأوامر الخاصة بأسمائهم
في شأن الدفاع والإقدام

إن إمارة الجيش وقيادة المجاهدين في المعركة، إما أن تكون من قبل الإمام بنفسه، فهو يقود قطاعات عسكره وجنده، ويشرف عليها ميدانياً بشكل مباشر، ويتابع حركتها وتقدمها خطوة بخطوة. من طليعة الجيش أي مقدمته الاستطلاعية، وإلى الميمنة ثم الميسرة، وبأصناف المقاتلين كالمشاة والرماة والخيّالة، وحامل الراية. ويكون إشرافه المباشر على جميع أحكام الجهاد والغنائم ومسائل الحرب التفصيلية أو قبول السلم. وإما أن يتم تعيين قائد للجيش من قبل الإمام، فيبعثه لميادين الجهاد والقتال مزوّداً بتعاليمه وخططه، بالإضافة إلى ما يحمله خزين تربيته المتواصلة له.

وإما أن يخوّل الوالي صلاحية تعيين قائد الجيش لتلك البلاد، معتمداً على إيمان وذكاء الوالي في تشخيص الصفات المطلوبة في شخص القائد المختار لهذه المهمة، كما ويزوّده بالأسلوب الإداري الخاص له، وذلك لتتم الرعاية النفسية والمادية المطلوبة والمناسبة لهذه الطبقة في الجيش، وبالذات شخص القائد.

إن هذه الطريقة في قيادة الجيش، بشقيها المباشر وغير المباشر،

قد اتبعها الرسول المصطفى محمد ﷺ، فإنه «في بعض الغزوات كان ﷺ هو القائد على الجيش، وفي أحيان أخرى كان يقلّد أمير المؤمنين عليه السلام أمور هذه القيادة، لما اتصف به الإمام من الشجاعة والإقدام والجرأة، عرف بها بالتجربة العملية في غزوة الخندق وغيرها. وظلّ هذا التقليد معمولاً به فيما بعد، إذ كان الخليفة يسند قيادة الجيش إلى أحد جنوده ممّن تتوافر فيه الشروط»(١).

بل أحياناً كان من الحكمة والمصلحة الإسلامية العليا، ألّا يقود الخليفة جيش المسلمين بنفسه مباشرة، لذلك حينما استشار عمر بن الخطاب في عهد خلافته علياً، في الخروج إلى غزو الروم، قال له: «..إنك متى تَسِرْ إلى هذا العدوِّ بنفسك، فَتَلْقَهُمْ فَتُنْكَبْ، لا تكن للمسلمين كانِفةٌ دون أقصى بلادهم. ليس بعدَكَ مَرْجِعٌ يَرجعون إليه، فابعثْ إليهم رجُلاً مِحْرَباً، واحْفِزْ معه أهلَ البلاء والنصيحة، فإنْ أظهر اللهُ فذاك ما تُحِبُّ، وإنْ تكُن الأخرى، كنت رِدْأً للنّاس ومثابةً للمسلمين»(٢).وكذلك قال عليه السلام له حينما استشاره في الشخوص لقتال الفرس بنفسه(٣).

إذن تكون إمارة الجيش، وقيادة المجاهدين المقاتلين «على

---

(١) الموسوي، د.محسن باقر: الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي، ص ١٨٠.

(٢) باب الخطب، رقم ١٣٤. كانفة: عاصمة يلجؤون إليها، من كنفه إذا صانه وستره. احفِزْ: أمْرٌ من الحفز، وهو الدفع والسّوْق الشديد. أهل البَلاء: أهل المهارة في الحرب مع الصدق في القصد، والجرأة في الإقدام. والبَلاء: هو الإجادة في العمل وإحسانه. الرِّدْء - بالكسر -: الملجأ. المثابة: المرجع. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٣٢٦.

(٣) راجع باب الخطب، رقم ١٤٦.

ضَرْبيْن: أحدهما: أن تكون مقصورة على سياسة الجيش، وتدبير الحرب، فيَعتبر فيها شروط الإمامة الخاصة، والضرْب الثاني: أن يفوّض إلى الأمير فيها جميع أحكامها من قسم الغنائم وعقد الصلح، فيعتبر فيها شروط الإمامة العامة»[1]. بالنسبة للإمام علي عليه السلام، فقد قاد الجيش الإسلامي بنفسه مباشرة في حروبه الثلاث. كما انه منح ولاته ضمن وثيقة التعيين صلاحية تشكيل الجيش، وقيادته للحرب أو الصلح. وخوّلهم بإمارة الجيش، وتعيين القائد المناسب له، بعد أن حدّدَ شروط الاختيار للقائد العسكري، وأمر برعايته في ظروف السلم والحرب معاً. وهذا ما سنلاحظه بجلاء في عهده لمالك الأشتر حينما ولّاه مصر.

● **شروط اختيار قائد الجيش:**

لقد حدّد الإمام عليه السلام في عهده للأشتر مجموعة شروط ووصايا خاصة لاختيار قائد الجيش، واستمرار رعايته ومحاسبته، حيث قال عليه السلام: «. . فَوَلِّ من جنودك أنَصَحَهُمْ في نفسِك لله ولرسوله ولإمامك، وأنقاهُمْ جيْباً، وأفضلهم حِلْماً، ممّن يُبْطئُ عن الغَضَبْ، ويستريحُ إلى العُذْر، ويرأفُ بالضعفاء، ويَنْبو على الأقوياء، وممّن لا يُثيرُه العنفُ، ولا يَقْعُدُ به الضّعفُ. ثُمّ الصَق بذوي المروءات والاحساب، وأهل البيوتات الصالحة، والسّوابقِ الحسنة، ثُمّ أهلِ النَّجدة والشَّجاعة، والسَّخاء والسَّماحة، فإنّهم جِماعٌ من الكرم، وشُعَبٌ من العُرْف .

---

(١) الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٣٥. عن الموسوي، د.محسن باقر: المرجع السابق، ص١٨١.

وليكنْ آثرَ رؤُوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفضلَ عليهم من جِدَته، بما يسَعُهُمْ ويَسَعُ مَنْ وراءَهم من خلوف أهليهم. حتى يكونَ همّهُمْ همّاً واحداً في جهاد العدوّ..»[1].

إن هذه الأوامر الخاصة والوصايا الدقيقة في شأن اختيار قادة الجيش ورعايتهم، وردت في عهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر، عندما عيّنه والياً على مصر. ففي هذا المقطع يبين الإمام أهم صفات القائد العسكري، بعد أخذه من وسطه العائلي والاجتماعي المحافظ على الصفات الخلقية الحسنة، من الكرم والسخاء والشجاعة، ممّا يؤهله نفسياً وجسدياً لتحمّل مسؤولية قيادة الجيش، وخوض غمار هذه المهمة الجهادية الشّاقة، وتعدّ هذه الخطوة أساسية في التربية، لأنها تشكّل عملية اختيار حجر الأساس للمشروع الجهادي. ومما لا يخفى إن هذا الانتقاء بشروطه البدنيّة أكثر من النفسية الذي تتّبعه معظم الحكومات المعاصرة، كشروط أساسية لقبول الشباب في الكليات العسكرية، هو أمر غير دقيق، بينما يهتم الإمام بالجوانب النفسية، والتربية البيتية، والنشأة البيئيّة في انتقائه، إلى جانب الصحة البدنية، وهنا تطالعنا دقّة المنهجيّة التربوية لدى الإمام. يقول الشيخ شمس الدين: «فقد كانت هذه البيوتات تأخذ أبناءها بتربية قاسية واعية، توفر لهؤلاء الأبناء الثقافة العسكرية، وهي من أهم ما كان

---

(١) باب الرسائل، رقم ٥٣. (عهد الأشتر) من مقطع بدايته (فالجنود بإذن الله، حصونُ الرعيّة). نقي الجيب: أي طاهر الصدر والقلب. الحلم هنا: العقل. ينبو عليه: يتجافى عنهم ويبعد. العُرف: المعروف. آثر: أي أفضل وأعلى منزلة. واساهم: ساعدهم بمعونته لهم. أفضل عليهم: أي أفاض. الجدَة - بكسر ففتح - الغنى. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، ما بين رقم ٤٠٦٢-٤٠٧٣.

يأخذ به العرب ويعنون بإتقانه، وتغرس في أنفسهم الشعور بالمسؤولية والتحمّل والصبر على المكاره»[١]. وبعد هذه الخطوة تأتي عمليات البناء الايماني والجهادي، فتنمو من خلالها شخصية القائد العسكري الذي يتميّز بوعيه الايماني، وقوة صبره، وصلابة إرادته، وشجاعة مواقفه، ويكون - بالفعل - ناصحاً مخلصاً لله والرسول والإمام، وأميناً نزيهاً، وحليماً شجاعاً، لا يخرجه غضبه عن إطار الإيمان، وعطوفاً رحيماً بالضعفاء، بعيداً عن الأقوياء وضغوطهم.

ومن خلال النص يؤكد الإمام على ضرورة اختيار الأفضل لقيادة الجنود، وهو الذي يمتاز بصفة الاحسان والمواساة لهم في المعونة، والرعاية لعوائلهم، وذلك ليتم إحاطتهم من الناحية النفسية، والرعاية المادية. يقول الشيخ مغنية: «إذا أراد القائد أن يسمع له الجيش ويعطوه الولاء والطاعة، فعليه أن يحسن إليهم، وإلى ما يعيلون، ويكفيهم جميع ما أهمهم، كي ينصرفوا إلى الجهاد لا يشغلهم عنه أي شاغل، وأي قائد يؤدي هذا الواجب مع جنوده فهو أهل للتعظيم والتكريم»[٢].

- **شمولية الأوامر لشأن الدفاع والإقدام:**

فمن أمثلة شأن الدفاع، كتابه عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي، وهو عامله على منطقة هيت[٣]، وهو ينكر عليه تركه دفع من يجتاز به

---

(١) شمس الدين، الشيخ محمد مهدي: دراسات في نهج البلاغة، ص١٨١.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص ٧٢.

(٣) هيت: بلدة على نهر الفرات، فوق الأنبار، معروفة بالنخيل والخيرات، وهي مجاورة للبرية، وهيت -أيضاً- من قرى حوران من ناحية اللّوى من أعمال دمشق. والاولى هي المقصودة بقرينة وجودها في العراق، ضمن نفوذ الكوفة =

من جيش العدو طالباً الغارة، حيث جاء في الكتاب: «أمّا بعدُ، فإنّ تضييعَ المرءِ ما وُلّيَ، وتكلُّفَهُ ما كُفيَ، لَعَجْزٌ حاضرٌ، ورأيٌ مُتَبَّرٌ، وإنّ تعاطيك الغارةَ على أهل قرقيسيا، وتعطيلك مسالحَك التي ولّيناك ليمنع بها من يمنعُها، ولا يَرُدّ الجيشَ عنها - لَرَأيٌ شَعَاعٌ. فقد صِرْتَ جِسْراً لمنْ أراد الغارةَ من أعدائك على أوليائك، غيرَ شديدِ المنْكِب، ولا مَهيبِ الجانب، ولا سادٍّ ثُغْرَةً، ولا كاسرٍ لعدوٍّ شوكةً، ولا مُغْنٍ عن أهل مِصْره، ولا مُجْزٍ عن أميرِهِ»(١).

لقد كان كميل من خواص أصحاب الإمام، وعامله على هيت، وعليه المحافظة على منطقته وصدّ العدوان عنها، من قبل جيشه الذي هو تحت إمرته، إلّا أنه كانت - كما يقول ابن أبي الحديد -: «تمرّ عليه سرايا معاوية تنهب أطراف العراق ولا يردّها، ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يُغير على أطراف أعمال معاوية مثل قرقيسيا وما يجري مجراها من القرى التي على الفرات، فأنكر عليه السلام ذلك من فعله

= -عاصمة دولة الخلافة- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٢١.

(١) باب الرسائل، رقم ٦١. كميل بن زياد من أصحاب الإمام علي عليه السلام وخاصّته المقرّبين له، قتله الحجّاج حينما ولي الأمر فيمن قتل من شيعة الإمام علي عليه السلام. الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي: معجم رجال الحديث، ج١٤، ص١٢٨، رقم ٩٧٥٣. أما معنى رأيٌ متبّر - كمعظّم - من (تبره تتبيراً) إذا أهلكهُ، أي هالك صاحبه. قرقيسيا - بكسر القافين بينهما ساكن - بلد على الفرات. المسالح - جمع مسلحة -: مواضع الحامية على الحدود. رأيٌ شعاع - كسحاب -: أي متفرّق. المنكبْ - كمسجد-: مجتمع الكتف والعضد، وشدته كناية عن القوة والمنعة. والثغرة: الفرجة يدخل منها العدو. أغنى عنه: ناب منابه، وقائد المسالح ينبغي أن ينوب عن أهل المصر في كفايتهم غارة عدوهم. عبده، محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١١٨.

وقال: إن من العجز الحاضر أن يُهمل الوالي ما وَليَه، ويتكلّف ما ليس من تكليفه»[١]. هذا، وقد شبّهه الإمام بالجسر «باعتبار عبور العدوّ عليه إلى غرضه»[٢].

● **أوامره في الإقدام والنهوض:**

أما من أمثلة أوامره في شأن الإقدام، كتابه إلى أبي موسى الأشعري، وهو عامله على الكوفة، وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج للجهاد، في حربه لأصحاب الجمل، فقد جاء في الكتاب: «أما بعد، فقد بلغني عنك قولٌ هُو لَكَ وعليك، فإذا قِدم رسولي عليك فارفعْ ذَيْلَكَ، واشْدُدْ مئْزَرَكَ، واخْرُجْ من جُحْرِك، وانْدُبْ من معك، فإنْ حقّقْتَ فانْفُذْ، وإنْ تَفشّلْتَ فابْعُدْ! وايْمُ اللهِ لتُؤْتَيَنّ من حيثُ أنتَ، ولا تُتْرَكُ حتى يُخْلَطَ زُبْدُك بخاثرك، وذائبُك بجامدك.. فاعْقلْ عقلك، وامْلِكْ أمْرَك، وخُذْ نصيبَك وحظَّك. فإنْ كرهْتَ فتنحّ إلى غير رَحْبٍ ولا في نجاةٍ، فبالحَريِّ لتُكْفيَنّ وأنت نائمٌ، حتى لا يُقال: أين فلان؟ واللهِ إنّهُ لَحَقٌّ مع مُحِقٍّ..»[٣].

يذكر الرواة أنّ أبا موسى الاشعري كان «والياً على الكوفة حين

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٩، ج١٧، ص ١٠٦.

(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص ١٨٨.

(٣) باب الرسائل، رقم ٦٣. اخرج من جُحرك: أمرٌ له بالخروج من منزله للّحاق به. إن حقّقت: أي أخذت بالحق والعزيمة. تفشّلتَ، أي جبنتَ. الخاثر: اللبن الغليظ، والكلام تمثيل لاختلاط الأمر عليه من الحيرة، وأصل المثل (لا يدري أيخثر أم يذيب). اعقل عقلك: قيّده بالعزيمة. ولا تدعه يذهب مذاهب التردّد من الخوف. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص٧٢٨-٧٢٩.

خرج أصحاب الجمل على الإمام، واستنفر الإمام أهل الكوفة للجهاد.. فثبطهم هذا الأشعري»[١]. بقوله: «إنّها فتنة فلا يجوز القيام فيها.. والقول الذي بلغه عنه هو نهي الناس وتثبيطهم عن النهوض إليه..»[٢].

وأما معنى قوله عليه السلام: «بلغني عنك قولٌ هُو لك وعليك: «أن أبا موسى كان يقول لأهل الكوفة، إن علياً إمامُ هدى، وبيعته صحيحة، إلّا أنه لا يجوز القتال معه لأهل القبلة، وهذا القول بعضه حق، وبعضه باطل»[٣].

يقول الشيخ مغنية: «والذي نراه أنّ الإمام يردّ بقوله هذا على خطبة الأشعري في أهل الكوفة مثبطاً عن الجهاد مع الإمام، بقوله: «أيها الناس: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله ورسوله ممّن لم يصحبه.. وإن هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان، والقاعد خير من القائم.. فاغمدوا سيوفكم».. فقال له الإمام: ان قولك هذا «هو لك وعليك» أي فيه حق وباطل، أما الحق فهو أن أصحاب الرسول أعلم من غيرهم بالدين، وأما الباطل فهو أن القاعد في هذه الفتنة خير من القائم، لأن الله سبحانه قد أوجَبَ قتال مثيري الفتنة بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[٤] ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[٥]. فكيف تنهى يا أشعري عمّا أمر الله به؟ وهل قولك هذا إلّا رضاً بالفتنة

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص ١٥٥.
(٢) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص ١٩٢.
(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٩، ج١٧، ص١٧٣.
(٤) البقرة، ٢/ ١٩٣.
(٥) البقرة، ٢/ ١٩١.

وتشجيع لها؟»[١]. ثم أمره برفع ذيله، وشدّ أزره»، «وهذان كناية عن استعداده للجهاد»[٢].

وقوله عليه السلام: «ولا تترك حتى يخلط زُبْدُك بخاثرك».. والخاثر: اللبن الغليظ، والزّبد خلاصة اللبن وصفوته، فإذا أثْخَنْتَ الإنسان ضرباً كنت كأنك خلطتَ ما رقّ ولطُف من أخلاطه بما كَثُفَ وغَلُظَ منها، وهذا مَثَل، معناه لتفُسدنّ حالك ولتُخلّطنّ، وليضربنّ ما هو الآن منتظم من أمرك»[٣].

ثم أمره مرةً أخرى أن يراجع عقله وحساباته ليقف مجاهداً في سبيل الله، ناصراً دين الله، تحت لواء الإمام الشرعي الذي بايعه دون إكراه. وقد حمّله مسؤولية الخروج للجهاد، فإن كره امتثال أمر الجهاد، وجبن عن الخروج للقتال، فطلب منه ان يعتزل وظيفته في الولاية.

وقوله عليه السلام: «فبالحريّ لتُكفَيَنّ»، أي «إنك لجدير بالإهمال والنسيان، لأنك لا تغني شيئاً، ولذا نكفيك ونعفيك «وأنت نائم حتى لا يقال: أين فلان؟»، متى أهملناك تصبح نكره لا تُعدّ من الحضور، ولا تُفقد لدى الغياب»[٤].

هذا، وقد كتب إلى بعض أمراء جيشه: «فإنْ عادوا إلى ظلّ الطاعة فذاك الذي نُحبّ، وإنْ توافت الأمورُ بالقوم إلى الشّقاق

---

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص ١٥٦.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص ٢٢٧.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: المرجع السابق، مج٩، ج١٧، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤) مغنية، محمد جواد: المرجع السابق، ص ١٥٦-١٥٧.

والعصيان فانْهَدْ بمنْ أطاعك إلى من عصاك، واسْتَغْن بمنْ انْقادَ معك عَمّنْ تقاعَسَ عَنْكَ، فإنّ المُتكارهَ مغيبُهُ خيرٌ من مَشْهده، وقعودُه أغنى من نهوضه»[١].

روي أن الأمير الذي كتب إليه الإمام هو عامله على البصرة عثمان بن حنيف، جواباً على كتابه عن حال أصحاب الجمل[٢] وقد ضمّنه أمره بالإقدام على المواجهة العسكرية والإسراع بالنهوض في وجه الناكثين، وذلك بمن أطاع وانقاد لأمر الجهاد، مستغنياً عن المتقاعسين، لأن المتكاره «حضوره في الحرب موجب للمفسدة العظيمة، التي هي تخاذل العسكر ووهنهم، فمغيبة خير من شهوده..»[٣].

(١) باب الرسائل، رقم ٤.
(٢) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج١٧، ص ١٧٠.
(٣) المرجع ذاته، ص١٧٢.

المطلب الثاني

الوصايا الخاصة للتعبئة الذاتية والانضباط

إن قادة الجيش هم بمثابة العمود الفقري لجهاز القوات المسلحة، والشريان الرئيس الذي يمدّ المراتب العسكرية والجنود بالروح المعنوية، والشجاعة القتالية، فهم أمراء الجيش والمفروض أن يكونوا القدوة الصالحة لهم في التضحية والطاعة والانضباط. كما وتقع على كواهل أمراء الجيش مسؤولية التخطيط العسكري، للدفاع عن مصالح الأمة وبلاد المسلمين، وللهجوم واقتحام معاقل العدو - إذا اقتضى الأمر- وكذلك لتزويد الجيش بالخطط العسكرية الكفيلة لنجاحه وانتصاره على العدو في حالة التلاحم والاشتباك المباشر معه. وعلى ما تقدّم، يظهر إن مسؤولية قادة الجيش على قدر كبير من الأهمية والخطورة معاً، خصوصاً حينما نتطلع إلى الرسالة التي يحملها الجيش الإسلامي بقيادة الإمام عليه السلام، فإنها لا تقتصر على جانب المواجهة والقتال فقط، وإنما تعني رسالة الإسلام باستقامته فكرياً وجهادياً، وعدله قانونياً وإنسانياً. لذلك حظي أمراء الجيش باهتمام الإمام، فكانت له وصايا خاصة بهم، وذلك في إطار التعبئة الذاتية روحيّاً ومعنوياً، وبشكل متواصل، حتى تتحوّل إلى قيم ثابتة

في روح القادة العسكريين، وسلوكياتهم وطموحاتهم أيضاً. تمتاز بقدرة فائقة على الانضباط أمام قرارات الإمام، وتوجيهاته الحربية والسلوكية. للمثال نذكر ما حصل على شريعة الفرات في حرب صفين، حيث استولى جند معاوية على الشريعة، ومنعوا جند الإمام عليه السلام من ورود الماء، فأمر الإمام بعض قادة جيشه ليقتحموا الشريعة ويطرودوا جند معاوية منها، وبالفعل تمّ ذلك. يذكر ابن أبي الحديد، أنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية في حينها: «ما ظنّك يا معاوية بالقوم إنْ منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس! أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه! ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة.

فقال معاوية: دع عنك ما مضى، فما ظنّك بعليّ؟ قال: ظنّي أنه لا يستحلّ منك ما استحللت منه، وأن الذي جاء له غير الماء.. [وبالفعل إنه يحمل رسالة الإسلام وقيمه الخالصة، لذلك حينما قال أصحاب علي عليه السلام]: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك. فقال: لا، خلّوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون، سنعرض عليهم كتاب الله، وندعوهم إلى الهدى، فإن أجابوا، وإلّا ففي حدّ السيف ما يُغني إن شاء الله. قال [الراوي، نصر بن مزاحم]: فو الله ما أمسى الناس حتى رأوا سُقاتهم وسقاة أهل الشام وَرواياهم وروايا أهل الشام يزدحمون على الماء، ما يؤذي إنسانٌ إنساناً»(١).

- **التعبئة الذاتية لقادة الجيش:**

مما لا شك فيه، أنّ التعبئة الذاتية روحياً ومعنوياً لقادة الجيش

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج٢، ج٣، ص ٢٢٧-٢٢٨.

تضمن استمرار عزيمة الاستبسال في المعركة، وشجاعة الإقدام في ميادين القتال. وقد اتخذت هذه التعبئة عدة مظاهر ضمن أساليب التربية الجهادية لدى الإمام عليه السلام، كلها تدور في فلك وصاياه الإيمانية والأخلاقية والاستنهاضية، وحبّ التفاني والتضحية في سبيل الله، والتفنّن في الدفاع عن حقوق المسلمين وبلاد الإسلام، فقد وردت في نهج البلاغة، عدة أقوال للإمام عليه السلام في التعبئة والاستنهاض نحو الجهاد، وكان - أحياناً - يُحمّل المجاهد المتلقّي من أصحابه، خصوصاً القائد بالتحديد، مسؤولية قراره، وذلك بعد سماعه نداء الهدى والجهاد من الإمام عليه السلام، طالباً نصرته في جهاد عدو الإسلام. ففي حالة عدم استجابته للجهاد، يضعه الإمام عليه السلام أمام المحكمة الإلهية الكبرى، ليتحمّل ذنوبه، والله سبحانه في غنىً عن نصرته. وهذا ما نلمسه بوضوح في خطبته الاستنهاضية في أصحابه، التي قال فيها: «اللهمّ أيُّما عبدٍ منْ عبادك سَمِعَ مقالتَنا العادلةَ غير الجائرة، والمُصْلحةَ غيرَ المفسدة، في الدِّين والدُّنيا، فأبى بعد سَمْعه لها إلّا النُّكُوصَ عن نُصرتك، والإبطاءَ عَنْ إعزاز دينك، فإنّا نستشْهدُكَ عليه يا أكبر الشاهدين شهادةً، ونستشهدُ عليه جميع ما أسكنْتَهُ أرضَكَ وسماواتِك، ثمّ أنتَ بعدُ المُغْني عن نَصْره، والآخذُ له بذنبه»[1]. ومعنى قوله «فإنّا نستشهدك عليه..»، «أي نسألك أن تشهد عليه، ووصفه تعالى بأنه أكبرُ الشاهدين شهادة، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾، يقول: اللهم إنّا نستشهدك على خذلان من استنصرناه، واستنفرناه إلى نُصرتك، والجهاد عن دينك فأبى

(١) باب الخطب، رقم ٢١٢.

النهوض، ونكث عن القيام بواجب الجهاد، ونستشهد عبادك، من البشر في أرضك، وعبادك من الملائكة في سماواتك عليه أيضاً، ثم أنت بعد ذلك المغني لنا عن نصرته ونهضته، بما تتيحه لنا من النصر..»[١].

هذا، وما كانت أقواله عليه السلام التعبوية في شحذ هممهم تخلو من تبيان آفاق عزائمه الذاتيّة، ومعنوياته الفولاذية الصلبة، القائمة على أسس الإيمان، ووضوح اليقين بالله سبحانه، وشوقه إلى ثوابه وجنته. فقد قال في رسالةٍ له إلى أهل مصر: «..إني والله لو لَقيتُهُمْ واحداً وهمْ طِلاعُ الأرض كلّها ما باليتُ ولا استوحشْتُ، وإني من ضَلالهمُ الذي هم فيه، والهُدى الذي أنا عليه لعلى بصيرةٍ من نفسي ويقينٍ من ربّي. وإنّي إلى لقاء الله لمُشتاقٌ، وحُسْنِ ثوابه لمنتظرٌ راجٍ، ولكنّني آسى أن يلي أمرَ هذه الأمة سُفهاؤها وفُجّارُها..»[٢].

فالإمام عليه السلام، في هذه الرسالة يعبّئ أصحابه بالمعنويات الجهادية العالية، لغرض النهوض للدفاع عن هدف محدّد، وهو الإسلام وبلاد المسلمين، حتى لو كان وحده في ساحة المقاومة والجهاد ضد جيوش الأعداء وجحافل الباطل. فهمّهُ محاربة «مثيري الفتن والقلاقل ضد الإسلام.. والمعنى: أنا حرب لمن يضمر السوء للإسلام حتى ولو ملأوا عليّ الأرض رجالاً وسلاحاً»[٣].

---

(١) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج ٦، ج١١، ص٤٢-٤٣. الآية المباركة من سورة الأنعام ١٩/٦.

(٢) باب الرسائل، رقم ٦٢.

(٣) مغنية، الشيخ محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص ١٥١.

إن الإمام عليه السلام الذي يتحدى - بنفسه ولوحده - تلك الأعداد الكبيرة من جيوش الأعداء، فإنه يُلقي في نفوس المتلقين من أصحابه - لا سيما القادة - هزةً نوعيّة في مداها، عنيفةً في آثارها، حيث تتساقط التوجهات الشخصية، والتوقعات المصلحية - إن وجدت لديهم - وكذلك الحسابات العسكرية في مسائل المقاومة والجهاد، فتدفعهم نحو الانتفاضة على الواقع الفاسد، والمقاومة للانحراف، والجهاد بأرواحهم وأشخاصهم في سبيل الله. والإمام في هذا التلقين التربوي اللافت يخلق العزائم الصلبة، والتضحيات القصوى في نفوسهم. وهو عليه السلام إنما يقول ذلك عن إيمان صادق، وطموح مشروع لنيل رضاه سبحانه وتعالى، عن طريق النهوض في وجه الباطل عن بصيرة ويقين، طالباً الشهادة بل عاشقاً مشتاقاً لها.

- **وقفة تعبويّة من تعامل النبي صلى الله عليه وآله مَعَ أصحابه الكرام:**

ولقد كان الإمام عليه السلام يدعم تلقينه التربوي هذا، بعرض السيرة الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وآله مع أصحابه رضي الله عنهم، ويبين سيرته الذاتية أيضاً كنموذج لحياتهم، ضمن أصحاب الرسول في عهده صلى الله عليه وآله، وفي أيام خلافته عليه السلام أيضاً. وبذلك يرسم أمامهم الصورة الطموحة للقائد المجاهد، الذي تتبعه قوافل الجيش والمجاهدين.

إن عملية توجيه الأنظار والأحاسيس إلى الصورة التاريخية القريبة، وهي القدوة العظمى في حياة المسلمين، من سيرة النبي صلى الله عليه وآله وشفقته على أصحابه الكرام لها دلالات تربوية عميقة الأثر، لأنّ تقديم تلك الصورة الذهبيّة بتطلعاتها في التحدي والجهاد، متوّجةً بعزيمته عليه السلام - وهو في قلب تلك الصورة

الجهادية-، وبإصراره على دحر الباطل والظالمين، وبرفعه راية المقاومة والجهاد، كل ذلك يعكس في نفوس المتلقين من أصحابه - لا سيما قادة الجيش - عزائم كبيرة تجسّد روح الالتفاف المصيري بمنهجه الجهادي، في مواصلة مسيرة البناء والمقاومة والجهاد.

لقد قال عليه السلام في إحدى خطبه: «أما بعد، فإن اللهَ سبحانه بَعَثَ محمداً، صلّى الله عليه وآله، وليس أحدٌ من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدّعي نُبُوّةً ولا وحْياً، فقاتَل بمن أطاعه من عصاه، يسُوقُهُمْ إلى مَنجاتهمْ، ويبادرُ بهم الساعةَ أن تنزلَ بهم، يحْسرُ الحسيرُ، ويقفُ الكسيرُ، فيُقيم عليه حتى يُلْحقَهُ غايتَهُ، إلّا هالكاً لا خيرَ فيه، حتى أراهُمْ منجاتَهُمْ، وبوّأهم مَحَلّتَهُمْ، فاستدارتْ رَحاهم، واسْتقامت قناتُهُمْ. وايْمُ الله، لقد كنْتُ من ساقتها حتى تولّتْ بحذافيرها، واسْتوسَقَتْ في قيادها، ما ضَعُفْتُ، ولا جَبُنْتُ، ولا خُنْتُ، ولا وَهَنْتُ، وايمُ الله، لأبْقُرنّ الباطل حتى أخرجَ الحقّ من خاصِرَته!»[1].

فقد «كان النبي صلى الله عليه وآله لحرصه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين ورأفته بهم، يلاحظ حالَ من تزلزل اعتقاده، أو عرضت له شبهة، أو حدث عنده ريب، ولا يزال يوضّح له ويرشده حتى يزيل ما خامَرَ سرّه من وساوس الشيطان، ويلحقه بالمخلصين من المؤمنين»[2]. «فاستدارت» به صلى الله عليه وآله «رحاهم واستقامت قناتهم» كنّى باستدارة رحاهم

---

(١) باب الخطب، رقم ١٠٤. يحسرُ الحسير: من (حَسَرَ البعير) - كضَرَبَ - إذا أعيا وكلّ. الكسير: المكسور وهو هنا الذي ضعف اعتقاده أو كلّت عزيمته، فتراخى في السير على سبيل المؤمنين. عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٩٩.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج ٤، ج٧، ص٨٠.

عن انتظام أمورهم لأن الرّحى لا تستدير إلّا بعد تكامل الآلة وانتظام أدواته، وأراد باستقامة قناتهم، ظهور قهرهم وغلبتهم وحصول القوة لهم، لأن القناة سبب للقوة ولا تستقيمُ إلّا في حال الظفر والغلبة»[١].

وفي قوله عليه السلام: «وايم الله لقد كنت من ساقتها حتى تولّتْ بحذافيرها»، يقول الشارح المعتزلي: «أقسمَ أنه عليه السلام كان من ساقتها، الساقة : جمع سائق، كقادة جمع قائد.. المراد الجاهلية، كأنه جعلها مثل كتيبة مصادمة لكتيبة الإسلام، وجعل نفسه من الحاملين عليها بسيفه، حتى فرّت وأدبرت. وأتبعها يسوقها سوْقاً وهي مولّية بين يديه. حتى أدبرت بحذافيرها أي كلها عن آخرها»[٢]. ويقول السيد الشيرازي في قوله عليه السلام: «لقد كنت من ساقتها» أي من ساقة جيوش الكفر، يعني كنت أضربها وأفتك بها، وكونه في الساقة كناية عن مطاردتها بأجمعها، لا مطاردة جانب خاص فقط، «حتى تولّت».. انهزمت بأجمعها، «واستوسقت» أي اجتمعت «في قيادها» أي قياد الرسول صلى الله عليه وآله لها، بمعنى إطاعة العرب للرسول صلى الله عليه وآله فيما يأمر وينهى. «ما ضعفت ولا جبنت ولا خنت» فلم يكن لي نكوص عن الجهاد في سبيل الإسلام بسبب ضعفٍ في البدن، أو ضعفٍ في النفس، أو ضعفٍ في الإيمان، فإن الجبن من ضعف النفس، والخيانة من ضعف الإيمان، (ولا وهنتُ) الوهن أعم من الضعف. «وايم الله لأبقرنّ» أي أشقن (الباطل)، كأنه غلاف على الحق، فإذا

(١) الخوئي، ميرزا حبيب الله: منهاج البراعة، ج٧، ص٢١٢.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي: المرجع ذاته، ص٨٠-٨١.

شقّ ظهر الحق، «حتى أخرج الحق من خاصرته» أي جانبه، يعني أنا في هذا الحال كما كنت مع الرسول ﷺ، فلا أهتمّ بالباطل الملتف على الحق، كما لم أكن أهتم بالباطل المحارب للحق»[١].

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص ١٥٠.

المطلب الثالث

الشورى
ودراسة ظروف المعركة

مبدئياً، كان يعتمد الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام مبدأ الشورى في قراراته الإدارية والعسكرية بشكل عام، فيقدم المستشارون من أهل الحلّ والعقد، وذوي الخبرة والمعرفة آراءهم وملاحظاتهم، بتمام إرادتهم، لتتم دراستها ومناقشتها قبل اتخاذ القرار.

إن أهمية هذه الطريقة المشروعة تتجسّد في تنضيج الأفكار واستجماع الآراء، ودرس وجهات النظر المتعدّدة، وبها يتمّ التخلص من الحالة الاستبدادية والفردية في الحكم، ويتبنّى الجميع القرار النهائي إلى مستوى التضحية في تنفيذه، دفاعاً عنه، وذلك لاشتراكهم في مناقشاته وصياغته. فإن هذه الاستشارات مع الأصحاب والقادة، تعدّ بمثابة المطبخ الإداري لصناعة القرارات السياسية والجهادية المطلوبة. هذا وقد كان الإمام عليه السلام يطالبهم بممارسة حقوقهم الاستشارية، ويعتبرها نوعاً من تقديم الاعانة والتسديد لحكمه، فقد قال في الصالحين من أصحابه: «أنتمُ الأنصارُ على الحق، والإخوانُ في الدِّين، والجُنَنُ يوم البأس، والبطانةُ دونَ الناس. بكم أضربُ المدبر، وأرجو طاعة المقبل،

فأعينوني بمُناصحةٍ خليّةٍ من الغُشِّ، سليمةٍ من الرّيبِ، فو اللهِ إنّي لأوْلى الناس بالناس»[١].

ففي الشؤون العسكرية - دفاعاً وهجوماً - يطالبهم بمواصلة الجهاد والثبات، وكذلك بتقديم المشورة المخلصة لحماية العباد والبلاد، ثم يتوّج كلامه الخاص هذا بلزوم طاعته، «وهذه الجملة [الأخيرة] لتأكيد لزوم الإعانة له عليه السلام عليهم، حيث إنه عليه السلام أولى بهم من أنفسهم، فإعانته عليهم أولى من الانصراف إلى شؤون أنفسهم»[٢].

وللإمام عليه السلام عدة أقوال وردت في نهج البلاغة تبيّن أهمية الشورى، نذكر بعضاً منها:

«من استبدّ برأية هلكَ، ومن شاورَ الرجال شاركها في عقولها»[٣]. «. . .ولا ظهيرَ كالمشاورة»[٤]. «من استقبل وُجُوهَ الآراء عَرَف مواقع الخطأ»[٥].

---

(١) باب الخطب، رقم ١١٨. الجُنَن - بضم ففتح - جمع جُنّة بالضم، وهي الوقاية والسترة بالسلاح ونحوه. البأس: الشدة في الحرب. بطانة الرجل: خواصّه وأصحاب سرّه، ممّن يثق بهم. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب محمود عادل، ج١، الربع الأول، حرف النون، مادة (ج ن ن)، ص٤١٥، وحرف الباء، مادة (ب أ س)، ص١٤٧، وحرف الباء، مادة (ب ط ن)، ص٢١٣-على التوالي-.

(٢) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٤٣.

(٣) باب الحكم، رقم ١٦١.

(٤) باب الحكم، رقم ٥٤.

(٥) باب الحكم، رقم ١٧٣.

● **فوائد الشورى ومعيارها:**

من الضروري أن نشير إلى أنّ الشورى تمنح قوةً في الرأي المستخلص بعد المداولات والمناقشات، وتعطي متانةً في القرار المتّخذ بعد المدارسة، وهي طريق الحكمة والوصول إلى الصواب، بالاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين من أبناء الأمة المخلصين. وان المستشير يحصل على الثقة والاطمئنان، حينما تتفاعل الأفكار، ويلمس آفاقها وطموحات المشيرين لها، فتتلاقح لديه الآراء، وتنقدح في ذهنه الإثارات والتوازنات، ليستخلص الرأي المطلوب ضمن الموازين الشرعية والأخلاقية، وعلى القائد حينذاك أن يتحلّى بالحزم بعد اتخاذ القرار المناسب ليقطع دابر التردد.

وبالنتيجة يكون القرار النهائي، في المسائل المصيرية للجهاد والحرب، بيد الإمام القائد، فهو الذي يحسم الموقف، بعد تشخيصه المصلحة العامة للأمة، على ضوء الموقف الشرعي، فالمعيار ليس دائماً هو رأي الأكثرية، وإنما هو في تشخيص المصلحة العامة. وبعد اتخاذ الإمام عليه السلام قراره، يتعين على أصحابه وقادة جيشه، إطاعة أوامره الملزمة لهم شرعاً. كما قال عليه السلام لعبد الله ابن العباس: «لك أن تُشيرَ عليّ وأرى، فإنْ عصيتُك فأطعني»[1]. يقول الشارح المعتزلي: «الإمام أفضل من الرعيّة رأياً وتدبيراً، فالواجب على منْ يشير عليه بأمرٍ فلا يقبل أن يطيعَ، يسلّم ويعلم أن الإمام قد عرفَ من المصلحة ما لَم يعرف»[2]. ففي الرّواية: أنّ ابن عباس أشار

(١) باب الحكم، رقم ٣٢١.

(٢) ابن أبي الحديد المعتزلي، عزّ الدين: شرح نهج البلاغة، مج١٠، ج١٩، ص١٣٨.

على الإمام عليه السلام أن يكتب ولاية البصرة لطلحة، وولاية الكوفة للزبير، ويُبقي معاوية على الشام، حتى تتم البيعة. فإن سار معاوية على النهج فهو المطلوب، وإلّا فأبدلْهُ بغيره، فقال عليه السلام: «معاذ الله أن أفسد ديني بدنيا غيري، ولك يا ابن عباس أن تشير، وأرى. . : أي أنظر في وجه المصلحة. . »[١].

ويذكر نصرُ بن مُزاحم في سيرة الإمام عليه السلام مع قادة جيشه أنه: «لما أراد علي السير إلى أهل الشام دعا إليه مَنْ كان معه مِنَ المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإنّكم ميامينُ الرأي، مراجيحُ الحلم، مقاويلٌ بالحق، مُبارَكو الفعل والأمر، وقد أردنا المسير إلى عدوّنا وعدوّكم فأشيروا علينا برأيكم»[٢]. فاجتمعت الآراء على حرب معاوية وجيشه. وكذلك في حرب الخوارج، فقد استجاب لرأي الأكثرية حينما أشاروا عليه محاربتهم، قبل التوجه لحرب معاوية بعد خدعة التحكيم، خصوصاً بعد تصعيد العمليات الإرهابية من قبل الخوارج، وهذا ما سنعالجه في الفصل القادم، ونقف عند مسألة التحكيم محلّلين موقف الإمام ومناقشين آثاره.

المهم، جاء قادة الجيش الإسلامي إلى الإمام وقالوا له: «يا أمير المؤمنين، علامَ ندعْ هؤلاء وراءَنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا؟ سِرْ بنا إلى القوم، فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدوّنا من أهل الشام»[٣].

وبالفعل وافق عليه السلام رأيهم لتطابقه مع مصلحة الأمة في المسيرة

---

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص ٣٧٤.

(٢) المنقري، نصر بن مزاحم: وقعة صفين، ص ٩٢.

(٣) ابن الأثير، عزّ الدين: الكامل في التاريخ، ج٣، ص ٣٤٢.

الجهادية، وحصلت معركة النهروان وتمّ القضاء على جيش الخوارج قضاءً مبرماً - كما سنلاحظ ذلك-.

● **دراسة ظروف المعركة، وتوجيهات عسكرية للقادة:**

إن دراسة ظروف المعركة، من المسائل الميدانية بالغة الأهمية، في تحديد نجاح العمليات العسكرية على أرض الواقع. فهي تزوّد القائد العسكري الميداني بمعلومات أساسية، تمنحه وضوحاً في حركته، ومعرفةً في خطواته القتالية، ورؤية في توزيع قدرات جيشه على الأرض، مما تزوّده بإمكانيات استيعابيّة لمفاجآت المعركة، وقدرات تخطيطيّة للكرّ والهجوم، ومتابعة الضربات في مفاصل جيش العدو، وتسهيل إيصال الإمدادات العسكرية، لغرض إحراز النصر، وإيقاع الهزيمة بالعدو، فقد قال الإمام عليه السلام في إحدى خطبه العسكرية: «..فقد بعثتُ مقدّمتي، وأمرتُهُمْ بلزوم هذا الملْطاط، حتى يأتيهُمْ أمري، وقد رأيْتُ أن أقطعَ هذه النطْفَةَ إلى شرْذمةٍ منكم، مُوطّنين أكناف دجْلة، فأُنْهضَهُمْ معكم إلى عدوّكم، وأجعَلهُمْ من أمداد القوّة لكم»[1].

إن الإمام عليه السلام لما أراد الخروج إلى صفين لمحاربة معاوية وجيشه «أرسل مقدمة من جيشه، وأمرهم أن يعسكروا على شاطئ الفرات، ويبقوا ملازمين له إلى أن يأتيهم إشعار منه، ثم ذهب قاطعاً النهر إلى المدائن يستنهض أهلها لينضموا إلى جيشه، ويكونوا عوناً له

(١) باب الخطب، رقم ٤٨. الملطاط: حافة الوادي وشفيره وساحل البحر. الشّرذمة: النفر القليلون. التميمي، أركان: صفوة شروح نهج البلاغة، ص١٢١-١٢٢.

ومدداً. فقوله: «رأيت أن أقطع هذه النطفة»، أي: هذا النهر، [هو نهر الفرات، حيث عبره الإمام إلى المدائن][١]، وقوله «إلى شرذمةٍ منكم موطّنين أكناف دجلة»، أي إلى أهل المدائن»[٢]. الذين اتخذوا جوانب نهر دجلة وطناً لهم. فأجْعلهم يقاتلون معكم، ويمدّوكم بالسلاح والرجال.

وكانت هذه الدراسة لظروف المعركة تشمل الظروف الزمانية، في تحديد أفضل أوقات حركة الجيش نحو العدو، على ضوء الأحوال المناخيّة السائدة. وكذلك الظروف المكانية، وذلك ليتم توزيع المقاتلين حسب أصنافهم على أرض المعركة، بما يتناسب مع الدور المطلوب لكلّ صنف منهم، في أثناء المواجهة والقتال. بالإضافة إلى رعاية الظروف النفسية والبدنية لعموم المقاتلين، وذلك ليتم الحفاظ على طاقاتهم القتالية، لغرض توجيهها نحو العدو حين نشوب المعركة، وعدم التفريط بها، بإتعاب المقاتلين وإجهادهم قبل الوصول إلى ساحة القتال، ونشوب الحرب.

كل هذه الدراسة الميدانية يضعها الإمام عليه السلام لقادة جيشه، بعد المداولات معهم على شكل وصايا وتوجيهات عسكرية خاصة.

قال عليه السلام في وصيته العسكرية إلى زياد بن النصر الحارثي، حين بعثه على مقدمته إلى العدو: «فإذا نزلتُمْ بعدوٍّ أو نَزَلَ بكم، فلْيكُنْ معسكرُكمْ في قُبُل الأشراف، أو سِفاح الجِبال، أو أثْناءِ الأنهار، كيما يكون لكم رِدْءاً، ودونكم مَرَدّاً. ولْتَكن مقاتلتكُم من وجهٍ واحدٍ

(١) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج١، ص٢٣٥.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج١، ص ٢٧٦.

أو اثنيْن، واجعلوا لكم رُقباءَ في صَياصِي الجبال، ومناكب الهضاب، لئلّا يأتيكُمُ العدّوُ من مكان مخافةٍ أو أمْنٍ. واعلموا أنَّ مقدّمةَ القوم عيونُهم، وعيونَ المقدّمة طلائعُهُمْ. وإيّاكم والتفرّقَ: فإذا نزلتُمْ فانْزلوا جميعاً، وإذا ارْتحلْتُمْ فارْتحلوا جميعاً، وإذا غشيَكُمُ الليلُ فاجعلوا الرّماحَ كفّةً، ولا تذوقوا النومَ إلّا غِراراً ومَضْمَضَةً»[1].

يوضح الإمام عليه السلام أهمية موقع المعسكر، وتحديد وجهة القتال، ووضع جهاز استطلاع لمراقبة حركات العدو، لاتخاذ ما يلزم لإحباطها، ووضع حماية للمعسكر، وعدم الاسترخاء والنوم العميق. فقوله عليه السلام: «فليكن معسكركم في قُبُل الأشراف»، «أي في مكان مرتفع يحمي ظهوركم، وتشرفون منه على العدو، «أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار»، أو في مكان منخفض كسفح الجبل، أو ما يجري مجرى الخنادق بحيث لا يراكم العدو، ولا تصل سهامه إليكم وضرباته لكم عن بعد. [وأن يقتصروا على فتح جبهة أو جبهتين للقتال]، لأن توزيع القوة يعرضها للخطر، وتوحيدها أدعى للنصر.. وأن يتابعوا أخبار العدو، ويتجسّسوا على قوته وتحركاته.. وأن يكونوا في آرائهم وأفعالهم، وفي حلّهم وترحالهم كرجلٍ واحدٍ،

(١) باب الرسائل، رقم ١١. قبل: قدّام. الاشراف جمع شَرَف - محركةً -: العلو والعالي. سِفاح الجبال: أسافلها. الأثناء: منعطفات الأنهار. الرِّدْء -بكسر فسكون-: العون. المردّ - بتشديد الدال -: مكان الرد والدفع. صياصي: أعالي. المناكب: المرتفعات. الرمّاح كفّة: أي بمثل كفة الميزان مستديرة حولكم محيطة بكم. الغرار - بكسر الغين -: النوم الخفيف. المضمضة: أن ينام ثم يستيقظ ثم ينام تشبيهاً بمضمضة الماء في الفم يأخذه ثم يمجّه، وهو أدق التشبيه وأجمله. الصالح، د.صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٣٣٧٣-٣٣٨٤.

فإنّ ذلك يبعث الهيبة والرعب في نفس العدو، ويجنّب العسكر الكثير من المخاطر.. وأن يقيموا عليهم في الليل حرّاساً، وأن يكون سلاحهم معدّاً ومهيئاً، وأن لا يناموا إلّا بقدر الحاجة والضرورة كيلا يهاجمهم العدو بغتةً، وهم لا يشعرون..»[١]. وقوله عليه السلام: «..كيما يكون لكم رِدْءاً»، أي يكون الموقع المختار للمعسكر عوناً لكم، قال الله سبحانه عن لسان النبي موسى عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[٢]. وقوله «مردّاً»، أي حاجزاً يمنعهم من الهجوم المباغت. والحقيقة أنّ هذه التوجيهات العسكرية لا يمكن الاستغناء عنها في الحروب البرّية بالتحديد، في كل زمان.

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص٤٠٩-٤١٠.

(٢) سورة القصص، ٢٨/ ٣٤.

المطلب الرابع

الوصايا الخاصة لرعاية جوانب الأخلاق، نحو الأسرى وضعاف المجتمع، والمدن

من الأسس الرئيسية في التربية الجهادية لدى الإمام علي عليه السلام، رعاية المسائل الإنسانية، على ضوء القيم الأخلاقية الرفيعة في الإسلام، وذلك بالتعاون بين كافة أجهزة الدولة من المسؤولين والإداريين، خصوصاً قادة الجيش، لأن القوات المسلحة بمختلف المراتب العسكرية في الجيش الإسلامي، تقتدي بالقائد الميداني سلوكاً وتصرفاً وأخلاقاً. فلو رأى الجنود قائدهم متساهلاً معهم في بعض السلوكيات الشاذة، أو مشجعاً لهم بدوافع التنفيس عن وضعهم النفسي، فسوف يفتح أمام الجيش أبواب الانتهاكات الأخلاقية، والحماقات السلوكية، التي ستربك أوضاع الأمة، قانونياً واجتماعياً، خصوصاً في ساعات الظفر حيث نشوة الانتصار، أو حين الدخول إلى المناطق المدنية المأهولة بالناس، حيث يظهر تكتلهم العسكري المسلّح أمام ضعاف المجتمع بالذات، من النساء والأطفال والعجزة، وسيشعرون بقدرتهم على استغلال قوتهم في السيطرة على المزارع المثمرة، والأغنام والخيول، من دون مقاومة المجتمع المدني لهم. من هنا جاء تشديد الإمام عليه السلام في اختيار قادة

الجيش - كما مرّ معنا في عهده لمالك الأشتر - ليكونوا من أبناء النعمة والأصول العائلية المعروفة بالنبل والشرف والكرم والشجاعة، لتتوّج هذه الاستعدادات التربوية الأولية بتربية الإمام الجهادية[١].

وقد برزت هذه الوصايا الإنسانية، في أقوال الإمام عليه السلام الخاصة بالشؤون الحربية، متوجهة إلى قادة الجيش، ثم لعموم المراتب العسكرية، وذلك في عدة جوانب أخلاقية منها:

● **حرمة الغدر ونقض العهد حتى مع العدو:**

فقد قال عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: «وإن عَقَدْتَ بينَك وبين عدوّك عُقدَةً، أوْ ألْبستَهُ منك ذِمَّةً، فَحُطْ عهدك بالوفاء، وارْعَ ذمّتَك بالأمانة، واجْعَلْ نفسك جُنّةً دونَ ما أعطيت، فإنّهُ ليسَ من فرائض الله شيءٌ النّاسُ أشدُّ عليه إجتماعاً، مع تفرُّقِ أهوائهم، وتشتُّتِ آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود.. فلا تَغْدِرَنّ بذمَّتِك، ولا تخِيسَنَّ بعهدكَ، ولا تَخْتلَنَّ عدوّك، فإنّه لا يَجترئُ على الله إلّا جاهلٌ شقيٌّ. وقد جعل الله عهدَهُ أمْناً أفضاهُ بين العبادِ برحمته..»[٢]. فمن علامات المؤمن الوفاء بالعهد والوعد مع الجميع، لأن العهد ذمة أو دَيْن في عنق الإنسان لا بد من إيفائه. لذلك «أكد الإمام عليه السلام على التزام الصدق والصراحة والوفاء حتى مع الأعداء، والابتعاد عن الكذب والخيانة

---

(١) راجع باب الرسائل، رقم ٥٣، ضمن مقطع (فالجنود بإذن الله، حصون الرعية).

(٢) المصدر ذاته، من مقطع بدايته (ولا تدفعنّ صُلْحاً). ذمّةٌ: عهداً. حُطْ عهدك: أمرٌ من حاطه بمعنى حفظه وصانه. الجُنّة: الوقاية. خاس: خان ونقض. الختل: الخداع. الصالح، د. صبحي: فهرس الألفاظ الغريبة، رقم ٤١٩٥-٤٢٠٠.

والغدر والخداع، لأن كلّ ذلك سيءٌ وقبيح عقلاً وشرعاً وإجماعاً»[(١)]. وقد قال عليه السلام: «إنّ الوفاءَ توأمُ الصِّدْقِ، ولا أعلمُ جُنّةً أوْقى منه، وما يغدِرُ مَنْ عَلِمَ كيفَ المرجعُ»[(٢)]. فالذي يؤمن بالآخرة ويوم الحساب لا يغدر بعهده ووعده. وليس معنى ذلك أن يطمئن المسلم لغيره من الأعداء بمجرد إبرام العهد بينهما، وإنما عليه أن يكون صادقاً وفياً ملتزماً من جانبه، ولكن على حذرٍ من سلوك عدوّه واحتمال انقلابه، لذلك قال عليه السلام: «..ولكن الحذَر كلّ الحذر من عدوّك بعد صُلحْه، فإنّ العدوّ رُبّما قاربَ ليتغفّلَ. فخُذْ بالحزم، واتّهِمْ في ذلك حُسْنَ الظّن..»[(٣)]. ومن هنا قال عليه السلام في إحدى حكمه: «الوفاءُ لأهل الغدر غَدْرٌ عند الله، والغَدْرُ بأهل الغدر وفاءٌ عند الله»[(٤)]. وذلك «بأن يفي الإنسان بعهده معهم، بعد ما غدروا هم بالعهد. «غدرٌ عند الله» إذ ذلك يوجب جرأة الناس على الغدر، وتجرؤ الناس على محارم الله حرام»[(٥)]. فالله ﷻ لا يحبّ الخائنين.

- **الرفق بالجرحى والأسرى والفارّين:**

فقد قال عليه السلام: «فإذا كانت الهزيمةُ بإذن الله فلا تقْتُلُوا مُدْبراً، ولا

---

(١) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص ١١٣.

(٢) باب الخطب، رقم ٤١. التوأم من أتْأمت المرأة إذا وضعت اثنين من بطن واحد، أي هما زوجان وإخوان. والولدان: توأمان. والجمع: توائم. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ج١، الربع الأول، حرف التاء، مادة (ت أ م)، ص٢٧٩.

(٣) باب الرسائل، رقم ٥٣. من مقطع (ولا تدفعنّ صُلْحاً).

(٤) باب الحكم، رقم ٢٥٩.

(٥) الشيرازي، السيد محمد: توضيح نهج البلاغة، ج٤، ص٣٨٥.

تُصيبوا مُعْوراً، ولا تُجْهزوا على جريح»[١]. وبذلك فقد «أرسى الإمام عليه السلام مبدأ عدم استعمال القوة ضد من يعجز عن الدفاع عن نفسه، أو من يرفض هذا الدفاع، ومن هذا الصنف الجرحى، . . وبعد أكثر من ثلاثة عَشَرَ قرناً، أقرّ القانون الدولي ضرورة العناية بجرحى الخصم، والامتناع عن تعمّد زيادة آلامهم»[٢].

وهكذا أمر عليه السلام بعدم قتل الفار والأسير في المعركة، بقوله عليه السلام: «فلا تقتلوا مُدْبراً، ولا تصبوا مُعوراً» أي «دعوا من هرب وشأنه، ولا تتعرضوا له بسوء، وأيضاً لا تتعرضوا للعاجز الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه»[٣]. وهو المعور: أي الأسير، فأمرَ عليه السلام بعدم ضربه وجرحه أو قتله.

- **عدم التعرّض للنساء بسوء،**

فقد قال عليه السلام في تكملة رسالته الماضية:

«ولا تهيجوا النساء بأذىً، وإن شتمْنَ أعراضَكم، وسَبَبْنَ أُمراءكم، فإنّهُنّ ضعيفاتُ القُوى والأنفُس والعقول، إنْ كنّا لنُؤمَرُ بالكفّ عَنْهُنّ وإنّهُنّ لمشركاتٌ. .»[٤]. أي، لقد كان يأمرنا رسول

---

(١) باب الرسائل، رقم ١٤. مُعْوراً: الذي أصيب بنقصٍ أو عيب في المعركة. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين: ترتيب: محمود عادل، مج٢، الربع الثالث، حرف العين، مادة (ع و ر)، ص٢٧٧.

(٢) طي، د. محمد: الإمام علي ومشكلة نظام الحكم، ص ١٥١. راجع اتفاقيات جنيف لسنة ١٩٤٩م.

(٣) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٣، ص ٤١٨.

(٤) باب الرسائل، رقم ١٤.

الله ﷺ باستيعاب ما يصدر من ألسنتهنّ قدْحاً وشتْماً، رعايةً لخصوصيّة النساء من الناحية العاطفية. يقول الشيخ محمد عبده: «هذا حكم الشريعة الإسلامية لا يتوهمه جاهلوها من إباحتها التعرّض لأعراض الأعداء نعوذ بالله»(١).

● **تعليمات خاصة إلى المدن الواقعة في طريق الجيش:**

إن المدن الواقعة في طريق مرور الجيش، تدخل في حالة طوارئ استثنائية، أثناء مرور القوات المسلحة بها، قد تصل إلى درجة إرباك الوضع الاجتماعي العام، وتخلخل بعض الموازين الأخلاقية والقانونية في البلاد، جرّاء تلاقي أصحاب القوة والهيبة والسلاح بالأهالي. لذلك وضع الإمام عليه السلام وصاياه الخاصة لهذه الظاهرة، لضمان التعامل السليم، وحفظ الأمن والقيم الخلقية بين الطرفين. فقد جاء في كتاب له إلى العمال الذين يطأ الجيش عملهم: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى مَنْ مَرّ به الجيشُ من جباة الخَراج وعُمّال البلاد.

أما بعدُ، فإنّي قد سيّرتُ جنوداً هي مارّةٌ بكم إنْ شاء الله، وقد أوصيْتُهُمْ بما يجبُ لله عليهم منْ كفِّ الأذى، وَصَرْف الشَّذى، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكمْ مِن مَعرَّةِ الجيش، إلّا منْ جَوْعةِ المُضْطرِّ، لا يجدُ عنها مَذْهباً إلى شِبَعه. فنكّلوا منْ تناول منهم شيئاً ظُلْماً عن ظُلمهمْ، وَكُفّوا أيدي سُفهائكم عن مُضارَّتِهِمْ، والتّعَرُّضِ لهم فيما اسْتثنيْناهُ منهمْ. وأنا بينَ أظْهر الجيش، فارفعوا إليّ مظالمَكُمْ، وما

(١) عبده، الشيخ محمد: شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١٥.

عَراكُمْ ممّا يغلبُكُمْ من أمرهمْ، وما لا تُطيقون دفعَهُ إلّا بالله وبي، فأنا أغَيّرُهُ بَمعُونة الله، إنْ شاءَ الله»[١].

ونفهم من هذا النص عدة اجراءات خاصة اتبعها الإمام عليه السلام، لحماية الأهالي وأملاكهم، وكذلك لحفظ الرسالة الجهادية للجيش من أهمها:

أ • إبلاغ المسؤولين والإداريين في المدن، بزمن مرور الجيش على أراضيهم، ليتخذوا الاجراءات المناسبة لذلك.

ب • إبلاغهم أيضاً، بأن الإمام أوصى جيشه بوصايا أخلاقية خاصة أثناء مرورهم بأهالي المدن، من كفّ الأذى، وإبعاد الظلم والاعتداء من سلوكهم، «لأنهم القوة الرادعة للمعتدين، فكيف يبغون ويعتدون؟»[٢].

وإعلامهم - أيضاً - بأنه عليه السلام بريء الذمة من إساءة أيّ فردٍ من الجيش إلّا من اضطرّ لسدّ رمقه وجوعه من دون اعتداء وظلم.

ج • طالبهم بمراقبة أفراد الجيش، وذلك لردع وتأديب المسيء منهم، بالتعاون مع قادة الجيش.

د • طالبهم بإبعاد سفهائهم، ومنعهم عن المواجهة المضرّة

---

(١) باب الرسائل، رقم ٦٠. الشّذى: الأذى والشّر. الطريحي، فخر الدين: مجمع البحرين، ترتيب محمود عادل، ج١، الربع الثاني، حرف الشين، مادة (ش ذ و)، ص٤٩٣. معرة الجيش: أذاه وإساءته. معلوف، لويس: المنجد في اللغة، حرف العين، ص٤٩٤.

(٢) مغنية، محمد جواد: في ظلال نهج البلاغة، ج٤، ص١٤٣.

للجيش أثناء مروره بمناطقهم، وذلك لكي لا يثيروا غضب العسكريين في ردة فعل سلبية.

هـ • وحتى تكون المسألة عملية، طالب الولاة والإداريين في تلك المدن، بوضع قادة الجيش في صورة الأحداث الحاصلة أثناء مرور الجيش. وطَمْأنَهم بوجوده شخصياً لمعالجة الظواهر السلبية إن حصلت، بقوله: «وأنا بين أظهر الجيش..» أي في وسطه، كناية عن كونه قريب، يسهل لقاؤه، وذلك «ليدفعوا إليه مظالمهم وما غشيهم من أمرٍ يغلب عليهم من الجيش لا يطيقون دفعه إلّا بالله وبه، فيغيّره بمعونة الله وخشيته»[١].

وفي ختام هذا المطلب، نشير إلى أن وصايا الإمام الحربية قد بلغت الذروة في إنسانيتها واخلاقيتها، وهذا إنْ دل على شيء فإنما يدلّ على عظمة الإسلام في رعاية حقوق الإنسان، خصوصاً في ظروف ضعفه. قياساً بما تعانيه الإنسانية اليوم من ويلات وكوارث، بالرغم من التطور المادي[٢]. وهنا يذكر الدكتور محمد طي، على سبيل المقارنة والتقويم بين تعاليم ووصايا الإمام علي وما توصلت إليه البشرية بعد القرون الطويلة، فيقول: «ان القواعد الإنسانية،

---

(١) البحراني، ابن ميثم: شرح نهج البلاغة، ج٥، ص ١٨٧.

(٢) خير شاهد على انتهاك حقوق الإنسان - اليوم - في ظروف الحرب والاحتلال، ما تناقلتهُ الفضائيات والصحف الدولية والمحلية من صور حيّة لفضائح أخلاقية وأساليب للتعذيب الجسدي والنفسي للسجناء العراقيين في سجن أبي غريب ببغداد، من قبل قوات الاحتلال - الأمريكي البريطاني - خلال السنة الأولى من احتلال العراق، في ٢٠٠٤م.

التي وضعها الإمام علي عليه السلام للحرب، والتي.. تستهدف الاقتصار على الحدّ الأدنى من إلحاق الأذى والخسائر والآلام بالإنسان.. يجب أن تكون الغايات النهائية للسياسيين والحقوقين، الذين يهمّهم بقاء الإنسانية وتقدمها وازدهارها وسعادتها.

.. [ويضيف] فإذا توجهنا إلى قادة العالم الثالث فإننا نجد، رغم احتواء الدساتير والقوانين على مبادئ الحقوق والحريّات، أن الإنسان لا وزن له ولا قيمة، كلما تعارضت مواقفه مع مواقف النظام... [حيث] إن الحكومات اليوم تستطيع أن تعلن الطوارئ، فتتهربّ من الالتزام بالحقوق والحريات. أما علي عليه السلام فقد التزم بها في كل المحن والكوارث التي ألـمّت به، دون أن يغيّر أو يبدّل»[1].

وهنا لا بد من التنوية إلى أن كلام الدكتور محمد طي، في ان الإمام وضع القواعد الإنسانية، إنما يعني القواعد الإنسانية التي وضعها الإسلام في القرآن الكريم والسنة الشريفة، كما نفهم ذلك منه.

---

(١) طي، د.محمد: الإمام علي عليه السلام ومشكلة نظام الحكم، ص ١٥٤-١٥٦. ويتناول الدكتور محمد. تحت عنوان: (القواعد التي لم تتفق عليها الإنسانية حتى اليوم). ويلخصها في أربعة قواعد سنّها الإمام علي عليه السلام، ولا زالت البشرية بعيدة عن تطبيقها، وهي: (قاعدة البدء بالقتال، الموقف من الفارّين من جنود العدو، ومن المختبئين، مسألة توفير الماء ومسألة الغنائم). للتفاصيل، راجع المرجع ذاته، ص ١٥١-١٥٣.

فهرس المجلد الثالث

المبحث الثاني: معركة صفّين ٥

المطلب الأول: مرتكزات السياسة الجهادية: لدى الإمام في عهد خلافته ٧

العودة الواعية إلى القرآن الكريم، والاقتداء بالرسول الأكرم ﷺ ١٠

التعبئة القتالية بشدّ الهمم للجهاد، ونقد المتباطئين عنه ٢٠

إصرار الإمام على منهجيّة الاستقامة الإسلامية ٢٣

المطلب الثاني: استمرار المفاوضات السياسية، قبل وقوع الحرب وأثنائها ... ٢٧

إرسال وفود للحوار، ومبعوثين للصلح ٣٠

المراسلات الخطيّة للإمام علي رضي الله عنه ٣٧

الإمام يطالب معاوية بالمبارزة الشخصية، حقناً لدماء المسلمين ٣٩

المطلب الثالث: التعاليم والفنون القتالية لدى الإمام علي رضي الله عنه ٤٣

زرع روح الإقدام في المعركة، والإيثار أثناء القتال ٤٧

المبارزات الشخصية وحرب الأفواج ٥٠

معاوية يعالج هزيمته برفع المصاحف، كما توقّع الإمام عليه السلام ٥٨

المبحث الثالث: معركة النهروان ٦٩
المطلب الأول: سياسة الإمام عليه السلام، مع المعارضة بعد التحكيم ٧١
المدخل التاريخي لظهور المعارضة ٧١
أهم مرتكزات الإمام في التعامل مع المعارضة ٨٥
الحوار الفكري والسياسي مع الخوارج، وأثره عليهم ٩٢
التوجيه التربوي، وفتح آفاق الجهاد مجدّداً ٩٥
المطلب الثاني: أهم السمات الفكرية والسلوكية عند الخوارج ٩٩
تغليب الارتباط القبلي العُرفي على الديني الشرعي: ١٠٠
السّذاجة والسطحية في فهم الإسلام ١٠٤
اعتماد العنف والإرهاب الدموي ١٠٩
المطلب الثالث: خلاصة الدلالات التربوية: للمعالجة الجذرية عند الإمام عليه السلام . ١١٥
الفصل الخامس: فئات المتلقين للتربية الجهادية ١٢٣
المبحث الأول: الأمة الإسلامية ١٢٩
المجاهدون أبناء الأمة الإسلامية وحصنها ١٣١
المطلب الأول: الخطاب العام للتوجيه المعنوي ١٣٥
الواقعية في التفكير، والوضوح في التعامل ١٣٦
استنهاض الهمم وأخذ الدروس والعبر من التجارب ١٤٠
الالتفاف حول العلماء الربّانيين والتزوّد منهم ١٤٣
المطلب الثاني: بناء الإيمان والعقيدة في القلوب ١٤٧
اللجوء الدائم إلى الله سبحانه وتعالى ١٥٠
القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة ١٥٣
أئمة أهل البيت عليهم السلام حجج الله على الخلق ١٥٧

الآخرة هدف المجاهدين الأكبر ١٦٢
المطلب الثالث: الأخلاق العامة ١٦٧
مبدئية الأخلاق العامة ١٧٠
معرفة هدفيّة حواسّ الإنسان، والاشتغال بإصلاح الذات ١٧٤
الأخلاق العامة للروابط والعلاقات الاجتماعية ١٧٧
المبحث الثاني: الجيش الإسلامي ١٨٣
أهمية الجيش الإسلامي ومهامّه ١٨٥
المطلب الأول: تطبيق فرض الجهاد: من التوفيق الإلهي لخاصّة أوليائه ١٨٩
الجهاد باب من أبواب الجنّة، خاصٌّ بأولياء الله ١٩١
الجهاد في سبيل الله، عنوان صدق الإيمان ١٩٥
الجهاد حتى الشهادة أكرم نهاية للإنسان ١٩٧
المطلب الثاني: الإطاعة والانضباط لأوامر القيادة العسكرية ١٩٩
أهمية الإطاعة للأوامر، والانضباط أمام القيادة ٢٠١
معرفة خلفيات الجنود، للتمكن من استيعابهم وصياغتهم نفسياً ٢٠٣
من نتائج عدم الإطاعة والانضباط ٢٠٥
المطلب الثالث: الالتزام بالنظام ٢٠٩
الالتزام بالنظام قبيل المعركة وفي حالة الانتصار ٢١١
ظاهرة تعظيم الخليفة أو القائد، ومدحه والثناء عليه أمامه ٢١٤
من نتائج عدم الالتزام بالنظام ٢١٧
المطلب الرابع: قتالُ الأهل والأرحام بتسليمٍ وصبرٍ وثبات ٢٢٣
إطاعة الجيش وولاؤه لولي الأمر، الخليفة الشرعي ٢٢٥
قتال الأهل والأرحام في عهد النّبي الأكرم ﷺ ٢٢٧

قتال الأهل والأرحام في منهج الإمام علي عليه السلام ٢٢٩
المبحث الثالث: قادة الجيش ٢٣٣
المطلب الأول: الأوامر الخاصة بأسمائهم في شأن الدفاع والإقدام ٢٣٩
شروط اختيار قائد الجيش ٢٤١
شمولية الأوامر لشأن الدفاع والإقدام ٢٤٣
المطلب الثاني: الوصايا الخاصة للتعبئة الذاتيّة والانضباط ٢٤٩
التعبئة الذاتية لقادة الجيش ٢٥٠
وقفة تعبويّة من تعامل النبي صلى الله عليه وآله مَعَ أصحابه الكرام ٢٥٣
المطلب الثالث: الشورى: ودراسة ظروف المعركة ٢٥٧
فوائد الشورى ومعيارها ٢٥٩
دراسة ظروف المعركة، وتوجيهات عسكرية للقادة ٢٦١
المطلب الرابع: الوصايا الخاصة لرعاية جوانب الأخلاق،
نحو الأسرى وضعاف المجتمع، والمدن ٢٦٥
حرمة الغدر ونقض العهد حتى مع العدو ٢٦٦
الرفق بالجرحى والأسرى والفارّين ٢٦٧
عدم التعرّض للنساء بسوء ٢٦٨
تعليمات خاصة إلى المدن الواقعة في طريق الجيش ٢٦٩
فهرس المجلد الثالث ٢٧٣

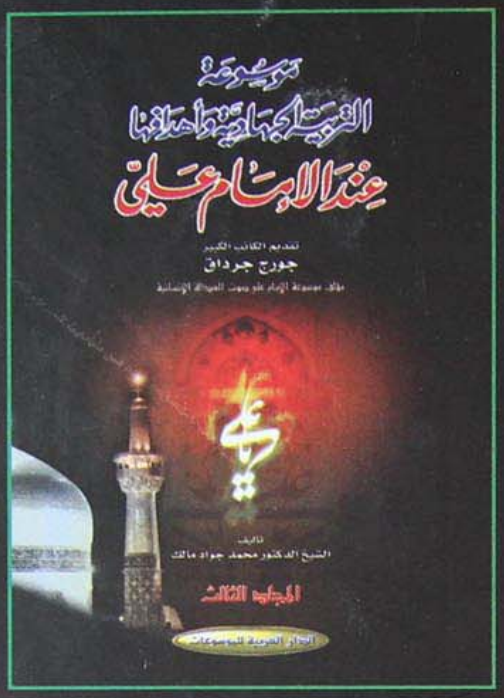

من أقوال الإمام علي

- إنه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق.
- إياك والإعجاب بنفسك وحب الإطراء.
- إياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التسقط فيها عند إمكانها.
- خذ من الدنيا ما أتاك وتولّ عما تولى عنك فإن أنت لم تفعل فأجمل في الطلب.
- قدر الرجل على قدر همته وصدقه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته.
- كاد العفيف أن يكون ملكاً من الملائكة.

ISBN 9786144240281